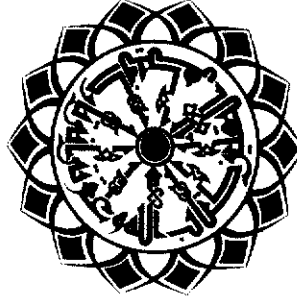


بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



# سَائِلُ الثَّقَلَيْنِ

مَجَلَّةُ اِسْلَامِيَّةٍ جَامِعَةٍ

العدد الخامس والخمسون • السنة الرابعة عشرة • صفر - ربيع الأول ١٤٢٨ هـ : ٢٠٠٧ م

المراسلات والاتصالات باسم رئيس التحرير على العنوان التالي:

الجمهورية الإسلامية في إيران - قم. ص.ب: (٨٩٤ - ٣٧١٨٥)

هاتف: ٢١٣١١ (٠٠٩٨٢٥١) فاكس: ٢٩١٣١٠٠ (٠٠٩٨٢٥١)

موقعنا على الانترنت

[WWW.ahl-ul-bayt.org](http://WWW.ahl-ul-bayt.org)

البريد الإلكتروني للمجلة: [Tahrir-thaqalayn@hotmail.com](mailto:Tahrir-thaqalayn@hotmail.com)

البريد الإلكتروني لإدارة المجلات: [Bc@ahl-ul-bayt.org](mailto:Bc@ahl-ul-bayt.org)

# سَبِيلُ الثَّقَلَيْنِ

مَجْلَدُ رَأْسِ الْإِسْلَامِ جَامِعَةً

## محتويات العدد

### □ كلمة التدرير

\* إحياء مراسم عاشوراء، رسالة توحيد لا رسالة افتراق

رئيس التحرير ..... ٤

### □ ملف العدد : ( الإمام الحسين عليه السلام )

\* عاشوراء في خطابات القادة

إعداد: قسم الأرشفة ..... ١٧

\* معالم الخطاب السياسي لأنصار الحسين عليه السلام

علي الموسوي ..... ٢٧

\* دور المرض في حفظ حياة الإمام السَّجَّاد عليه السلام

بسام حسين ..... ٤٤

\* المرأة، موقفها ودورها في عاشوراء

جوادي آملي ..... ٦٠

\* قراءة في وقعة الطف لأبي مخنف، بتحقيق اليوسفي

الغروي

أحمد أبو زيد ..... ٧٤

\* الحسين في الفكر المسيحي، في حوار مع المفكر

المسيحي أنطوان بارا

إعداد: قسم الترجمة ..... ٩٧

\* من أنباء عاشوراء

إعداد: علي أحمد الحسن ..... ١٢٦

• تعنى بالدراسات والنتائج الفكرية، خصوصاً التي تصب في خانة الدفاع عن حريم القرآن الكريم والنبى ﷺ الأمين، وآل بيته الطاهرين، في جميع الأبعاد المختلفة.

• تستقبل رسالة الثقلين نتائج العلماء والمفكرين المشتملة على الشروط التالية:

◀ أن تكون خاضعة لأسلوب البحث العلمي منهجاً ومنهجية ومضموناً.

◀ أن لا تكون قد نُشرت سابقاً.

◀ أن لا تكون عملاً مكرراً، بل

لا بد أن تحتوي على شيء من

التجديد والعدالة. والأولوية

دائماً للدراسات الفكرية

المستحدثة.

◀ أن لا تنقص عن عشرة

صفحات، ولا تزيد على

الخمسين، والصفحة الواحدة

تتضمن (٢٥٠) كلمة.

◀ أن تُرفق المقالة بخلاصة لها

في صفحة واحدة.

• الآراء الواردة في ما يُنشر لا تعبر

بالضرورة عن رأي المجمع أو

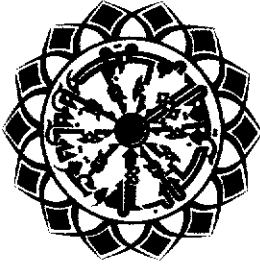
المجلة.

• تسلسل الموضوعات المنشورة

يخضع لاعتبارات فنية محضة.

• لا تناد المقالات المرسلة إلى

المجلة، نُشرت أم لم تُنشر.



الحج العام إلى البيت

المشرف العام

الشيخ محمد حسن اخذري

تصدر عن

المعاونية الثقافية - إدارة المجلات

رئيس التحرير

الشيخ معين دقيق

مدير التحرير

السيد علي الموسوي

العدد الخامس والخمسون

السنة الرابعة عشرة

صفر - ربيع الأول

١٤٢٨ هـ / ٢٠٠٧ م

المطبعة: ثلي - طهران

٠٠٩٨ - ٢٢ - ٩٢٤٨٥١٨٢

\* لسان حال المولى أبي عبد الله الحسين عليه السلام

حسن المرعي ١٣٧ .....

□ دراسات فكرية

\* حجية سيرة أهل البيت عليه السلام في المسائل السياسية والاجتماعية

حسين عبد الحمدي ١٣٩ .....

\* الجري والتطبيق عند مفسري الإمامية، قراءة في المفهوم والثمرات

معين دقيق العاملي ١٥٢ .....

\* في الكلام المستأنف على مقولة الاستنهاض، حين يولد السؤال من الحدث

محمود حيدر ١٧٥ .....

\* أخلاقية الدعوة عند النبي الأكرم عليه السلام

حسين الرازي ١٩٠ .....

\* أصحاب العقائد الدينية في مجتمعات المسلمين

أحمد عبد الرحيم السايح ٢٣٠ .....

□ ردود سريعة

أسرة التحرير ٢٦٢ .....

□ طلب مقالة

\* محاور الكتابة في الأعداد القادمة

٢٦٤ .....



وهذا الاستعبار وأخذ الدُّروس يقتضي - بطبيعة الحال - استذكراً دائماً لتلك الوقائع التي حصلت قبل الحادثة وبعدها وفي خضمِّها. وسُنَّة الإحياء الدَّائم لمسيرة عاشوراء من أهمِّ الرِّوافد التي تصبُّ في هذا المجال.

واستذكار الماضي للاعتبار للحاضر من السُّنن الكونيَّة التي حثَّ عليها العقل والوجدان والنُّقل، ولم تكن حادثة عاشوراء - كما أسلفت - شذوذاً عن هذه القاعدة، إلَّا أنَّه على الرَّغم من ذلك يُحاول البعض أن يُخرج هذا الحدث العظيم الَّذي كان وما يزال يعيش في كيان الأُمَّة ووجدانها على كَرِّ اللَّيالي والأيام، يُحاول أن يُخرجه عن تلك القاعدة التي تُعتبر من مسلّمات علم الاجتماع، واستفاد منها صانعو التَّاريخ بأعمالهم قبل أفلامهم، ونصّت الفطرة البشريَّة على أن ما من حادثةٍ مهما عظمت أو صغرت إلَّا ولها لمساتٌ طفيفةٌ تارة، وعميقةٌ أخرى على واقع كُلِّ أُمَّةٍ ترتبط ارتباطاً ما بذلك الحدث ومستقبلها.

وقد يحلو لهذا البعض بأن يُغلّف هذا الإنكار بطابع استدلائيٍّ مستندٍ إلى القرآن الَّذي هو كتاب الله الخالد ؛ بحيث يوهم السَّامع أو القارئ بأنَّ القرآن قد سنَّ قاعدةً أخرى مغايرة لتلك القاعدة، إلَّا وهي قاعدة: (ما لنا ولغيرنا)، مدللاً على هذه القاعدة تارةً بمثل قوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُنتَلَوْنَ عَنْهَا كَانُوا يَمُون﴾ [البقرة: ١٣٤، ١٤١]، وطوراً آخر عن طريق الإيحاء بأنَّ هذا الإحياء يوجب الفتنة والفرقة بين المسلمين، الَّذي دلَّ القرآن والسُّنَّة الطَّاهرة على حرمتها.

ومثل هذه الدُّرائع كادت أن تنظلي على ذوي العقول البسيطة، خصوصاً في هذا العصر بالذَّات، الَّذي تكالبت فيه قوى الشُّرق والغرب على تفريق المسلمين وتمزيقهم، وإزالة شوكتهم، وجعل بأسهم فيما بينهم.

### الإحياء لا يتنافى عدم المؤاخذه عمّا فعله السابق

أما الذريعة الأولى، فهي ممّا أكل الدهر عليها وشرب، وقد تذرّع بها الكثير ممّن يسير خلف أصحاب السّطوة والسّلطان على مرّ العصور، فقد روى ابن عساكر بإسناده إلى رفاعه: «أنّ عبادة بن الصّامت مرّت عليه قطارة - وهو بالشّام - تحمل الخمر، فقال: ما هذه، أزيّت؟ قيل: لا، بل خمر تباع لفلان. فأخذ شفرة من السّوق، فقام إليها فلم يذر فيها راوية إلّا بقرها، وأبو هريرة إذ ذاك بالشّام، فأرسل فلان إلى أبي هريرة، فقال: ألا تمسك عنّا أخاك عبادة بن الصّامت؟! أمّا بالغدوات فيغدو إلى السّوق فيفسد على أهل الدّمة متاجرهم، وأمّا بالعشيّ فيقعّد بالمسجد ليس له عمل إلّا شتم أعراضنا وعيينا، فأمسك عنّا أخاك! فأقبل أبو هريرة يمشي حتّى دخل على عبادة، فقال: يا عبادة، مالك ولمعاوية! ذره وما حمل؛ فإنّ الله يقول: ﴿تِلْكَ أُمّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُنتَلَوْنَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. قال: يا أبا هريرة! لم تكن معنا إذ بايعنا رسول الله ﷺ، بايعناه على السّمع والطّاعة في النّشاط والكسل، وعلى النّفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، وأنّ نقول في الله لا تأخذنا في الله لومة لائم، وعلى أنّ ننصره إذا قديم علينا يثرب، فنمنعه ممّا نمنع منه أنفسنا وأزواجنا وأهلنا، ولنا الجنّة، ومن وفى وفى الله له الجنّة ممّا بايع عليه رسول الله ﷺ، ومن نكث فإنّما ينكث على نفسه، فلم يكلمه أبو هريرة بشيء...»<sup>(١)</sup>.

وروى الدّارقطني في سننه قال: «حدّثنا إسماعيل بن العباس الوراق، ثنا عباد بن الوليد أبو بدر، ثنا الوليد بن الفضل، أخبرني عبد الجبار بن الحجاج بن ميمون الخراساني، عن مكرم بن حكيم الخثعمي، عن سيف بن منير، عن أبي الدرداء، قال: أربع خصال سمعتهنّ من رسول الله ﷺ، لم أحدثكم بهنّ، فاليوم أحدثكم بهنّ، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: لا تكفّروا أحداً من أهل قبلي بذنب وإنّ عملوا الكبائر، وصلّوا خلف كلّ إمام، وجاهدوا - أو قال: قاتلوا - مع كلّ

أمير. والرابعة: لا تقولوا في أبي بكر الصديق، ولا في عمر، ولا في عثمان، ولا في عليٍّ إلّا خيراً، قولوا: ﴿تِلْكَ أُمّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُنْشِتُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾». وعلّق عليه بقوله: «ولا يثبت إسنادُه؛ مَنْ بين عباد وأبي الدرداء ضُعفاء»<sup>(٢١)</sup>.

وعلّق عليه الذهبي بقوله: «قُلْتُ: هذا باطلٌ، ورواته تَلَفَى هَلَكى، ويروى بإسناد آخر مظلم، عن مكرم هذا مختصراً... والكُلُّ من الدّارقطني، فهو مجمع الحشرات»<sup>(٢٢)</sup>.

فأتّضح لنا وضوحاً كاملاً أنّ محاولة تحميل القرآن لقاعدة «ما لنا ولغيرنا» محاولة قديمة يائسة، بل يُمكن القول بأنّها جذورٌ قبل الإسلام قد يكون اليهود لهم دخالةٌ في سنّها في الفكر المسيحي من خلال تحميلها لما ورد في إنجيل متى ومرقس من قاعدة «أعطوا ما لقيصر لقيصر، وما لله لله»<sup>(٢٣)</sup>، والحال أنّه على فرض صحّة ورود هذه المقولة في الإنجيل الحقيقي نقطع أنّ ليس المراد منها ذلك الفهم التّخديري الَّذي أُريد منه فصل الدّين عن السّياسة، وتخدير الأُمّة وترويضها على الابتعاد عن التّدخل في أجواء الحكم، والاكتفاء بالخروج إلى الكنائس في أيّام الأحاد، وتجريد الرّعيّة من روح المسؤوليّة وبركة النّصيحة، فيطمئنّ الحُكّام، ويخلو لهم الجوّ، فيتخذون عباد الله خولاً، وماله دولاً. وإنّما المراد منها واضحٌ بعد الالتفات إلى تمام القصّة؛ حيث ورد في إنجيل متى: «... حينئذٍ ذهب الفريسيّون وتشاوروا لكي يصطادوا بكلمة. فأرسلوا إليه تلاميذهم مع الهيروديسين قائلين: يا معلّم، نعلم أنّك صادقٌ، وتعلم طريق الله بالحقّ، ولا تبالى بأحد؛ لأنّك لا تنظر إلى وجوه النّاس. فقل لنا ما تظن! أيجوز أن تُعطى جزيّة لقيصر أم لا؟ فعلم يسوع خبثهم، وقال: لماذا تجرّبونني يا مراؤون؟! أروني معاملة الجزية! فقدموا له ديناراً. فقال لهم: لمن هذه الصّورة والكتابة؟ قالوا: لقيصر. فقال لهم: أعطوا إذاً ما لقيصر لقيصر، وما لله لله. فلمّا

سمعوا تعجبوا وتركوه ومضوا»<sup>(٥)</sup>.

وفي إنجيل لوقا بعد أن قال لهم تلك المقولة: «فلم يقدروا أن يُمسكوه بكلمة قدام الشعب، وتعجبوا من جوابه وسكتوا»<sup>(٦)</sup>.

ففي هذا الكلام قرائن واضحة على أن عيسى عليه السلام كان يدعو من خلال دعوته إلى الله تعالى إلى تعاليم سياسية واجتماعية تقتضي قلب الأوضاع على قيصر زمانه، فلما عرف أعداؤه بموقفه هذا قرروا أن ينصبوا له فخاً ويوقعوا به أمام الشعب والسلطة الحاكمة، كما يدل على ذلك قوله: «لكي يصطادوا بكلمة»، وقوله: «فلم يقدروا أن يُمسكوه بكلمة قدام الشعب». وعندما أجابهم بما ينافي رغبتهم تعجبوا من كلامه، وتركوه ومضوا.

وأضاف بعضهم جواباً لطيفاً في المقام، وهو: «الذي يظهر هنا أن المسيح عليه السلام قد استعمل التورية في نطاق التقية؛ إذ أنه قال لهم: أعطوا ما لقيصر لقيصر، وما لله لله. فهذا وإن فهم منه أعداء المسيح جواز إعطاء الجزية لقيصر، إلا أنه من الواضح عدم قصده عليه السلام لمثل هذا المعنى، فلا يفهم حقيقة من هذه الجملة سوى أن ما لقيصر الحق في أخذه فأعطوه له، وهذا لا يعني - مطلقاً - أن الجزية من حقه، بل إن الأموال كلها لله تعالى. فيكون عليه السلام قد استعمل التورية للتخلص من شر الأعداء الذي عرف شرهم، أي: أنه استعمل التقية بعدم تصريحه بحرمة إعطاء مثل هذه الأموال إلى فرعون زمانه»<sup>(٧)</sup>.

وإنما نسبتُ ترويح هذه الفرية على روح الله عيسى عليه السلام إلى اليهود؛ لأن هؤلاء «الفريسيين» من الكهنة كما صُرح بذلك في إنجيل برنابا<sup>(٨)</sup>، وهم من اليهود كما لا يخفى، فحيث بعد أن فضح خططهم أرادوا بعد ذلك أن يستفيدوا من تلك المقولة لصالحهم.

وأما الاستدلال على قاعدة «ما لنا ولغيرنا» بالآية المتقدمة فهو مما يضحك الشكلى؛ إذ أن الآية الشريفة في الموردين اللتين وردت فيهما لا تدل على أكثر من



أَنَّ اللَّهَ لَا يُحَاسِبُ الْمَتَأَخِّرَ عَلَى مَا فَعَلَهُ الْمُتَقَدِّمُ، فهي نظير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، وقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكُمْ مَآخِذُ وَعَالِكُمْ مَأْتَمَةٌ﴾ [التور: ٥٤]. وكتب التفسير عند الفريقين متفقة على ذلك، فهذا الطبري (ت: ٣١٠) يقول: «ويعني بقوله: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾، أي: ما عملت من خير، ولكم يا معشر اليهود والنصارى مثل ذلك ما عملتم، ولا تؤاخذون أنتم أيها الناحلون ما نحلتموه من الملل، فتسألوا عما كان إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وولدهم يعملون فيكسبون من خير وشر؛ لأن لكل نفس ما كسبت، وعليها ما اكتسبت، فدعوا انتحالهم وانتحال مللهم، فإن الدعاوي غير مغنيتكم عند الله، وإنما يغني عنكم عنده ما سلف لكم من صالح أعمالكم إن كنتم عملتموها وقدمتموها»<sup>(٩١)</sup>.

ويقول الفخر الرازي (ت: ٦٠٦) في تفسير إحدى الآيتين: «أما قوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾، فهو إشارة إلى من ذكرهم الله تعالى في الآية المتقدمة، وهم إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وبنوه الموحدون. والأمة الصنف. خَلَتْ: سلفت ومضت وانقرضت. والمعنى: أتى اقتضصت عليكم أخبارهم وما كانوا عليه من الإسلام والدعوة إلى الإسلام، فليس لكم نفع في سيرتهم دون أن تفعلوا ما فعلوه، فإن أنتم فعلتم ذلك انتفعتم، وإن أبيتم لم تنتفعوا بأفعالهم»<sup>(٩٢)</sup>. ومن المعلوم أن الاعتبار بمن كان قبلنا وأتباعهم في الخير موقوف على تتبع أحوالهم وتدارس شؤونهم.

وعموماً كيف تكون هذه الآية في مقام سنّ قانون ترك البحث فيمن سبقنا، والقرآن مشحون بالآيات التي تدل على أخذ العبرة من الأمم السابقة، ويكفي للتدليل على ذلك آيات القصص؛ فإن من فوائدها البارزة أخذ الاعتبار.

ولا يكاد ينقضي تعجبي مع قراءة ﴿وَلَا تُشْكُلُون﴾ بضمّ التاء دون فتحها كيف جوّز البعض لنفسها استفادة قاعدة التخدير منها.

ومن أهم ما نستفيد منه المسلمون من إحيائنا لفاجعة كربلاء هو الاعتبار من الأحداث التي أدت إليها، والتي جرت فيها، وتداعياتها على كيان الأمة الإسلامية.

### إحياء عاشوراء لا يؤدي إلى التفرقة

وأما الدَّرِعة الثانية، فيتمُّ الجواب عنها عن طريق التدبُّر في النقاط التالية:

**النقطة الأولى:** أنَّ إحياء مراسم عاشوراء عن طريق استذكار ما جرى مع فلذة النَّبيِّ المختار ﷺ، وأخذ العبر والدُّروس من ذلك أمرٌ كان متعارفاً منذ القديم، ولو كانت الشُّبهة المذكورة مانعةً عنه، لكان ينبغي أن تكون مانعةً عن ذكر أحداث كربلاء في كتب السِّير والتَّاريخ، بل منعها يكون أولى؛ لأنَّها تعتبر وثيقة قاطعة ومستمرَّة على الظلم الَّذي نزل بأهل البيت (عليهم السلام).

**النقطة الثانية:** أنَّ من جملة ما يفعله الشيعة في إحياء هذا الحدث الجلل هو البكاء والتَّباكِي على تلك المصيبة التي صغرت عندها كُلُّ المصائب، وهذا أمرٌ وردت فيه التَّصوص من قبل السُّنة قبل الشيعة، وأقرَّ به علماء الفريقين بلا مواربة.

فقد روى جمعٌ من أرباب المسانيد والمجاميع الحديثية، منهم أحمد بن حنبل (ت: ٢٤١)، وابن أبي شيبة (ت: ٢٣٥)، والضَّحَّاك (ت: ٢٨٧)، وأبي يعلى الموصلي (ت: ٣٠٧)، والطَّبْراني (ت: ٣٦٠)، وغيرهم: «ثنا مُحَمَّد بن عبيد، ثنا شرحبيل بن مدرِك، عن عبد الله بن نجِيٍّ، عن أبيه أَنَّهُ سار مع عليٍّ (عليه السلام) - وكان صاحب مطهرته - فلما حاذى نينوى وهو منطلقٌ إلى صفِّين، فنادى عليٌّ (عليه السلام): اصبر أبا عبد الله بشطِّ الفرات! قلتُ: وما ذاك؟ قال: دخلتُ على النَّبيِّ (صلى الله عليه وآله) ذات يومٍ وعينه تفيضان، قلتُ: يا نبيَّ الله، أغضبك أحدٌ! ما شأن عينيك تفيضان؟! قال: بل قام من عندي جبريل، فحدَّثني أَنَّ الحسين يقتل بشطِّ

قامت به تلك الطغمة الفاسدة من سفكهم لفلذة كبد الرسول...

أليست هذه سنة الحياة! فقد رُوي عن الإمام علي بن الحسين عليه السلام أنه قال: «لما أتى برأس الحسين عليه السلام إلى يزيد، كان يتخذ مجالس الشرب، ويأتي برأس الحسين عليه السلام ويضعه بين يديه ويشرف عليه، فحضر ذات يوم في مجلسه رسول ملك الروم، وكان من أشرف الروم وعظماهم، فقال: يا ملك العرب، هذا رأس من؟! فقال له يزيد: ما لك ولهذا الرأس؟ فقال: إنني إذا رجعت إلى ملكنا يسألني عن كل شيء رأيته، فأحببت أن أخبره بقصة هذا الرأس وصاحبه حتى يشاركك في الفرح والسرور. فقال يزيد: هذا رأس الحسين بن علي بن أبي طالب. فقال الرومي: ومن أمه؟ فقال: فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله. فقال النصراني: أف لك ولدينك! لي دين أحسن من دينكم، إن أبي من حوافد داود عليه السلام، وبينني وبينه آباء كثيرة، والنصارى يعظموني يأخذون من ثراب قدمي تبركاً بأبي من حوافد داود عليه السلام، وأنتم تقتلون ابن بنت رسول الله، وما بينه وبين نبيكم إلا أم واحدة، فأبي دينكم!» <sup>(١٠)</sup>.

فسواء صحت هذه الرواية أم لا؛ فإنها تشير إلى حقيقة وجدانية لا تحتاج في إلى خبر ولا إسناد.

وليس لقائل أن يقول: إن في إحياء مراسم عاشوراء اتهاماً للسنة، وهذا موجب للتفرقة التي نريد أن نفر منها...

وذلك لأن الإحياء كان هو الأصل الذي عرفت مما نقلناه من أخبار ونصوص عن علماء أهل السنة. وكيف يكون فيه تهمة لهم والحال أن جمعاً من بني أمية الذين يشتركون مع قتلة الحسين عليه السلام في النسب لا يتهمهم الشيعة إن لم يوافقوا أجدادهم على فعلهم الشنيع. فهذا الشيخ المفيد يروي في الاختصاص أنه: «دخل سعد بن عبد الملك - وكان أبو جعفر عليه السلام يسميه سعد الخير، وهو من ولد عبد العزيز بن مروان - على أبي جعفر عليه السلام، فبينا ينشج كما تنشج النساء،

قال: فقال له أبو جعفر: ما يبكيك يا سعد؟ قال: وكيف لا أبكي وأنا من الشجرة الملعونة في القرآن. فقال له: لست منهم! أنت أمويٌّ منّا أهل البيت. أما سمعت قول الله عزَّ وجلَّ يحكي عن إبراهيم: ﴿فَمَنْ يَعْنِي فِائَتُهُ مِنِّي﴾<sup>(١)</sup>.

والمتحصِّل من جميع ذلك: أنَّ إحياء شهادة الإمام الحسين عليه السلام يُمكن أن يكون من أهمِّ العوامل التي تُساعد على وحدة المسلمين إذا عرفنا كيف نستفيد من ذلك.

هذا، ومجرَّد أنَّ تكون في بعض الأعمال ما يوجب الثَّرة لا يستوجب إلغاء هذا الحدث العظيم الَّذي يمرُّ علينا في كُلِّ عام مرَّة، بل يزيد من واجب العلماء وأصحاب الفكر في توجيه هذه المراسم نحو طريقةٍ فضلى، يستفيد المسلمون بأجمعهم منها، عن طريق تحصيل الثَّواب بسكب العبرة على ذلك الفعل الَّذي سبقنا النَّبيُّ الأكرم ﷺ إليه، ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَذِكْرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]، وأخذ العبرة والدُّروس من المواقف المشرفة التي نرى أنَّ أُمَّتنا الإسلاميَّة في أشدَّ الحاجة إليها في هذا الزَّمن الَّذي تكالبت فيه علينا طواغيت العالم.

السَّلام على الحسين، وعلى أهل بيت الحسين، وعلى أصحاب الحسين الَّذين بذلوا مهجهم دون الحسين صلوات الله عليه وعليهم.

\* \* \*

الهوامش:

(١) ابن عساكر، علي بن الحسن، تاريخ مدينة دمشق ٢٦: ١٩٧، تحقيق علي شيري، نشر دار الفكر ١٤١٥، بيروت. الذَّهبي، مُحَمَّد بن أحمد، سير أعلام النبلاء ٢: ١٠، تحقيق شعيب الأرنؤوط، الطبعة التاسعة ١٤١٣، نشر مؤسسة الرِّسالة، بيروت. وهما وإنَّ ألفزا عن الرَّجل في الابتداء بفلان، لكنَّهما عادا وصَّرحا باسمه. ومُنَّ نقل هذه الحادثة مع التَّصريح بالاسم ابتداءً وانتهاءً أبو

الفرات. قال: فقال: هل لك إلى أن أشمك من تربته؟ قال: قلت: نعم. فمدَّ يده فقبض قبضةً من ترابٍ فأعطانيها، لم أملك عينيَّ أن فاضتاً»<sup>(١١)</sup>.

وعلق الميثمي على هذا الحديث بقوله: «رواه أحمد، وأبو يعلى، والبرّار، والطبراني، ورجاله ثقات، ولم ينفرد نجّي بهذا»<sup>(١٢)</sup>.

كما قد روى الإمام أحمد في الفضائل والمحَبّ الطبري في الذخائر، قال: «حدَّثنا أحمد بن إسرائيل، قال: رأيتُ في كتاب أحمد بن مُحَمَّد بن أحمد بن حنبل رحمته، بخطِّ يده، نا أسود بن عامر أبو عبد الرحمن، ثنا الرِّبيع بن منذر، عن أبيه، قال: ثُمَّ كان حسين بن علي يقول: من دمعنا<sup>(١٣)</sup> عيناه فينا دمعة، أو قطرت عيناه فينا قطرة، أثواه الله عزَّ وجلَّ الجنة»<sup>(١٤)</sup>. هذا ورجاله ثقاتٌ كما حقَّقه بعض الأفاضل<sup>(١٥)</sup>.

ونقل ابن حجر عن الذهبي أنَّه قال: «ووقفتُ على نسخةٍ يرويها عبيد الله بن مُحَمَّد بن عبد العزيز السمرقندي، قال: حدَّثني صفوة الأولياء جلال الدِّين موسى بن مجلي بن بندار الدنيسيري، أخبرنا الشَّيخ الكبير العديم النُّظير رتن بن نصر بن كربال الهندي عن النَّبي صلَّى الله عليه وآله ... وقال: ما من عبدٍ يبكي يوم أُصيب ولدي الحسين إلَّا كان يوم القيامة مع أولى العزم من الرُّسل. وقال البكاء في يوم عاشوراء نورٌ تامُّ يوم القيامة»<sup>(١٦)</sup>.

وقال العلامة أبو البركات شمس الدِّين مُحَمَّد بن أحمد الدمشقي الباعوني الشافعي (ت: ٨٧١): «وقد أكثر النَّاس في الرِّثاء والبكاء على ما أصاب أهل البيت عليهم السلام، وقالوا ما لا يُحصى من المقالات نظماً، وذكرُوا في قتل الحسين عليه السلام وما كان من أمره ما أُضرب عن ذكره صفحاً، ولم أرق له سفحاً، ولا يحتمل هذا المختصر أكثر من ذلك، وفيه كفاية. وبالجملَة والتفصيل: فما وقع في الإسلام قضيةٌ أفزع منها، وهي ما ينو الأسعاع عنها، وتنفطر القلوب عن ذكرها حزناً وأسىً وتأسفاً، وتنهل لها المدامع كالشَّعب الهوامع، هذا والعهد بالنبي صلَّى الله عليه وآله

قريب، وروض الإيمان خصب، وغصن دوحته غصّ جديد...»<sup>(١٧)</sup>.

إلى غير ذلك من الأخبار ونصوص العلماء، هذا عند أهل السُنّة، وأمّا عند الخاصة فهي كثيرة لا يسع ذكرها هذه العجالة.

**النقطة الثالثة:** أَنَّ في إحياء مراسم عاشوراء تقربٌ إلى الله تعالى بطاعته ومودة نبيه وأهل بيته صلوات الله عليهم. قال الثعلبي (ت: ٤٢٧) والقرطبي (ت: ٦٧١) واللفظ للأخير: «وكفى قبحاً بقول من يقول: إِنَّ التَّقَرُّبَ إِلَى اللَّهِ بطاعته ومودة نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأهل بيته منسوخ؛ وقد قال النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَنْ مَاتَ عَلَى حَبِّ آلِ مُحَمَّدٍ مَاتَ شَهِيداً، وَمَنْ مَاتَ عَلَى حَبِّ آلِ مُحَمَّدٍ جَعَلَ اللَّهُ زَوَّارَ قَبْرِهِ الْمَلَائِكَةُ وَالرَّحْمَةُ، وَمَنْ مَاتَ عَلَى بَغْضِ آلِ مُحَمَّدٍ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَكْتُوباً بَيْنَ عَيْنَيْهِ آيَسُ الْيَوْمِ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، وَمَنْ مَاتَ عَلَى بَغْضِ آلِ مُحَمَّدٍ لَمْ يُرَحَ رَائِحَةُ الْجَنَّةِ، وَمَنْ مَاتَ عَلَى بَغْضِ آلِ بَيْتِي فَلَا نَصِيبَ لَهُ فِي شَفَاعَتِي»<sup>(١٨)</sup>.

**النقطة الرابعة:** أَنَّ إحياء مراسم عاشوراء تعدُّ مظهراً من مظاهر الاستنكار لما حصل مع عتره النَّبِيِّ الْمُخْتَارِ ﷺ. ألا ترى أَنَّ المسلمين بجميع فئاتهم وطوائفهم عندما أُهِنَ الرَّسُولُ الْأَكْرَمُ ﷺ بتلك الرُّسُومِ الاستهزائية قد ثارت نائرتهم ولم تهدأ، وتراهم سوف يجددون الاستنكار في كُلِّ عام. وليس قتل فلذة النَّبِيِّ ﷺ بتلك الطريقة المفجعة بأقلِّ إهانة للرسول من تلك الرُّسُومِ، كيف! وهو القائل: «حَسْبُ مَنِّي وَأَنَا مِنْ حَسِينٍ، أَحَبُّ اللَّهِ مِنْ أَحَبِّ حُسَيْنًا، حَسْبُ سَبْطٍ مِنَ الْأَسْبَاطِ»<sup>(١٩)</sup>.

ألم يحكي الباري ﷻ عن نبيِّ الله لوط استنكاراً على فعل قومه: ﴿قَالَ إِنِّي لَعَلِّكُمْ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٨]. أليس الرَّاظي بفعل قوم كالدَّاخِل فيه معهم!؟ أليس عاقر ناقة صالح رجلٌ واحدٌ، فلما رضي قومه بفعله أصابهم العذاب!؟ فحريٌّ بنا نحن المسلمون أَنْ نجتمع في السَّنَةِ مرَّةً على الأقلِّ محتجِّين على ما

- هلال العسكري في كتاب الأوائل.
- (٢) الدارقطني، علي بن عمر، سنن الدارقطني ٢: ٤٢، الحديث: ١٧٤٢، تعليق مجدي بن منصور، الطبعة الأولى ١٤١٧، دار الكتب العلمية، بيروت.
- (٣) الذهبي، محمد بن أحمد، تنقيح التحقيق في أحاديث التعليق ١: ٢٥٧، تحقيق مصطفى أبو الغيث، نشر دار الوطن ١٤٢١، الرياض.
- (٤) العهد الجديد (إنجيل متى): ٤١، نشر دار الكتاب المقدس ١٩٨٠.
- (٥) المصدر نفسه.
- (٦) المصدر نفسه (إنجيل لوقا): ١٣٤.
- (٧) الأردني، عودة مهاوش، الكتاب المقدس تحت المجهر: ٣٣، مؤسسة أنصاريان، الطبعة الأولى ١٤١٢، قم المقدسة.
- (٨) أحمد فاضل، سيف الله، نصّ إنجيل برنابا: ٧٧، الطبعة الثانية ١٤٠٣، دار القلم، الكويت.
- (٩) الطبري، ابن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ١: ٧٨٣، ضبط وتوثيق وتخريج صدقي جميل العطار، دار الفكر ١٤١٥، بيروت.
- (١٠) فخر الدين الرازي، محمد بن عمر، مفاتيح الغيب ٤: ٦٨، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثالثة ١٤٢٠، بيروت.
- (١١) راجع: مسند أحمد بن حنبل ١: ٨٥، دار صادر، بيروت. المصنّف لابن أبي شيبة ٨: ٦٣٢، تحقيق سعيد اللحام، الطبعة الأولى ١٤٠٩، دار الفكر، بيروت. الأحاد والمثاني للضحاك ١: ٣٠٨، تحقيق باسم فيصل أحمد، الطبعة الأولى ١٤١١، دار الذرية. مسند أبي يعلى ١: ٢٩٨، تحقيق حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث. المعجم الكبير ٣: ١٠٦، تحقيق وتخريج حمدي عبد المجيد السلفي، الطبعة الثانية ١٤٠٤، دار إحياء التراث. واللفظ للأول.
- (١٢) مجمع الزوائد ٩: ١٨٧، دار الكتب العلمية ١٤٠٨، بيروت.
- (١٣) هكذا في الأصل، فتكون على لغة أزد شنوءة، نظير ما روي عن النبي ﷺ من قوله: «يتعاقبون عليه ملائكة...».
- (١٤) راجع: فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل ٢: ٦٧٥، الحديث: (١١٥٤)، ونقله عنه وعن الطبري الدكتور محمد البيومي مهران الأستاذ بكلية الآداب في جامعة الإسكندرية، لاحظ كتابه السيّدة فاطمة الزهراء: ٤٩، الطبعة الثانية ١٤١٨.
- (١٥) حققه الأخ الفاضل الشيخ زهير علي الحكيم في كتابه: مقتل أبي عبد الله الحسين عليه من موروث أهل الخلاف ٣: ١٤، الطبعة الأولى ٢٠٠٥، نشر أهل الذكر.

- (١٦) ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة ٢: ٤٣٧، تحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، الطبعة الأولى ١٤١٥، دار الكتب العلمية، بيروت.
- (١٧) جواهر المطالب ٢: ٣١١، تحقيق محمد باقر المحمودي، الطبعة الأولى ١٤١٦.
- (١٨) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ١٦: ٢٢، تصحيح أحمد عبد العليم البردوني، دار إحياء التراث العربي ١٤٠٥، بيروت.
- (١٩) مسند الإمام أحمد بن حنبل ٤: ١٧٢، دار صادر، بيروت. سنن ابن ماجه ١: ٥١، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت. سنن الترمذي ٥: ٣٢٤، الطبعة الثانية ١٤٠٣، دار الفكر، بيروت. المستدرك على الصحيحين ٣: ١٧٧، تحقيق يوسف عبد الرحمن المرعشلي، وقال عنه: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه».
- (٢٠) لاحظ: اللهوف في قتل الطفوف: ١١١، الطبعة الأولى ١٤١٧، نشر أنوار الهدى، قم.
- (٢١) الاختصاص: ٨٥، تحقيق على أكبر غفاري، الطبعة الثانية ١٤١٤، دار المفيد للطباعة والنشر، بيروت.



ملف العدد

الإمام الحسين عليه السلام عبرة وعبرة



## عاشوراء في خطابات القادة

□ إعداد: قسم الأرشيف

«إِنَّ كُلَّ مَا لَدَيْنَا هُوَ مِنْ عَاشُورَاءٍ»...

هكذا وبرؤية لا ضبابية فيها، وبوضوح تام، وبمنظرة واقعية يرى الإمام الخميني عليه السلام أن الذي صان الإسلام، وأبقاه حياً حتى وصل إلينا هو ثورة الإمام الحسين عليه السلام في عاشوراء. ولكي تبقى هذه الإنجازات التي وصلت إلينا عبر توضيحات ثلّة مؤمنة قليلة مستمرة ومتواصلة علينا أن نفهم المعاني والعبر الحية من هذا النهوض الحسيني المحمدي الأصيل.

فإن ما حفظ هذه الأمة وصانها هو إقامة هذه المآتم والمحافظة عليها مشتعلة متقدة، وجميع الإنجازات والانتصارات ما هي إلا من بركة هذه المجالس والمآتم، وحرقة ذلك البكاء هو الذي ساهم ويساهم في صيانة نهضة الإمام الحسين عليه السلام، كما عبر عن ذلك الإمام الخميني عليه السلام.

ولكي لا تنحرف الاستفادة من هذه النهضة في حياتنا المتجددة، كان لا بدّ -

وبشكل دائم - أن نطلع على تعاليم العلماء والقادة؛ لأنّها تعاليم مستلّة من سيرة تلك الثّورة المباركة من جهة، ومن تعاليم أهل البيت من جهة أخرى. خصوصاً إذا كان المتكلّم بهذه التّعليم، بنفسه صاحب ثورة انطلقت من الفهم الصّحيح لثورة جدّه المولى أبي عبد الله الحسين (عليه السلام).

### عاشوراء في فكر الإمام الخميني (عليه السلام):

#### ١. عاشوراء والأهداف العظمى:

يرى الإمام الخميني (عليه السلام) وظيفتين أساسيتين للقادة الإلهيين: نشر عقيدة التّوحيد والعدل، وقيام النّاس بالقسط.

يقول (عليه السلام) في هذا الصّدّد: «إنّ جميع الأنبياء منذ بداية البشر والبشريّة، ومنذ مجيء آدم (عليه السلام)، وحتى خاتم الأنبياء (عليه السلام)، إنّما استهدفوا إصلاح المجتمع، وجعلوا الفرد فداءً للمجتمع، إنّنا لا نملك شخصاً أسمى من الأنبياء، أو من هو أسمى من الأنمة (عليه السلام)، فهو لا ضحوا بأنفسهم في سبيل المجتمع، ويقول الباري جلّ وعلا: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾<sup>(١)</sup>؛ فالباري (عليه السلام) بعث الأنبياء، وأعطاهم البيّنات والآيات والميزان؛ ليقوم النّاس بالقسط، فالغاية قيام النّاس بالقسط، وأنّ تتحقّق العدالة الاجتماعية بين النّاس، ويزول الظّلم، ويحلّ الاهتمام بالضعفاء<sup>(٢)</sup>.

حقيقة عاشوراء بحسب ما ورد من أقوال الإمام الخميني (عليه السلام)، أنّها حدث يتخطى حدود الزّمان والمكان؛ حيث إنّ تأثير شهادة الإمام الحسين (عليه السلام) وأهل بيته وأصحابه وتضحياتهم لا زالت تفعل فعلها بكلّ أرض وكلّ زمن مهما اختلفت الألسن والألوان والأعراق وحتى الأديان. لذا فإنّ النّهضة الحسينيّة في عاشوراء إلهيّة بكلّ تفاصيلها، وإنسانيّة بمحض شمول مفاعيلها وتأثيراتها لكلّ حرّ. وعن ذلك يقول (عليه السلام): «ينبغي لنا أن ندرك أبعاد هذه الشّهادة، ونعي

عمقها وتأثيرها في العالم وملتفت إلى أنَّ تأثيرها ما زال مشهوداً اليوم أيضاً»<sup>(٣)</sup>. وبحسب قوله ﷺ: فإنَّه بالإضافة إلى كون النَّهضة الحُسَيْنِيَّة قِياماً لله، وأداءً للتَّكليف الإلهي، لكنَّها - أيضاً - حركةٌ سياسيَّةٌ كُبرى بَكُلِّ تفاصيلها، ومن أوَّل خطوةٍ فيها حتى الشَّهادة. وعن ذلك يتحدَّث ﷺ فيقول: «إِنَّ مَجِيءَ سَيِّدِ الشُّهَداءِ ﷺ إلى مكة وخروجه منها بتلك الحال يعدُّ حركةً سياسيَّةً كبيرةً؛ ففي الوقت الذي كان فيه الحُجَّيج يدخلون مكة كان الحسين ﷺ يغادرها، وهذه حركةٌ سياسيَّةٌ، فكُلُّ سلوكيات الحسين ﷺ وأعماله كانت سياسيَّةً إسلاميَّةً، وهي التي قضت على بني أميَّة، ولولا تلك الدِّماء لكان الإسلام قد سُحِقَ وانتهى»<sup>(٤)</sup>.

ويمكن تلخيص أسباب النَّهضة الحُسَيْنِيَّة بحسب الوارد في كلمات الإمام ﷺ وخطاباته بما يلي:

#### ١- عداء الحُكَّام للإسلام:

يقول ﷺ عن بعض الحُكَّام الَّذِينَ عاثوا في الأرض فساداً: «... فهم لم يؤمنوا بالإسلام منذ البداية، وكانوا يضمرون الحسد والحقد لأولياء الإسلام»<sup>(٥)</sup>.

#### ٢- التآمر على الإسلام:

يقول ﷺ بهذا الصَّدَد: «وأنقذ الإسلام من تآمر العناصر الفاسدة، وحكم بني أميَّة الذين أوصلوا الإسلام إلى حافة الهاوية»<sup>(٦)</sup>.

#### ٣- العمل على محو الإسلام وإضاعة جهود النَّبي ﷺ:

«لقد أوشكت حكومة يزيد وجلاوزته الجائرة أن تمحو الإسلام، وتضيِّع جهود النَّبي ﷺ المضنية، وجهود مسلمي صدر الإسلام، ودماء الشُّهداء، وتلقي بها في زاوية النسيان، وتعمل ما من شأنه أن يضيِّع كُلَّ ذلك سدى»<sup>(٧)</sup>.

«لقد هدف بنو أميَّة إلى القضاء على الإسلام».

«لقد رأى سيِّد الشُّهداء ﷺ أنَّ معاوية وابنه يعملان على هدم الدِّين،

وتقويض أركانه، وتشويه الإسلام، وطمس معالمه»<sup>(٨)</sup>.

#### ٤- تشويه الإسلام وقلب حقيقته:

«لقد أوشك حكم بني أمية المنحط أن يُظهر الإسلام بمظهر الدين المعتمد على الطُغيان والجور، ويشوّه سمعة النبي الأكرم ﷺ، وقد فعل معاوية وابنه الظالم الأفاعيل ضدّ الإسلام، وارتكبا ما لم يرتكبه جنكيز خان، فقد بدّلا أساس عقيدة الوحي ومعالمها إلى نظام شيطاني»<sup>(٩)</sup>.

#### ٥- تحويل الحكم الإسلامي إلى ملكية:

«إنّ الخطر الذي كان يمثله معاوية ويزيد ضدّ الإسلام لم ينحصر في كونها غاصبين للخلافة؛ فهو أهون من الخطر الأكبر الآخر، وهو أنّها حاولا جعل الإسلام عبارة عن سلطنة وملكية»<sup>(١٠)</sup>.

#### ٦- الإساءة إلى سمعة الإسلام ونظام الحكم فيه:

«عندما رأى سيّد الشهداء ﷺ أنّ هؤلاء يسيؤون بأعمالهم إلى سمعة الإسلام، ويشوّهون صورته باسم خلافة الرّسول، ويرتكبون المعاصي، ويحكمون بالظلم والجور، وكان انعكاس ذلك على الصّعيد العالمي هو أنّ خليفة رسول الله ﷺ يارس هذه الأعمال، فرأى أنّ من واجبه أن ينهض ويثور حتى لو أدّى الأمر إلى مقتله؛ إذ المهمّ هو إزالة ما تركه معاوية وابنه من آثار على الإسلام»<sup>(١١)</sup>.

وفي مقابل ذلك، تحقّق بنهضة الإمام الحسين ﷺ الأهداف التالية:

#### ١- إحياء الإسلام وانقاذه:

«وقد قتل سيّد الشهداء ﷺ، ولم يكن طامعاً في الثّواب، فهو ﷺ لم يعر هذا الأمر كثير اهتمام؛ لقد كانت نهضته لإنقاذ الدّين، ولإحياء الإسلام ودفع عجلته إلى الأمام»<sup>(١٢)</sup>.

«محرمّ هو الشّهر الذي تجددت فيه حياة الإسلام على يد سيّد المجاهدين

والمظلومين ﷺ، وأنقذه من تآمر العناصر الفاسدة وحكم بني أمية، الذين أوصلوا الإسلام إلى حافة الهاوية».

## ٢- صون مستقبل الإسلام والمسلمين:

«لقد كان الحسين ﷺ يفكر بمستقبل الإسلام والمسلمين؛ باعتبار أنَّ الإسلام سيتشر بين النَّاس نتيجة لتضحياته وجهاده المقدس، وأنَّ نظامه السِّيَاسي والاجتماعي سيقام في مجتمعنا، فرغ لواء المعارضة والنُّضال والتَّضحية»<sup>(١٣)</sup>.

## ٣- كسر عقدة الخوف:

لقد كان المجتمع الإسلامي آنذاك غارقاً في حالة من الرُّعب والاستسلام للطاغية نتيجة لممارساته الجائرة، وكان على أحد أن يواجهه ليثَّ روح الشَّجاعة والإقدام. وعن ذلك يتحدَّث الإمام ﷺ قائلاً: «لقد علَّم ﷺ النَّاس أنَّ لا يخشوا قلة العدد، فالعدد ليس هو الأساس، بل الأصل والمهم هو النوعية، والمهم هو كيفية التَّصديِّ للأعداء، والنُّضال ضدهم، والمقاومة بوجههم، فهذا هو الموصل إلى الهدف»<sup>(١٤)</sup>.

## ٤- إزالة المنكر ومحوه:

«لقد ضحَّى سيِّد الشُّهداء بكُلِّ حياته من أجل إزالة المنكر ومحوه، ومكافحة حكومة الظُّلم والحيلولة دون المفاصد التي أوجدتها الحكومات المنحرفة في العالم».

«ونحن الموالون لسيِّد الشُّهداء ﷺ، السَّائرون على نهجه ينبغي أن ننظر في حياته وفي نهضته الذي كان الدَّافع إليها النَّهي عن المنكر ومحوه، ومن المنكر حكومة الجور، وهي يجب أن تزول»<sup>(١٥)</sup>.

## ٥- حفظ القرآن وجهود النَّبي ﷺ:

«لو لم تكن عاشوراء، ولم تكن تضحيات آل الرِّسول لتمكَّن طواغيت ذلك

العصر من تضييع ثمار بعثة النبي الأكرم ﷺ وجهوده الشاقة. ولولا عاشوراء لسيطر المنطق الجاهلي لأمثال أبي سفيان الذين أرادوا القضاء على الوصي والكتاب، فقد هدف يزيد إلى استئصال جذور الحكومة الإلهية ظناً منه أنه يستطيع بواسطة تعريض أبناء الوصي للقتل والشهادة أن يضرب أساس الإسلام، فقد كان يعلن صراحة: بأنه لا خبر جاء ولا وحي نزل، ولا ندري لو لم تكن عاشوراء ما الذي كان حصل للقرآن الكريم والإسلام، لكن إرادة الله تبارك وتعالى شاءت - وما تزال - أن يخلد الإسلام المنقذ للشعوب، والقرآن الهادي لها»<sup>(١٦)</sup>.

#### عاشوراء في فكر السيّد القائد رحمه الله

لقد احتلت عاشوراء والنهضة الحسينية حيزاً واسعاً من خطابات السيّد القائد الخامني رحمه الله، وتميّزت بالموضوعية والتفصيل، بحيث لا يسعنا في هذا المقال الخاطف أن نستعرض محاورها المتعددة، ولذا سوف أقصر على بعد واحد من أبعاد الثورة الحسينية، أولاه القائد أهمية كبيرة، ألا وهو بُعد العبر والدروس التي يمكن لنا كأفراد وأمة أن نستفيد منها في حياتنا المعاصرة.

يقول رحمه الله في مجال بيان أهمية أخذ العبر والدروس:

«قد يأتي البعض ويتفلسف بأن الماضي لا يمكن أن يكون مثلاً للحاضر. هذه الآراء يثيرها البعض ويتصور أنه قادر على صياغتها كأطروحة فلسفية، لكنه لا يستطيع ذلك! ولا شأن لنا بأمثال هؤلاء.

القرآن صادق مصدق، وهو يدعونا إلى استقاء العبرة من التاريخ»<sup>(١٧)</sup>. والاعتبار بالتاريخ؛ لأن التاريخ تكتنفه أمور لو أردنا الاعتبار بها لساورتنا بعض الهواجس، وهذه الهواجس ذات صلة بالمستقبل، ولكن لماذا؟! وما سبب هذه الهواجس؟! وما الذي جرى عبر التاريخ؟

الواقعة التي حدثت كانت في صدر الإسلام. والأمة الإسلامية حري بها أن تفكر في السبب الذي أوصل البلاد الإسلامية بعد وفاة الرسول بخمسين سنة فقط إلى أن يجتمع أبناؤها من وزير وأمير وقائد وعالم وقاضٍ وقارئ للقرآن في الكوفة وكربلاء، ويمزقوا كبد رسول الله ﷺ بتلك الطريقة الفجيعة. على الإنسان أن يطيل النظر في الأسباب التي انتهت إلى تلك الحالة»<sup>(١٨)</sup>.

هذا، ويمكن لنا أن نلخص العبر والدروس المستفادة من واقعة الطف في كلام القائد إلى نقاط، نذكر منها أهمها:

١. الخلود والتجدد. يقول ﷺ في هذا الصدد: «البحث عن الدروس المستفادة من عاشوراء بحثٌ حيٌّ وخالد على مرِّ الزمن، ولا يختصُّ بزمانٍ معيّن دون سواه. فدرس عاشوراء هو درس التّضحية والشّجاعة والمواصلة، ودرس القيام لله، والإيثار والمحبة»<sup>(١٩)</sup>.

٢. التّراجع عن الحق. يقول ﷺ في هذا الصّدّد: «ألقت زينب عليها السلام في سوق الكوفة خطبةً عصماء بليغة، جاء فيها: (أمّا بعد! يا أهل الكوفة، يا أهل الختل والغدر، أنبكون؟!); وذلك لأنهم حينما شاهدوا رأس الحسين عليها السلام على الرّمح، وبنت عليّ مسبية، ولمسوا عمق المأساة ضجّوا بالبكاء، (فلا رقات العبرة، ولا هدأت الرّثّة)، ثمّ قالت: (فما مثلكم إلّا كالتي نقضت غزلها من بعد قوّة أنكاثا، تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم...)». وهذا هو النّكوص والارتداد والتّراجع القهقري. فأنتم في الحقيقة كالمرأة التي غزلت الصّوف، ومن بعد ما أتمته نقضت الغزل، وعادت إلى ما كانت عليه، وهذا هو التّراجع. وهذه عبرة»<sup>(٢٠)</sup>. ثمّ يضيف قائلاً: «ونحن إذا انتابتنا الغفلة، ولم نحترس أو نحاذر، فمن الممكن أن ننتهي إلى نفس ذلك المصير».

٣. حبُّ الدّنيا وجمع المال مدعاةٌ لتخلّي المجتمع عن قيمه: «حينما يستولي حبُّ الدّنيا، وجمع المال على أناسٍ قضوا عمراً مديداً بالعزّة والزّهْد في زخارف الدّنيا

... وأنقل لكم مثلاً لذلك: حينما كتب والي البصرة إلى الخليفة يذكر له كثرة أهل البصرة، وعدم كفاية خراجهم بالمصارف، وطلب إليه أن يزيدهم خراج ستين. وبلغ الخبر إلى أهل الكوفة، وكان واليهم آنذاك عمار بن ياسر، ذلك العملاق الذي بقي صامداً لا يهزه شيء، فطلبوا منه أن يكتب للخليفة كما حصل في البصرة، فلما لم يلبي طلبهم أبغضوه، وشكوه إلى الخليفة فعزله. حينما لا يُراعى الزهد في هذه الدنيا يتجرّد المجتمع عن القيم... وإنما يصدق حبّ الدنيا فيما لو كان المرء يطلب النفع لذاته، ويعمل لنفسه، أو يُفكر في جمع الثروة لنفسه من بيت مال المسلمين، وهذا هو التصرّف القبيح».

٤. التّقوى هي الرّادع الأساس عن الانغماس فيما انغمس به أعداء الحسين (عليه السلام)، كما أنّ التفكير النّاجح هو الذي يوصلنا إلى برّ الأمان: «عُرِضَتْ على عمر بن سعد ولاية الرّي. وكانت الرّي آنذاك ولاية شاسعةً وغنيّة. ولم يكن منصب الإمارة على عهد بني أميّة، كمنصب المحافظ في الوقت الحاضر؛ فالمحافظون اليوم موظفون حكوميّون يتقاضون الأجرة، ويبدلون جهوداً شاقّة. ولم يكن الأمر حينذاك على هذا النّحو. الشّخص الذي يُنصب والياً كان مطلق اليد في التّصرّف بجميع الثّروات الموجودة في تلك المدينة، يتصرّف فيها كيف يشاء بعد أن يرسل مقداراً منها إلى عاصمة الخلافة. ولهذا كان لمنصب الوالي أهمية عظيمة. ثمّ شرطوا تولّيهِ الرّي بمحاربة الحسين (عليه السلام). من الطّبيعي أنّ الإنسان النّيّل وصاحب القيم لا يتردّد لحظةً في رفض مثل هذا العرض، ما قيمة الرّي وغير الرّي؛ لو وضعت الدّنيا بين يديه فلا ينبغي أن يعبس بوجه الحسين.. لا يكفهر بوجه الحسين؛ فما بالك بالتهوؤ لمحاربة عزيز الزّهراء وقتله هو وأطفاله. هكذا يقف الإنسان الذي يحمل قيماً، ولكن حينما يكون المجتمع خاوياً ومجرّداً عن القيم، وحينما تضعف هذه المبادئ الأساسيّة بين أفراد المجتمع، ترتعد الفرائص عند ذاك، وأكثر ما يستطيع المرء عمله في مثل



هذا الموقف هو أنه يستمهلهم ليلة واحدة للتفكير في الأمر. وحتى لو أنه فكّر سنة كاملة لوصل إلى نفس النتيجة واتخذ نفس القرار؛ إذ لا قيمة لمثل هذا النمط من التفكير، إلا أن الرجل فكّر في الأمر ليلة، وأعلن في اليوم التالي عن موافقته على ذلك العرض. إلا أن الله تعالى لم يمكنه من بلوغ تلك الغاية. وكانت نتيجة ذلك أن وقعت فاجعة كربلاء»<sup>(٢١)</sup>.



### الهوامش:

(١) الحديد: ٢٥.

(٢) راجع: منهجية الثورة: ٥١.

(٣) راجع: نهضة عاشوراء: ٢٧.

(٤) المصدر نفسه: ٦٤.

(٥) المصدر نفسه: ٢٢.

(٦) المصدر نفسه: ٣١.

(٧) المصدر نفسه: ٣٧.

(٨) المصدر نفسه: ٣٩.

(٩) المصدر نفسه: ٣٨.

(١٠) المصدر نفسه: ٤١.

(١١) المصدر نفسه: ٤٣.

(١٢) المصدر نفسه: ٥٢.

(١٣) المصدر نفسه: ٤٠.

(١٤) المصدر نفسه.

(١٥) المصدر نفسه: ٤٨.

(١٦) المصدر نفسه: ٥٦.

(١٧) يُشِير سَاحَتِهِ فِي ذَلِكَ إِلَى مِثْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٧].

(١٨) مِنْ خُطْبَةٍ لَهُ بِمُنَاسِبَةِ حُلُولِ شَهْرِ مُحَرَّمِ الْحَرَامِ فِي سَنَةِ ١٤١٧، فِي جَمْعٍ مِنْ قَادَةِ فِرْقَةِ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

(١٩) مِنْ خُطْبَةٍ لَهُ فِي صَلَاةِ الْجُمُعَةِ الْعِبَادِيَّةِ السِّيَاسِيَّةِ: ١١ مُحَرَّمِ ١٤١٩.

(٢٠) الْمَشَارُ إِلَيْهِ مِنْ قَوْلِ السَّيِّدَةِ زَيْنَبٍ ؓ مِنْ خُطْبَةٍ لَهَا فِي الْكُوفَةِ، رَاجِعٍ: أَمَالِي الشَّيْخِ الْمُفِيدِ: ٣٢٢، الطَّبْعَةُ الثَّانِيَّةُ ١٤١٤، نَشْرُ دَارِ الْمُفِيدِ، بَيْرُوت. وَالْحَتْلُ: الْحِدَاغُ وَالْغَدْرُ، وَالْحَذَلُ: تَرَكَ النُّصْرَةَ وَالْإِعَانَةَ، رَقَاتٌ: جَفَّتْ، هَدَأَتْ: مَكَنْتُ، وَالزُّنَّةُ: الصَّوْتُ مَعَ الْبِكَاةِ.

(٢١) مِنْ الْخُطْبَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ.

## معالم الخطاب السياسي

لأنصار الحسين عليه السلام

□ السيد علي الموسوي (\*)

الظاهرة الحسينية ظاهرةً امتازت بفرادة خاصة ميّزتها عن سائر الظواهر الثورية التي مرّت في التاريخ الإسلامي، من دون أن تُغفل دور أمورٍ أخرى ساعدت في إضفاء طابع الفريدة هذه على الثورة الحسينية، كالمراسم الخاصة التي اختصّت بها هذه الظاهرة، والتي كان لها الدور الكبير في حفظها حيّة على مرّ السنين.

وظلال الفريدة هذا قد تمثّل في العديد من معالم الثورة الحسينية، والتي من أبرزها ما عُرف بعنوان (أنصار الحسين). هذه الثلّة من الأنصار على قِلّتها شكّلت النوعيّة التي كانت مع الحسين من خلال دافع ذاتي، وتسيير إلهي ربّاني، وقد حافظت على بقائها مع الحسين إلى الرّمق الأخير من حياتها، وكانت قد قطعت كلّ علاقتها بهذه الدنيا الزائلة الفانية، وارتبطت برابطٍ أخرويّ باقٍ لا يزول ولا يَفنى.

وسوف نسعى في هذه السطور لدراسة معالم الخطاب السياسي لهؤلاء

(\*) باحثٌ في الفكر الإسلامي، من لبنان.

الأنصار من خلال تتبع كلماتهم التي نطقوا بها في مسيرهم مع إمام زمانهم  
وجهادهم بين يديه، وذلك من خلال النقاط التالية:

### النقطة الأولى: إطلالة على أنصار الحسين عليه السلام

من هم الأنصار؟ وكيف تشكلت هذه الجماعة؟

إنها ظاهرة غريبة فعلاً أن لا تتكوّن هذه الجماعة من مدينة خاصة حتى  
يُدرس دافعها للثورة على ضوء ظروف تلك المدينة، كما لا تتكوّن من جيل  
خاص كالصحابة أو خصوص التابعين، كي يكون لقيامهم دوافع ترتبط  
بالسّبق إلى الإسلام أو المكانة المرموقة، كما لا تتكوّن من قبيلة خاصة حتى  
نبحث عن جذور هذه القبيلة، وعوامل نُصرتها للحسين بن علي عليه السلام...

إنهم خليطٌ بما تحمله هذه المفردة من منحى إيجابيّ، خليطٌ جمعتهم دوافع  
سيرتهم ذاتياً نحو الحسين عليه السلام، فكيف تشكّل هذا الخليط<sup>(١)</sup>؟

١- القبائل التي تشكّل منها أنصار الحسين عليه السلام هم: بنو أسد، وبنو همدان،  
وبنو مذحج، وبنو بجلة والختعميون، وبنو كندة، وبنو كلب، والأزديون،  
والعبديون، والتميميون، والطائيون، والتغلبيون، والجهنيون.

٢- كان مع الحسين عليه السلام جماعة من الأنصار وعددهم سبعة وهم: عمرو بن  
قرظة الأنصاري، وعبد الرحمن بن عبد رب الأنصاري الخزرجي، ونعيم بن  
العجلان الأنصاري الخزرجي، وجنادة بن كعب الأنصاري الخزرجي وابنه  
سعد، وسعد بن الحارث الأنصاري، وأبو الحتوف بن الحارث الأنصاري.

٣- كان من جملة الأنصار جماعة من الموالي، هم: جون مولى أبي ذر  
الغفاري، وزاهر مولى عمرو بن الحقيق الخزاعي، وسالم مولى بني المدينة الكلبي،  
وسالم مولى عامر العبدي، وسعد بن عبد الله مولى عمرو بن خالد الأزدي،  
وشوذب مولى شاكر بن عبد الله الهمداني الشّاذلي.

وذكر بعض الباحثين في مسألة الأنصار من الموالي تحليلاً يرجع إلى أن ظاهرة وجود الموالي في الثورة الحسينية لا تتوقف عند مشاركة العدد المحدود منهم في معركة كربلاء، والفوز بالشهادة، ولكن ظاهرة وجود الموالي في الثورة الحسينية وعلاقتهم بها تتعدى هذا القدر المحدد إلى مجالاتٍ أوسع منه بكثير، فثمة بعض الإشارات قبل عاشوراء وبعدها، تدل على وجود صلة ما، لعلها كبيرة جداً، بين الموالي وبين الثورة الحسينية. وربما كان لها دلالاتٌ عظيمة القيمة على بدايات دور الموالي الخطير والكبير في توجيه حركة التاريخ في العالم الإسلامي. من هذه الإشارات أن عبيد الله بن زياد، حين أراد أن يتحصى أخبار مسلم بن عقيل لم يستخدم في هذه المهمة عربياً، وإنما «دعا مولى له يقال له معقل فأعطاه ثلاثة آلاف، وقال له: اذهب حتى تسأل عن الرجل الذي يبيع له أهل الكوفة، فأعلمه أنك رجلٌ من أهل حمص...». ومن هذه الإشارات أن السيدة الأرملة التي لجأ مسلم بن عقيل إلى منزلها بعد أن خذله الناس وتفرقوا عنه - وهي السيدة طوعة - كانت مولاة لمحمد بن الأشعث. وقد أدخلت مسلم بن عقيل إلى منزلها بمجرد أن عرفت اسمه، دون أن تُبدي أي حذر عما قد تجرّ عليها استضافته عندها من متاعب، وقد أخفتها وهي تعلم بأنه مطلوب من السلطة<sup>(٢)</sup>.

### النقطة الثانية: الخطاب السياسي

الخطاب السياسي هو عبارة عن منظومة من الأفكار تشكلت عبر تراكم معرفي. إنها رؤية معرفية تحكي عن الأبعاد الفكرية لصاحب الخطاب ومُطلّقه، لا تنطلق كلمات الخطاب في مواقف الإنسان العادية إلا من بنائه الفكري والإيديولوجي، فكيف به إذا كان في موقف حاسم؟ وإذا كان صاحب قضية يُضحي بحياته من أجلها؟ إن الخطاب السياسي - حينئذٍ - يتعدى حالة الاعتقاد الفكري إلى القلبي، إنه يُشكل حركة إيمانية يحملها ذلك الشخص.

### النقطة الثالثة: مادة البحث

لا بدّ لنا قبل توضيح معالم الفكر السياسيّ لأنصار الحسين من تحديد المادة التي يعتمد عليها هذا البحث. وتشكّل هذه المادة من أصناف ثلاثة:

#### الأوّل: خطب الأنصار ورسائلهم

تشكّل الخطب والرسائل الصادرة من الأنصار، والتي سبقت الثورة أو حصلت في أثنائها مادةً مهمةً لتحديد معالم الفكر السياسيّ، إلّا أنّ هذه الخطب المنقولة في مصادر التاريخ والسيرة الحسينيّة على الرّغم من كونها محدودةً وقصيرةً لا تتجاوز الأسطر، إلّا أنّها امتازت بغنى المضمون؛ حيث جمعت الإطار العام للدوافع والمباني والمعالن الفكرية لأنصار الحسين عليه السلام. وكانت هذه الخطب تخضع للظروف المحيطة بأحداث الثورة الحسينيّة والمسير الذي سلكته هذه الثورة بهذه الجماعة الصّالحة إلى كربلاء.

أ - خطابهم لجماعة ابن سعد قبل القتال، ونموذج ذلك خطبة زهير بن القين التي ألقاها قبل بدء القتال، فقد ذكر الطّبري عن كثير بن عبد الله الشّعبي، قال: «لما زحفنا قبل الحسين خرج إلينا زهير بن القين على فرسٍ له ذنوب شاك في السّلاح فقال: ...»<sup>(٣)</sup>.

ب - كتبهم إلى الإمام الحسين عليه السلام، فقد ذكر الطّبري أنّ حبيب بن مظاهر كان من جملة الذين كتبوا إلى الحسين، لما امتنع من بيعه يزيد وخرج إلى مكة. وكانت صورة الكتاب: «بسم الله الرحمن الرحيم. لحسين بن علي. من سليمان بن صرد، والمسيب بن نجبة، ورفاعة بن شداد، وحبيب بن مظاهر وشيعته من المؤمنين والمسلمين من أهل الكوفة...»<sup>(٤)</sup>.

#### الثاني: الحوارات السياسيّة

تتحدث كافّة المصادر التّاريخيّة التي دوّنت حادثة كربلاء وما جرى فيها من أحداث عن تعدّد في الحوار السياسي بين أنصار الحسين عليه السلام وبين جماعة عمر بن

سعد، وتشكّل هذه الحوارات مادةً مهمّةً لاستطلاع الفكر السّياسيّ للفريقين؛ لأنّ الحوار دار منذ أن التقى الفريقان وإلى اللّحظات الحاسمة ونهاية القتال.

وقد عكس الأنصار في مُفردات هذا الحوار السّياسيّ الموقف الذي جعلهم أصحاب عقيدة راسخة، ومعالم فكرهم السّياسيّ التي جعلتهم يقفون هذا الموقف الصّلب مع الحُسَيْن (عليه السلام)، ولا سيّما ذلك النّوع من الحوار الذي كان يتمّ عن معرفة سابقة بين المتحاورين، وعن إحاطة بنمط التّفكير السّياسيّ الذي كان عليه الطّرف الآخر.

ونموذج ذلك: الحوار الذي دار عندما خرج يزيد بن معقل، فقال: يا برير بن حضير! كيف ترى الله صنع بك؟ قال: صنع الله - والله - بي خيراً، وصنع الله بك شراً. قال: كذبتَ وقبل اليوم ما كنت كذاباً! هل تذكر - وأنا أماشيك في بني لوزان - وأنت تقول: إنّ عثمان بن عفان كان على نفسه مُسرفاً، وإنّ معاوية بن أبي سفيان ضالٌّ مُضللّ، وإنّ إمام الهدى والحقّ علي بن أبي طالب؟! فقال له برير: أشهد أنّ هذا رأيي وقولي. فقال له يزيد بن معقل: فإني أشهد أنّك من الصّالّين. فقال له برير بن حضير: هل لك فلاّباهلك، ولندعُ الله أن يلعن الكاذب، وأن يقتل المُبطل، ثمّ أخرج فلاّبارزك؟ قال: فخرجا فرعنا أيديهما إلى الله يدعوانه: أن يلعن الكاذب، وأن يقتل المُحقّ المُبطل، ثمّ برز كُلُّ واحدٍ منهما لصاحبه، فاختلعا ضربتين، فضرب يزيد بن معقل برير بن حضير ضربةً خفيفة لم تضرّه شيئاً، وضربه برير ضربةً قدّلت المغفر وبلغت الدماغ<sup>(٥)</sup>.

### الثالث: الأراجيز

الرّجز بحرٌ من بحور الشّعْر معروفٌ، ونوع من أنواعه يكون كُلُّ مصراع منه مُفرداً، وتسمّى قصائده أراجيز، واحدها أرجوزة، وهي كهيئة السّجع إلّا أنّه في وزن الشّعْر، ويُسمّى قائله راجزاً، كما يسمّى قائل بحور الشّعْر شاعراً<sup>(٦)</sup>. والأرجوزة في الحرب تستخدم لتعريف المقاتل بنفسه، ولكنها في كثير من

الموارد - لا سيما في الأراجيز التي نادى بها أصحاب أبي عبد الله عليه السلام - كانت تتعدى التعريف بالشخص لتأخذ طابع التعريف بالنهضة الحسينية، وشرح أهدافها<sup>(٧)</sup>.

وهذه الطريقة مهمة جداً لحفظ الثورة الحسينية، كما أنها تُشكل مادة مهمة لدراستنا هذه حول معالم الخطاب السياسي لأنصار الحسين عليه السلام.

#### النقطة الرابعة: معالم الخطاب السياسي لأنصار الحسين عليه السلام

إننا عندما ندرس معالم الخطاب السياسي لأنصار الحسين عليه السلام فإننا ندرس بذلك معالم الخطاب الحسيني، ومعالم خطاب الثورة الحسينية. وهذا الخطاب يُشكل مدرسة يقتدي بها أتباع مدرسة الإمام عليه السلام؛ وذلك لأن جمهور الأنصار هذا كان يمثل النخبة، فيجب أن نلاحظ أن كثيراً من الثائرين لا يمثلون - عددياً - أشخاصهم، أو أسرهم، وإنما يمثلون - فيما وراء ذلك - جماعات كبرى من القبائل. ولأن الثوار يمثلون النخبة فقد كانوا قادرين على السيطرة على الموقف، لو قُدِّر للثورة أن تتصر عسكرياً، ويتمكن أصحابها من الاستيلاء على الحكم، وكانوا قادرين - إذا لم يُنح لهم النصر - كما حدث في الواقع، أن يفجروا طوفاناً من الغضب ضد الحكم المنحرف في قلوب جماهير غفيرة من الناس، وأن يضعوهم على طريق الوعي الحقيقي، وأن يجعلوا منهم جمهوراً يُغذي الثورات باستمرار، وهذا ما حدث في الواقع<sup>(٨)</sup>.

وهناك عنصر مهم لا بد - أيضاً - من التوقف عنده في ظاهرة الأنصار هذه، وهو أن الإمام الحسين عليه السلام لم يعتمد إلى أخذ البيعة من أحد طيلة مسيره من المدينة، إلى مكة ثم منها إلى الكوفة، فمن سار مع الحسين عليه السلام سار لمجرد دعوة من الحسين وشرح للواقع السياسي والاجتماعي القائم، والذي يستدعي التحرك<sup>(٩)</sup>.



انطلاقاً من المادة التي تقدّمت نستطيع من خلال تتبّعنا لها أن نستحضر معالم الخطاب السياسي لأنصار الإمام الحسين عليه السلام، ونوضحها ضمن المحاور التالية:

### المحور الأول: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

شكّلت هذه الفريضة الإلهية المنطلق الأوّل لثورة الإمام الحسين عليه السلام، وكما صرّح الإمام نفسه بذلك، فقد كان هذا الدافع هو ما عاشه أصحاب الحسين، وظهر ذلك في خطابهم السياسي؛ وذلك أولاً في حوار مُسلم بن عقيل سفير الإمام الحسين عليه السلام إلى أهل الكوفة بعد أن أُلقي عليه القبض ابن زياد، فقد قال له ابن زياد: أريد أن تخبرني يا ابن عقيل بماذا أتيت إلى هذا البلد؟ شتّت أمرهم وفرّقت كلمتهم، ورميت بعضهم على بعض!

فقال مسلم بن عقيل: ليس لذلك أتيت هذا البلد، ولكنكم أظهرتم المنكر، ودفنتم المعروف، وتأمّرتُم على الناس من غير رضا، وحملتوهم على غير ما أمر الله به، ... فأتيناهم لنأمر فيهم بالمعروف وننهاهم عن المنكر، وندعوهم إلى حكم الكتاب والسنة<sup>(١)</sup>.

لقد كانت سيرة الحاكمين تقوم على نشر المنكر في المجتمع الإسلامي، فابتدأ التجاهر ببعض المحرّمات في داخل المجتمع المسلم، وهي ظاهرة لا يمكن للمؤمن الرضا بها أو السكوت عنها.

### المحور الثاني: الإمامة الحقّة

مسألة الإمامة وقضيّة الخلافة هي أساس قيام الإمام الحسين عليه السلام، فقد أعلن عليه السلام صراحة أنّه الأحقُّ بالأمر، وشيعته وأنصاره كلّهم كانوا على ذلك، وبذلك نطقوا حناجرهم في مختلف المواطن. ومن ذلك قول نافع بن هلال مخاطباً الإمام الحسين عليه السلام: «يا ابن رسول الله، أنت تعلم أنّ جدّك رسول الله ﷺ لم يقدر أن يُشرب النَّاس محبّته، ولا أن يرجعوا إلى أمره ما أحبّ، وقد كان منهم منافقون يعدّونه بالنّصر، ويُضْمِرُون له الغدر، يلقونه بأحلى من العسل،

ويخلفونه بأمرٍ من الخنظل حتى قبضه الله إليه، وأنَّ أباك علياً قد كان في مثل ذلك، فقومٌ قد أجمعوا على نصره، وقاتلوا معه النّاكثين والقاسطين والمارقين، وقومٌ خالفوه حتى أتاه أجله ومضى إلى رحمة الله ورضوانه، وأنت اليوم عندنا في مثل تلك الحالة، فمن نكث عهده وخلع نيته فلن يضرَّ إلا نفسه والله مغنٍ عنه، فير بنا راشداً معافى، مُشْرِقاً إن شئت وإن شئت مُعْرَباً، فوالله ما أشفقنا من قدر الله، ولا كرهنا لقاء ربنا، فإنّا على نياتنا وبصائرنا، نوالي من والاك ونعادي من عاداك<sup>(١١)</sup>.

يستحضر شهيد الثورة الحُسَيْنِيَّة هذا مفهوم الإمامة مُستحِضراً الامتداد الطُّولي له على مرِّ التّاريخ، ومُستحِضراً المعاناة التي عانها النّبيُّ الأكرم ﷺ من أصحابه، وكذلك الإمام علي عليه السلام.

لقد كان المنطلق الواضح لأنصار الحُسَيْن عليه السلام هو الإيمان بأنَّ الإمام هو صاحب منصب الإمامة الحقّة. وفي ذلك خاطب يزيد بن مسعود النّهشلي قومه بني تميم وبني حنظلة وبني سعد لما حضروا، قال: «يا بني تميم كيف ترون موضعي فيكم وحسبي منكم؟! فقالوا: بخٍ بخٍ أنت - والله - فقرة الظّهر ورأس الفخر، حللت في الشّرف وسطاً، وتقدّمت فيه فرطاً. قال: فإنّي قد جمعتكم لأمرٍ أريد أن أشاوركم فيه، وأستعين بكم عليه، فقالوا: إنّنا - والله - نمنحك النّصيحة [و]أنجهد لك الرّأي، فقل حتى نسمع! فقال: إنّ معاوية مات! فأهون به - والله - هالكاً ومفقوداً، ألا وإنّه قد انكسر باب الجور والإثم، وتضعضت أركان الظّلم، وقد كان أحدث بيعةً عقد بها أمراً ظنَّ أنّه قد أحكمه، وهيئات الذي أراد، اجتهد - والله - ففشل، وشاور فخذل، وقد قام ابنه يزيد شارب الخمر، ورأس الفجور، يدّعي الخلافة على المسلمين، ويتأمرّ عليهم بغير رضی منهم، مع قصر جلّم، وقلة علم، لا يعرف من الحقِّ موطئ قدميه، فأقسم بالله قسماً مبروراً لجهاده على الدّين أفضل من جهاد المشركين. وهذا الحُسَيْن بن علي ابن

بنت رسول الله ﷺ، ذو الشرف الأصيل، والرأي الأثيل، له فضل لا يوصف، وعلم لا ينزف، وهو أولى بهذا الأمر لسابقته، وسنه، وقدمه، وقرابته، يعطف على الصغير، ويحنو على الكبير، فأكرم به راعي رعيته، وإمام قوم، وجبت لله به الحجة، وبلغت به الموعظة، فلا تعشوا عن نور الحق...»<sup>(١٢)</sup>.

### المحور الثالث: حفظ ذرية النبي ﷺ

احتلت ذرية النبي ﷺ مكانة في قلوب المسلمين، وقد خطط أعداء آل محمد لإطفاء هذه المكانة واجتثاثها من نفوس الناس، وهذه المكانة كانت حاضرة في الخطاب السياسي لأنصار الحسين عليه السلام في دعوتهم للآخرين، وتذكيرهم بهذه المكانة، كما أنها كانت حاضرة في نفوسهم، فهذا زهير بن القين يخاطب القوم عندما اصطف المعسكران، وزحف القوم على الحسين عليه السلام: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ ابْتَلَانَا وَإِيَّاكُمْ بِذُرِّيَّةِ نَبِيِّ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِنَنْظُرَ مَا نَحْنُ وَأَنْتُمْ عَامِلُونَ! إِنَّا نَدْعُوكُمْ إِلَى نَصْرِهِمْ وَخِذْلَانِ الطَّاغِيَةِ عبيد الله بن زياد...»<sup>(١٣)</sup>.

ومن ذلك كلام حبيب بن مظاهر، فقد ذكر أبو مخنف أَنَّ حبيب قال لزهير: «كَلَّمَ الْقَوْمَ إِنْ شِئْتَ، وَإِنْ شِئْتَ كَلَّمْتَهُمْ أَنَا. فَقَالَ زَهِيرُ أَنْتَ بَدَأْتَ فَكَلَّمْتَهُمْ، فَقَالَ لَهُمْ حَبِيبٌ: أَمَّا وَاللَّهِ لِبُئْسِ الْقَوْمِ عِنْدَ اللَّهِ غَدًا قَوْمٌ يَقْدُمُونَ عَلَى اللَّهِ قَدْ قَتَلُوا ذُرِّيَّةَ نَبِيِّهِ وَعَتَرَتَهُ وَأَهْلَ بَيْتِهِ»<sup>(١٤)</sup>.

فحفظ ذرية النبي واجب وتكليف على عامة المسلمين عليهم القيام به.

وهذا أيضا ارتجز زهير بن القين عندما برز للقتال:

أَنَا زَهِيرٌ وَأَنَا ابْنُ الْقَيْنِ	أَذُوذُكُمْ بِالسَّيْفِ عَنْ حُسَيْنٍ
إِنَّ حُسَيْنًا أَحَدُ السُّبُطَيْنِ	مِنْ عِتْرَةِ الْبَرِّ التَّقِيِّ الزَّيْنِ
ذَاكَ رَسُولُ اللَّهِ غَيْرُ الْمَيْنِ	أَضْرِبُكُمْ وَلَا أَرَى مِنْ شَيْنِ

لقد كانت خصوصية الحسين عليه السلام في كونه من ذرية النبي ﷺ دافعا مهماً لالتحاق زهير بن القين به؛ وذلك لأنَّ المؤرخين ذكروا في ترجمة زهير بن القين

أَنَّهُ كَانَ عُثْمَانِيُّ الْهُوَى، وَلَكِنَّهُ انْتَقَلَ إِلَى أَنْ أَصْبَحَ مِنْ أَنْصَارِ الْحُسَيْنِ عليه السلام بَعْدَ أَنْ التَّقَاهُ فِي الطَّرِيقِ. وَيُحَدِّثُنَا أَبُو مَخْنَفٍ عَنْ حِوَارٍ جَرَى بَيْنَ زَهِيرِ بْنِ الْقَيْنِ وَأَحَدِ جُنْدِ ابْنِ سَعْدٍ، وَهُوَ عَزْرَةَ بْنِ قَيْسٍ الَّذِي قَالَ مَخَاطَباً زَهِيرًا: «إِنَّكَ لَتَزْكِي نَفْسَكَ مَا اسْتَطَعْتَ! فَقَالَ لَهُ زَهِيرٌ: يَا عَزْرَةَ إِنَّ اللَّهَ قَدْ زَكَّاها وَهَدَاها، فَاتَّقِ اللَّهَ - يَا عَزْرَةَ - فَإِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ، أُنْشِدُكَ اللَّهَ يَا - عَزْرَةَ - أَنْ تَكُونَ مِمَّنْ يَعِينُ الضَّلَالَةَ عَلَى قَتْلِ النَّفُوسِ الزَّكِيَّةِ. فَقَالَ عَزْرَةَ: يَا زَهِيرُ! مَا كُنْتَ عِنْدَنَا مِنْ شِيعَةِ هَذَا الْبَيْتِ، إِنَّمَا كُنْتَ عُثْمَانِيًّا! قَالَ: أَفَلَسْتَ تَسْتَدِلُّ بِمَوْقِفِي هَذَا عَلَى آتِي مِنْهُمْ؟! أَمَا وَاللَّهِ مَا كَتَبْتُ إِلَيْهِ كِتَاباً قَطُّ، وَلَا أَرْسَلْتُ إِلَيْهِ رَسُولاً قَطُّ، وَلَا وَعَدْتُهُ نُصْرَتِي قَطُّ، وَلَكِنَّ الطَّرِيقَ جَمَعَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُ ذَكَرْتُ بِهِ رَسُولَ اللَّهِ وَمَكَانَهُ مِنْهُ، وَعَرَفْتُ مَا يَقْدِمُ عَلَيْهِ مِنْ عَدُوِّهِ وَحَزْبِكُمْ فَرَأَيْتُ أَنْ أَنْصُرَهُ، وَأَنْ أَكُونَ فِي حَزْبِهِ، وَأَنْ أَجْعَلَ نَفْسِي دُونَ نَفْسِهِ حِفْظاً لِمَا ضَيَّعْتُمْ مِنْ حَقِّ اللَّهِ وَحَقِّ رَسُولِهِ» <sup>(١٥)</sup>.

#### المحور الرابع: أداء حق الإمامة

لَقَدْ كَانَ أَنْصَارُ الْحُسَيْنِ مِمَّنْ تَرَبَّوْا عَلَى الْعَقِيدَةِ الصَّحِيحَةِ فِي نَظَرَتِهِمْ إِلَى الْإِمَامَةِ؛ وَيَشْهَدُ لذلِكَ تَقْدِيمُ أَرْوَاحِهِمْ - وَهِيَ أَغْلَى مَا يَمْلِكُونَهُ - دِفَاعاً عَنْ الْإِمَامِ عليه السلام. وَهَذَا يُوضِحُ مَدَى امْتِلَاكِهِمْ لَوْعِي عَقِيدَتِي مُتَأَصِّلٍ فِي نَفُوسِهِمْ، كَمَا تَجَلَّى ذلِكَ صَرِيحاً فِي كَلِمَاتِهِمْ وَخُطَابِهِمِ السِّيَاسِي، فَقَدْ رَوَى الطَّبْرِيُّ أَنَّ الْإِمَامَ الْحُسَيْنَ عليه السلام قَالَ مَخَاطَباً أَصْحَابَهُ: «هَذَا اللَّيْلُ قَدْ غَشِيَكُمْ فَاتَّخَذُوهُ جَهْلًا، ثُمَّ لِيَأْخُذْ كُلُّ رَجُلٍ مِنْكُمْ بِيَدِ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي، ثُمَّ تَفَرَّقُوا فِي سَوَادِكُمْ وَمَدَائِنِكُمْ حَتَّى يَفْرَجَ اللَّهُ؛ فَإِنَّ الْقَوْمَ إِنَّمَا يَطْلُبُونِي، وَلَوْ قَدْ أَصَابُونِي لَهَا عَنْ طَلَبِ غَيْرِي».

فَقَامَ إِلَيْهِ مُسْلِمُ بْنُ عَوْسَجَةَ الْأَسَدِي فَقَالَ: «أَنْحَنُ نَخْلِي عَنْكَ وَلَمَّا نَعْزُرُ إِلَى اللَّهِ فِي أَدَاءِ حَقِّكَ، أَمَا وَاللَّهِ حَتَّى أَكْسِرَ فِي صَدُورِهِمْ رِجْحِي، وَأُضْرِبَهُمْ بِسَيْفِي مَا ثَبَتَ قَائِمُهُ فِي يَدِي، وَلَا أَفَارِقُكَ. وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مَعِيَ سِلَاحٌ أَقَاتَلَهُمْ بِهِ لَقَذَفْتُهُمْ بِالْحِجَارَةِ دُونَكَ حَتَّى أَمُوتَ مَعَكَ». قَالَ: وَقَالَ سَعْدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْحَنْفِي: «وَاللَّهِ

لا نخلّيك حتى يعلم الله أنّا قد حفظنا غيبة رسول الله ﷺ فيك، والله لو علمت أنّي أقتل ثم أحيى ثم أحرق حيّاً ثم أذّر يفعل ذلك بي سبعين مرة ما فارقتك حتى ألقى حمامي دونك، فكيف لا أفعل ذلك وإنّما هي قتلة واحدة ثم هي الكرامة التي لا انقضاء لها أبداً!». قال: وقال زهير بن القين: «والله لو ددت أنّي قُتلت ثم نُشرت ثم قُتلت حتى أقتل كذا ألف قتلة وأنّ الله يدفع بذلك القتل عن نفسك وعن أنفس هؤلاء الفتية من أهل بيتك». قال: وتكلّم جماعة أصحابه بكلام يشبه بعضه بعضاً في وجه واحد، فقالوا: «والله لا نفارقك ولكن أنفسنا لك الفداء، نفيك بنحورنا وجباهنا وأيدينا، فإذا نحن قتلنا كنّا وفينا وقضينا ما علينا»<sup>(١٦)</sup>.

تتضمّن كلمات أصحاب الإمام عليه السلام هنا بوضوح الدلالة على فكرة ثبوت تكليف على عاتقهم، يقضي هذا التكليف بأنّ للإمام عليهم حقّاً، وأنّهم في كلّ ما يقومون به من قتال القوم إنّما هو من باب أداء هذا الحق.

#### المحور الخامس: مواجهة الضّيم والظلم

تضمّن الخطاب السياسي للأ نصّار الحديث عن أهمّ القضايا الإنسانيّة، وهي دفع الظلم والجور. فقد اجتمع مع نظرة الأصحاب إلى الإمام عليه السلام المنطلقة من عقيدة راسخة النظّر إلى مظلوميّته، التي هي قضيّة تتجاوز مسألة العقيدة إلى أن تكون من المبادئ الإنسانيّة لكلّ من يتحلّى بصفات الإنسان الحرّ؛ فقد ذكر المؤرخون أنّ عابس بن أبي شبيب قال: «يا أبا عبد الله! أما والله ما أمسى على ظهر الأرض قريب ولا بعيد أعزّ عليّ ولا أحبّ إليّ منك، ولو قدرت على أن أدفع عنك الضّيم والقتل بشيء أعزّ عليّ من نفسي ودمي لفعلته. السّلام عليك يا أبا عبد الله! أشهد الله أنّي على هديك وهدى أبيك». ثم مشى بالسيف مصلاً نحوهم<sup>(١٧)</sup>.

#### المحور السادس: الوفاء بالعهود والمواثيق

انطلقت الكتب إلى الإمام الحسين عليه السلام من أهل الكوفة بتابعه على النصرة والإمامة، وتعهّد بالعمل معه على مقارعة الظلم والثورة بوجه الظالمين، إلا أن الخيانة برزت بأفجع مظهر تاريخي لها؛ فقد خان القوم الحسين عليه السلام، ولم يقتصر الأمر ببعضهم على عدم نصرته حتى انقلب ليقف - وبكل صلافة وجراءة - في معسكر القتال المواجه له.

لقد بين الإمام الحسين عليه السلام ذلك عندما خاطب القوم مذكراً بإيائهم بكتبهم فقال: «أيها الناس! إنَّها معذرةٌ إلى الله عزَّ وجلَّ وإليكم، إيَّي لم آتكم حتى أتني كتبكم، وقدمت على رسلكم أن أقدم علينا، فإنَّه ليس لنا إمامٌ لعلَّ الله يجمعنا بك على الهدى...»<sup>(١٨)</sup>.

وكلام الإمام هذا أثر في نفوس القوم، وكان ممَّن تأثر بذلك الحرُّ بن يزيد الرياحي الذي انطلق - وقد كان من رؤوس القوم - ليلتحق بالإمام عليه السلام، ويبدل مُهْجته في نصْرته. ويوضح الحر دافعه إلى هذا الانقلاب بقوله مخاطباً أهل الكوفة ممَّن كان في المعسكر المقابل:

«يا أهل الكوفة لأمكم الهبل والعُبر؛ إذ دعوتموه حتى إذا أتاكم أسلمتموه! وزعتم أنكم قاتلوا أنفسكم دونه، ثُمَّ عدوتم عليه لتقتلوه! أمسكتم بنفسه وأخذتم بكظمه، وأحطتم به من كُلِّ جانب، فمنعتموه التَّوجُّه في بلاد الله العريضة حتى يأمن ويأمن أهل بيته، وأصبح في أيديكم كالأسير لا يملك لنفسه نفعاً ولا يدفع ضراً، وخلأتموه ونساءه وأهل بيته وأصحابه عن ماء الفرات الجاري»<sup>(١٩)</sup>.

المحور السابع: اتباع الحُجَّة والدليل

تضمَّن الخطاب السِّيَاسي لأنصار الحسين عليه السلام تقرير القوم بأنَّ الأنصار هم اتباع الحُجَّة والدليل، وذلك تجلِّي في الأراجيز التي أطلقها الأصحاب مُعلِّنين فيها إيمانهم بقوة حجَّتهم، فعاطب حبيب القوم عند مبارزته لهم بقوله:

أَنَا حَيِّبٌ وَأَبِي مُظَاهِرٌ  
أَنْتُمْ أَعْدَاءُ عُدَّةٍ وَأَكْثَرُ  
وَنَحْنُ أَعْلَى حُجَّةٍ وَأَظْهَرُ  
فَارِسُ هَيْجَاءٍ وَحَرْبُ تُسَعَرِ  
وَنَحْنُ أَوْفَى مِنْكُمْ وَأَضْبَرُ  
حَقًّا وَأَتَقَى مِنْكُمْ وَأَعْدَرُ<sup>(٢٠)</sup>

#### المحور الثامن: البعد الأخروي

لا شك في أن من يُقدم على تقديم نفسه وروحه في سبيل قضية من القضايا لا بدَّ وأن يمتلك رؤيةً أخرويةً سليمةً تجعله يرى في إقدامه على ما يقوم به إقداماً على عالم أرحب وأوسع، وهذا ما تجلَّى في أنصار الحسين عليه السلام؛ فقد كان مفهوم شفاعته النبي ﷺ في الآخرة حاضراً في خطاب الأنصار، فخاطب زهير بن القين القوم بقوله: «فوالله لا تنال شفاعته محمد ﷺ قوماً أراقوا دماء ذريته وأهل بيته، وقتلوا من نصرهم وذَبَّ عن حريمهم»<sup>(٢١)</sup>.

#### المحور التاسع: الأخوة في الدين ما لم يقع الدَّم

من أهم المفاهيم التي كرَّسها النبي والأئمة - صلوات الله عليهم أجمعين - مسألة الأخوة في الدين، وهذا النمط في التعاطي يبقى إلى اللحظات الأخيرة التي يمكن الحفاظ فيه على هذه الأخوة. وهذه الفكرة كانت مركوزة في تعامل أنصار الحسين عليه السلام مع القوم الذين اصطفوا لقتالهم، وقد برز إليهم زهير بن القين محاولاً تحريك عنصر وحدة الدين بينهم؛ ليدراً بذلك انقطاع العصمة وليحقن بذلك دمهم، قال: «يا أهل الكوفة! نذار لكم من عذاب الله نذاراً! إنَّ حقاً على المسلم نصيحة أخيه المسلم، ونحن حتى الآن أخوة على دين واحد وملة واحدة ما لم يقع بيننا وبينكم السيف، وأنتم للنصيحة منّا أهل، فإذا وقع السيف انقطعت العصمة، وكُنَّا أُمَّةً وأنتم أُمَّة»<sup>(٢٢)</sup>.

#### الشعار السياسي في خطاب الأنصار

يتكوّن الشعار السياسي من كلمة أو عددٍ قليلٍ من الكلمات التي تحمل دلالاتٍ تاريخيةً واجتماعيةً واعتقاديةً وفكريةً تتجاوز الألفاظ والمعاني اللغوية،

لتحكي - وباختصار - عن المفهوم الذي يحمله صاحب الشعار.

رصدنا في خطابات الأنصار وحواراتهم وأراجيزهم العديد من الشعارات السياسية:

### ١- دين علي عليه السلام.

من مفردات الشعار السياسي شعار (دين علي)، هذا الشعار يُشير بوضوح إلى تلك الجماعة الأولى التي تكوّنت من شيعة الإمام علي عليه السلام، والتي حاربها معاوية بن أبي سفيان، وتتبع أفرادها بالقتل والتّكيل، وهي الجماعة التي كانت ترى الإمامة الحقّة في علي وأولاده. فقد كتب معاوية إلى زياد بن سلمة: «من كان على دين علي ورأيه فاقتله وامثل به»<sup>(٢٣)</sup>.

وعندما برز نافع بن هلال الجملي كان قد كتب اسمه على أفواق نبله، فجعل يرمي بها مسومةً وهو يقول: «أنا الجملي، أنا على دين علي»<sup>(٢٤)</sup>.

### ٢- الأحزاب

شعار الأحزاب، هو شعار القوم الذين انطلقوا للقضاء على النّبي ﷺ في المدينة في بدايات الرّسالة الإسلامية، ونواتهم قريش التي ترأسها رأس البيت الأموي أبو سفيان. وهنا يستحضر الأنصار هذه الواقعة؛ لأنّها شعار ما تجدد من محاربة البيت الأموي للبيت الهاشمي.

فقد روى المؤرخون في وقائع كربلاء أنّ حنظلة بن أسعد الشّامي قام بين يدي حسين عليه السلام فأخذ ينادي: «﴿وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَقُومُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾ (٢٠) مِثْلَ دَابِّ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظَلْمَنَا لِلْعِبَادِ (٢١) وَيَقُومُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ النَّارِ (٢٢) يَوْمَ تَوَلَّوْنَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِن عَاصِرٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ (٢٣)﴾»<sup>(٢٥)</sup>.

### ٣- ولد فاطمة عليها السلام

لفاطمة عليها السلام مكانة في قلوب المسلمين، هذه المكانة التي أكّد عليها



الرَّسُول ﷺ في كلماته الشهيرة:

«إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَغْضَبُ لَغَضْبِكَ، وَيَرْضَى لِرِضَاكَ»<sup>(٢٦)</sup>.

فَاطِمَةُ عليها السلام ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالنبي ﷺ، وعلى هذا الأساس يتحدث ابن أبي الحديد المعتزلي الشافعي عن مفهوم ولد فاطمة عليها السلام قائلاً: «وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى اخْتِصَاصِ وَلَدِ فَاطِمَةَ دُونَ بَنِي هَاشِمٍ كُلِّهِم بِالنَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَنَّهُ مَا كَانَ يَحُلُّ لَهُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - أَنْ يَنْكَحَ بَنَاتَ الْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ عليهما السلام، وَلَا بَنَاتَ ذُرِّيَّتِهِمَا وَإِنْ بَعْدَ ذَلِكَ وَطَالَ الزَّمَانُ، وَيَحُلُّ لَهُ نِكَاحُ بَنَاتٍ غَيْرِهِمْ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ مِنَ الطَّالِبِينَ وَغَيْرِهِمْ. وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى مَزِيدِ الْأَقْرَبِيَّةِ، وَهِيَ كَوْنُهُمْ أَوْلَادَهُ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ هُنَاكَ مَنْ الْقَرِيبِ غَيْرِ هَذَا الْوَجْهِ؛ لِأَنَّهُمْ لَيْسُوا أَوْلَادَ أَخِيهِ، وَلَا أَوْلَادَ أُخْتِهِ، وَلَا هُنَاكَ وَجْهٌ يَقْتَضِي حَرَمَتَهُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَوْنُهُ وَالِدًا لَهُمْ وَكَوْنُهُمْ أَوْلَادًا لَهُ»<sup>(٢٧)</sup>.

وهذا الشعر تناوله أنصار الحسين عليه السلام في تقريعهم للقوم، ففي خطاب زهير بن القين لجماعة ابن سعد يقول:

«عَبَادَ اللَّهِ! إِنَّ وَلَدَ فَاطِمَةَ - رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهَا - أَحَقُّ بِالْوُدِّ وَالنَّصْرِ مِنْ ابْنِ سَمِيَّةٍ، فَإِنْ لَمْ تَنْصُرُوهُمْ فَأَعِذْكُمْ بِاللَّهِ أَنْ تَقْتُلُوهُمْ»<sup>(٢٨)</sup>.

\* \* \*

## الهوامش:

(١) اعتمدت في هذا التصنيف الآتي على مصدرين، هما: إحصار العين في أنصار الحسين عليه السلام للشيخ مُحَمَّد السَّائِغ، نشر مركز الدراسات التابع لممثلة الولي الفقيه، الطبعة الأولى ١٤١٩. وأنصار الحسين عليه السلام الرجال والدلالات للشيخ مُحَمَّد مهدي شمس، نشر الدار الإسلامية، الطبعة الثانية ١٩٨١.

(٢) شمس الدين، مُحَمَّد مهدي، أنصار الحسين عليه السلام: ١٩١.

- (٣) الطُّبري، مُحَمَّد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك ٤: ٣٢٣، نشر مؤسسة الأعلمي، بيروت لبنان.  
(٤) المصدر نفسه ٤: ٢٦١.
- (٥) أبي مخنف لوط بن يحيى الأزدي، وقعة الطُّف: ٢٥٣، تحقيق الشَّيخ مُحَمَّد هادي اليوسفي الغروي، نشر المجمع العالمي لأهل البيت عليه السلام، الطُّبعة الثانية ١٤٢٧.
- (٦) ابن منظور، لسان العرب ٥: ٣٥٠، نشر أدب الحوزة، ١٤٠٥.
- (٧) المطَّهر مرعشي، الملحمة الحُسَيْنِيَّة ٢: ١٨٨.
- (٨) شمس الدِّين مُحَمَّد مهدي، أنصار الحُسَيْن عليه السلام: ٢٠١.
- (٩) راجع في ذلك كتاب مُحَمَّد علي عابدين، الدَّوافع الذَّاتِيَّة لأنصار الحُسَيْن عليه السلام.
- (١٠) الأمين، محسن، لوايع الأشجان، مطبعة العرفان، صيدا، ١٣٣١هـ.
- (١١) السَّهَّاي مُحَمَّد، إِبصار العين في أنصار الحُسَيْن: ١٤٧، تحقيق الشَّيخ مُحَمَّد جعفر الطُّبسي، نشر مركز الدِّراسات الإسلاميَّة لممثليَّة الولي الفقيه في الحرس الثَّوري، الطُّبعة الأولى ١٤١٩.
- (١٢) ابن طاووس، علي بن موسى، اللُّهوف في قتل الطُّفوف: ٢٦، نشر أنوار الهدى، الطُّبعة الأولى ١٤١٧، قم.
- (١٣) الطُّبري، مُحَمَّد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك ٤: ٣٢٤.
- (١٤) وقعة الطُّف: ٢٢٤.
- (١٥) المصدر نفسه: ٢٢٤.
- (١٦) راجع: تاريخ الأمم والملوك ٤: ٣١٧ وما بعدها.
- (١٧) المصدر نفسه ٤: ٣٣٨.
- (١٨) وقعة الطُّف: ١٩٧.
- (١٩) المصدر نفسه: ٢٤٨.
- (٢٠) المصدر نفسه: ٢٦٤.
- (٢١) المصدر نفسه: ٢٤٥.
- (٢٢) المصدر نفسه: ٢٤١.
- (٢٣) الأُميني، الغدير ١٠: ٢٨٨، الطُّبعة الرَّابِعة ١٣٩٧، نشر دار الكتاب العربي، بيروت.
- (٢٤) وقعة الطُّف: ٢٦٧.
- (٢٥) المصدر نفسه: ٢٧٠، والآيات من سورة غافر.
- (٢٦) الحاكم النِّسابوري، أبي عبد الله، المستدرک علی الصَّحَّاحين ٣: ١٥٤، تحقيق يوسف عبد الرَّحمن المرعشي.

- (٢٧) ابن أبي الحديد، عزّ الدين، شرح نهج البلاغة ١١: ٢٧، تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم، نشر دار إحياء التراث العربي ١٩٦١، بيروت.
- (٢٨) تاريخ الأمم والملوك ٤: ٣٢٤.

## مرض الإمام السَّجَّاد عليه السلام

### والعناية الإلهية

□ الشيخ بسام حسين (\*)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مِمَّا يُمَيِّزُ وقعة الطَّفِّ وما رافقها من أحداث، أَنَّ المصائب التي جرت فيها لم تقف عند الجانب المأساوي الَّذِي يقتصر فيه الإنسان على استشعار الحزن، واستدرار الدُّموع فحسب...

بل تعدَّت ذلك لتأخذ مفرداتٍ لها دلالاتها وأبعادها المختلفة، التي تستوقف الباحث، وتلفت النَّاظِر فيما يتعلَّق بتاريخ الأُمَّة ومستقبلها...

ومن هذه المفردات الأليمة والمهمة في وقتٍ واحد، المرض الَّذِي أصاب الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام، وَالَّذِي شَاءَت الحكمة الإلهية بقاءه بعد تلك الواقعة المفجعة، لطفاً بالخلق، ولئلاً تخلو الأرض من نسل آل محمد ﷺ.

ومن الطَّبيعي أَنَّ أمراً كهذا يبعث في الأذهان التَّساؤلات المختلفة:

فما هي طبيعة هذا المرض الَّذِي أصاب هذا الإمام العظيم؟

(\*) باحث إسلامي من لبنان.

وكيف ترك آثاره عليه؟

ومتى أصيب به؟ وكم استمر معه؟

وما هي أبعاده في مجال حفظ حياته المباركة، صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين؟

أسئلةٌ تحتاج إلى بحثٍ ودراسةٍ سنحاول الإجابة عليها في هذه المقالة، ومن الله نستمدُّ العون والتوفيق:

**مرض الإمام عليه السلام:**

جاء في المصادر المختلفة أنَّ الإمام زين العابدين عليه السلام الذي حضر وقعة الطفِّ مع أبيه الإمام الحسين عليه السلام كان وقتئذٍ مريضاً عليلاً<sup>(١)</sup>.

وعن طبيعة هذا المرض الذي أصاب الإمام عليه السلام ونوعه، تُحدِّثنا بعض الروايات عن أنَّه كان مبطوناً:

منها: ما رواه الصَّفَّار، بسنده عن الإمام الباقر عليه السلام، في حديثٍ له:

«وكان علي بن الحسين مبطوناً، لا يرون إلاَّ أنَّه لما به»<sup>(٢)</sup>.

وعن الشَّيخ المفيد رحمه الله وغيره أنَّه كان مريضاً بالذَّرْب<sup>(٣)</sup>.

والمبطون في اللغة: العليل البطن، ومن يشتكي من بطنه<sup>(٤)</sup>، أو من به إسهالٌ أو انتفاخٌ في البطن<sup>(٥)</sup>. والذَّرْب الدَّاء الذي يعرض للمعدة؛ فلا تهضم الطَّعام، ويفسد فيها ولا تمسكه<sup>(٦)</sup>.

والذَّرْب من الأمراض مأخوذٌ من الجرح الذي لا يبرأ، واستعير من الجرح للمرض المعروف<sup>(٧)</sup>.

فالإمام عليه السلام كان مصاباً بنوعٍ من الإسهال، والظاهر أنَّه كان حاداً، كما يوحى بذلك التعبير عنه بالذَّرْب الذي يدلُّ على الحدة وعدم البرء، كما قد عرفت.

وبملاحظة ما تقدَّم لا يُصغى إلى ما حكاه في المناقب عن كتاب المقتل، قال

أحمد بن حنبل أنه كان سبب مرض الإمام زين العابدين عليه السلام في كربلاء أنه ألبس درعاً ففضل عنه، فأخذ الفضلة بيده ومزقه <sup>(٨)</sup>؛ إذ - مضافاً لمخالفته لما تقدم - لم يتضح الربط بين المرض وتمزيقه عليه السلام لفضلة الدرع بيده بحيث يرجع إلى معنى واضح.

### شدة المرض:

الظاهر من النصوص المختلفة أن الإمام عليه السلام كان قد أخذ المرض منه مأخذه، ففي الخبر السابق عن الباقر عليه السلام: «... لا يرون إلا أنه لما به...». وفي أعلام الورى بسنده عن الإمام الباقر عليه السلام أيضاً أنه قال: «... وكان علي بن الحسين مريضاً لا يرون أنه يبقى بعده...» <sup>(٩)</sup>.

وقد تقدم أن التعبير بالذرب لا يخلو من ظهور في شدة المرض، خصوصاً بملاحظة استعماله في المرض الذي لا يبرأ <sup>(١٠)</sup>.

ومن هنا نجد الشيخ المفيد يقول: «وهو مريض بالذرب، وقد أشفى» <sup>(١١)</sup>، أي: قرب من الموت.

وكذلك نجد أن تعبيرات جملة من الرواة والمؤرخين صريحة في صعوبة المرض، وبلوغه أشد حالاته، كتعبيرهم عنه:

- أنه كان عليلاً دنفاً <sup>(١٢)</sup>، والذنف: المرض الملازم المخامر، ومدنف: أبراه المرض حتى أشفى على الموت <sup>(١٣)</sup>.

- أنه كان شديد العلة <sup>(١٤)</sup>.

- أنه كان شديد المرض <sup>(١٥)</sup>.

- أنه كان يومئذ عليلاً لا يملك من نفسه شيئاً <sup>(١٦)</sup>.

- أنه كان منبسطاً على فراشه <sup>(١٧)</sup>، أو نائماً عليه <sup>(١٨)</sup>.

- أنه أنهكه المرض، أو العلة، أو الأوجاع<sup>(٢٩)</sup>.

- ويصفه بعضهم عند ابن زياد في الكوفة: وهو على ما ترى من العلة، وما أراه إلا ميتاً عن قريب<sup>(٣٠)</sup>.

- ومما يوحى أيضاً بشدة المرض بحسب العادة ما ورد من أن العقيلة زينب عليها السلام كانت تمرضه، وفي بعض المصادر أن النساء كنَّ يمرضنه<sup>(٣١)</sup>. إلى غير ذلك مما يراه الباحث مثوراً في كلماتهم المختلفة.

### متى بدأ المرض؟ وكـم استمر؟

لم تحدّد المصادر التي تعرّضت لمرضه عليه السلام الزّمان الذي أصيب فيه بالتحديد، ولكنّ الأمر المعلوم أنّ مرضه عليه السلام كان متقدّماً على اليوم العاشر؛ حيث نُقل عنه عليه السلام قوله: «وإني جالسٌ في تلك العشيّة التي قُتل أبي في صبيحتها، وعندي عمّتي زينب تمرّضني...»<sup>(٣٢)</sup>.

وعن آخر: «... وأنا عليلٌ...»<sup>(٣٣)</sup>.

وعن ثالث: «... قرب المساء ... وأنا مريضٌ...»<sup>(٣٤)</sup>.

وهذا يعني أنّ يوم التاسع من محرّم قد مرّ والإمام فيه عليلٌ. وفي اليوم العاشر استمرّ مرضه عليه السلام، وقد تدهورت حالته الصحيّة إلى أشدها؛ حيث ينقل الرواة والمؤرّخون أنّه عندما انتهى إليه القوم، وفيهم شمر بن ذي الجوشن وأرادوا قتله، وجدوه منبسّطاً على فراشه مريضاً<sup>(٣٥)</sup>، ويصف بعضهم حالته ببعض ما تقدّم ذكره.

وبعد العاشر لم يكن حال الإمام عليه السلام أفضل منه فيه؛ حيث وُصف حاله عندما أخذ أسيراً بأنّ المرض كان شديداً عليه، بل كان قد أشفى وقارب الموت<sup>(٣٦)</sup>.

وفي الكوفة كانت لا يزال وضعه الصَّحِّي على حاله، إن لم نقل بأنَّه قد ازداد سوءاً بسبب الأسر وما حلَّ به من مصائب مفعجة.

فقد روى شيخ الطائفة في الأمالي بسنده إلى حذلم بن سثير<sup>(٢٧)</sup>، قال: «قدمت الكوفة في المحرم من سنة إحدى وستين، منصرف علي بن الحسين عليه السلام بالنسوة من كربلاء، ومعهم الأجناد يُحيطون بهم، وقد خرج النَّاس للنَّظر إليهم، فلما أقبل بهم على الجمال بغير وطاء، جعل نساء الكوفة يبكين ويلتدمن، فسمعتُ علي بن الحسين عليه السلام وهو يقول بصوت ضئيل، وقد نهكته العلة، وفي عنقه الجامعة، ويده مغلولة إلى عنقه: إِنَّ هَؤُلاءِ النَّسوة يبكين، فمن قتلنا؟!...»<sup>(٢٨)</sup>. وفي الشَّام كان عليه السلام على حاله من العلة أيضاً<sup>(٢٩)</sup>. بل قد رجع منها مريضاً، كما أفاده بعضهم<sup>(٣٠)</sup>.

### دور المرض في حفظ الإمام عليه السلام:

لا ريب أنَّ مرض الإمام عليه السلام كان له الدَّور الأساسي في حفظ حياته وبقائه. ويظهر هذا من بعض النصوص الواردة عن الإمام الباقر عليه السلام، والتي تذكر بأنَّه كان عليه السلام مريضاً، وكان القوم لا يرون أنَّه يبقى بعد أبيه الإمام الحسين عليه السلام<sup>(٣١)</sup>. وهذا - أيضاً - ما توضَّحه النصوص التي ذكرها المؤرِّخون والرُّواة، حينما مال القوم على ثقل الحسين عليه السلام، وهجموا على خيامه.

يقول حميد بن مسلم: «انتهينا إلى علي بن الحسين عليه السلام، وهو منبسَّط على فراش، وهو شديد المرض، ومع شمر جماعة من الرِّجالة، فقالوا له: ألا نقتل هذا العليل؟ فقلت: سبحان الله! أَيْقتل الصَّبيان؟! إِنَّا هو صبيٌّ وإنَّه لما به، فلم أزل حتَّى رددتهم عنه. وجاء عمر بن سعد، فصاح النَّساء في وجهه وبكين، فقال لأصحابه: لا يدخل أحدٌ منكم بيوت هَؤُلاءِ النَّسوة، ولا تعرضوا لهذا



الغلام المريض، وسألته النسوة ليسترجع ما أخذَ منهنَّ ليتسرنَّ به، فقال: مَنْ أخذَ من متاعهنَّ شيئاً فليردّه عليهنَّ. فوالله ما ردَّ أحدٌ منهم شيئاً، فوَكَّلَ بالفسطاط وبيوت النساءِ وعلي بن الحسين جماعةً يَمَنُّ كانوا معه، وقال: احفظوهم؛ لئلا يخرج منهم أحدٌ، ولا تسيننَّ إليهم»<sup>(٣٢)</sup>.

وقد علَّلَ عددٌ منهم بقاء الإمام عليه السلام حياً بأنّه كان مريضاً<sup>(٣٣)</sup>.

وَيْمًا لَا يَصْحُ:

أ- رجلٌ يدافع عنه:

ذكر ابن شهر آشوب في المناقب، عن أبي مخنف، عن الجلودي، أنّه لما قُتل الحسين عليه السلام، كان علي بن الحسين نائماً، فجعل رجلٌ يدافع عن كل من أراد به سوءاً<sup>(٣٤)</sup>.

وقد يظهر منه، أنّ هذا الرجل كان هو السَّبب في حفظ الإمام عليه السلام من القتل. ولا يمكن المصير إليه؛ إذ من الواضح، أنّ أحداً لم يكن بإمكانه دفع أولئك القوم عن قتله لولا وجود المرض الذي جعلهم يظنُّون أنّ الإمام عليه السلام لا يبقى بعده، وبذلك يكون المرض قد كفاهم مؤونة قتله وسفك دمه.

ولا يستبعد - إن صحَّت الرواية - أن يكون المراد بهذا الشخص، حميد بن مسلم، الذي روى الحديث المتقدم، والذي يذكر فيه هجوم القوم على خيام الحسين عليه السلام، خصوصاً إذا لاحظنا ما نقله عنه الطبري، حيث قال: «فما زال ذلك دأبي أدفع عنه كلَّ ما جاء...»<sup>(٣٥)</sup>. وعليه، فتوجَّه الرواية - حيثنذ - بأنَّ هذا الرجل دافع عنه بعد أن حاولوا قتله وتركوه بسبب مرضه.

ب- كون الإمام عليه السلام صغيراً:

وفي كلمات بعضهم «كان صغيراً يوم الطَّف»<sup>(٣٦)</sup>، وعن بعضهم أنّه: «كان قد راهق»<sup>(٣٧)</sup>، والظاهر أنّ هناك من علَّل ترك القوم للإمام عليه السلام، بصغر سنّه

وهذا غير صحيح، وذلك بملاحظة ما يلي:

أولاً: لقد صرَّح بعضهم أنه عليه السلام كان وقتئذ فتى شاباً، بل رجلاً<sup>(٣٩)</sup>...

وثانياً: أنَّ الثَّابت عن جملة من المؤرِّخين والرُّواة، أنَّ ولادة الإمام السَّجاد عليه السلام كانت في أيام حكومة جدِّه أمير المؤمنين عليه السلام، في حدود سنة ثمان وثلاثين<sup>(٤٠)</sup>.

وعليه فيكون عمره في وقعة الطَّف ما يقارب ثلاث وعشرون سنة، فلاحظ. وثالثاً: من الثَّابت - أيضاً - أنَّ الإمام الباقر عليه السلام وُلِد قبل وقعة الطَّف، سنة سبع وخمسين من الهجرة<sup>(٤١)</sup>، ومعه فكيف يكون أبوه عليه السلام صغيراً، أو قد راهق كما زعم بعضهم.

قال ابن سعد في الطبقات - بعد نقله القول بأنَّ علي بن الحسين عليه السلام مات وهو ابن ثمان وخمسين سنة - : «قال محمد بن عمر: فهذا يدلُّ على أنَّ علي بن الحسين كان مع أبيه وهو ابن ثلاث أو أربع وعشرين سنة، وليس قول من قال إنَّه كان صغيراً ولم يكن أنبت بشيء، ولكنَّه كان يومئذ مريضاً لم يقاتل، وكيف يكون يومئذ لم ينبت وقد ولد له أبو جعفر محمد بن علي؟!»<sup>(٤٢)</sup>.

### وقفه مع القول بصغر السن:

وعلى هامش القول بصغر سنِّ الإمام عليه السلام، لا بأس بالإشارة إلى أمور:

الأمر الأوَّل: ذهب الفرقة المعروفة بـ (الكيسانية)، إلى القول بإمامة مُحَمَّد بن الحنفية، وأنكرت إمامة الإمام زين العابدين عليه السلام، ومن جملة ما احتجَّوا به في زعمهم هذا، قولهم: «إنَّ الذي بقي من ولد الحسين وهو زين العابدين، كان صبيّاً ولم يكن أهلاً للإمامة، فتعيَّن مُحَمَّد لها»<sup>(٤٣)</sup>.

وليس من البعيد، أن يكون هؤلاء قد أشاعوا هذا الأمر، حتّى تناقله الرواة وأثبت في كتب التاريخ.

وقد ردّ المحقّق الطوسي هذا الزعم بقوله: «... أمّا ما قالوا: إنّ زين العابدين بعد الحسين كان صبيّاً، فليس كذلك؛ لأنّه كان ابن ثلاث وعشرين سنة، وأنّها لم يحارب يوم الطّف لأنّه كان مريضاً...»<sup>(٤٤)</sup>.

وفي شرح الأخبار للقاضي النعمان: «وزعم عوام النّاس أنّه كان يوم قتل أبوه طفلاً، وأنّ أباه أوصى به إلى غيره ليعدلوا بالإمامة عنه. أمّا أهل العلم بالأخبار والأنساب والتّواريخ منهم، فقد قالوا مثل ما ذكرنا أنّه كان رجلاً...»<sup>(٤٥)</sup>.

الأمر الثّاني: الظّاهر أنّ هناك خلطاً قد وقع بين الإمام زين العابدين عليه السلام، وبين ولد آخر يُذكر للإمام الحسين عليه السلام يُقال له عليّ الأصغر، على ما ذكره بعضهم<sup>(٤٦)</sup>.

إذ قد جاء وصف الإمام زين العابدين لدى بعضهم بعليّ الأصغر<sup>(٤٧)</sup>، ولعلّ هذا من الأسباب التي أدّت إلى توهم صغر سنّ الإمام عليه السلام؛ ذلك لاعتقادهم بأنّ عليّاً الأصغر هو زين العابدين عليه السلام، وليس شخصاً آخر.

وتحقّق القول بوجود ابن ثالث للإمام الحسين عليه السلام، ومسمّى بعليّ الأصغر، يكون غير عليّ الأكبر الشّهيد، وغير الإمام زين العابدين عليه السلام، وإثبات اتّحاده مع عبد الله الرّضيع، أو اختلافه عنه، يحتاج إلى دراسة مستقلّة لا مجال للتّعرض لها هنا.

الأمر الثّالث: يظهر من بعضهم أنّ هناك خلطاً آخر وقع لدى الرواة لعلّه يكون السّبب في نسبة صغر السنّ إلى الإمام عليه السلام، فقد ذكر أبو نصر البخاريّ النسابة الشّهير في سرّ السّلسلة العلويّة ما نصّه: «... وأمّا قول أبي مخنف لوط بن يحيى وهشام الكلبيّ أنّه كان صغيراً ففتّشه ابن زياد، وقال: انظروا هل

أدرك؟ ليقته، فلا يصحُّ ذلك بل هذه القصّة كانت مع عمر بن الحسن عليه السلام؛ فإنّه كان من جملة الأسارى...» <sup>(٤٨)</sup>.

### عوامل أخرى في حفظ الإمام عليه السلام:

لا يسعنا أن ننكر وجود عوامل أخرى - مضافاً إلى السبب الأساسي وهو المرض - ساعدت في حفظ الإمام زين العابدين عليه السلام حيّاً، وكان لها دورٌ في بقائه ونجاته من يد الأعداء:

فمنها: موقف العقيلة زينب عليها السلام، عندما حاول القوم قتل الإمام عليه السلام، وقد تكرر منها هذا الموقف؛ حيث قامت به في كربلاء، وعادوت فعله - أيضاً - في الكوفة.

ففي كربلاء يذكر بعضهم تدخّل العقيلة زينب عليها السلام، ومنعها القوم من قتل الإمام عليه السلام قائلة: «لا يقتل حتّى أقتل دونه»، فكفّوا عنه <sup>(٤٩)</sup>.

وأما في الكوفة، فراها - أيضاً - قد انبرت للدفاع عنه عليها السلام وتعلّقت به، عندما أراد ابن زياد قتله، وخاطبته قائلة: «يا ابن زياد حسبك منّا، أما رويت من دمائنا؟ واعتنقت علياً عليه السلام»، وقالت: أسألك بالله يا ابن زياد إن قتلته أن تقتلني معه... إلى أن انصرف ابن زياد عن قتله، وقال بعد أن نظر إليها ساعة، ثمّ نظر إلى القوم: عجباً للرّحم، والله إنّي لأظنّها ودّت لو أنّي قتلته وأنّي قتلتها معه...» <sup>(٥٠)</sup>.

ومنها: ما قد يقال - وهو غير بعيد -: من أن القوم بقتلهم لعليّ الأكبر عليه السلام، طنّوا أنّهم قضوا على خطّ الإمامة، ولم يُبقوا لأهل هذا البيت ذكر يذكر... وذلك لأنّ عليّ الأكبر كان هو الابن المبرّز للإمام الحسين عليه السلام، وأشبه النّاس خلقاً وخلقاً ومنطقاً برسول الله صلى الله عليه وآله، وبالتالي فإنّ الأنظار ستتشدّ إليه، باعتباره

المؤهل لوراثته أبيه من بعده.

وليكن هذا الأمر، أسلوباً من الأساليب المتعمدة في الحفاظ على حياة الإمام زين العابدين عليه السلام صرفاً لوجوه الناس عنه، وضماناً لسلامته من يد القوم في تلك المرحلة...

وربما يؤيد هذا الوجه، ما جاء عن معاوية حينما سأل: من أحقُّ الناس بهذا الأمر؟ قالوا: أنت، قال: لا، أولى الناس بهذا الأمر علي بن الحسين بن علي عليه السلام، جدُّه رسول الله صلى الله عليه وآله، وفيه شجاعة بني هاشم، وسخاء بني أمية، وزهو ثقيف <sup>(٥١)</sup>.

ويؤيده أيضاً، ما ذكره عن ابن زياد حينما سأل زين العابدين عليه السلام: «من أنت؟ فقال: أنا علي بن الحسين، فقال: أليس قد قتل الله علي بن الحسين؟!.. إلى آخر ما جرى بينه وبين الإمام عليه السلام من حديث يطول ذكره <sup>(٥٢)</sup>.

ومنها: أنَّ مجاً يساعد على بقاء الإمام عليه السلام حيّاً عدم مشاركته في القتال بسبب المرض، وقد جاء هذا الأمر كتعليل لسلامة الإمام عليه السلام ونجاته من يد القوم في بعض المصادر.

ففي طبقات ابن سعد: «وكان علي بن الحسين مع أبيه وهو ابن ثلاث وعشرين سنة، وكان مريضاً نائماً على فراشه، فلما قُتل الحسين عليه السلام، قال شمر بن ذي الجوشن: اقتلوا هذا! فقال له رجل من أصحابه: سبحان الله! أتقتل فتى حدثاً مريضاً لم يقاتل؟! وجاء عمر بن سعد فقال: لا تتعرّضوا لهؤلاء النسوة ولا لهذا المريض» <sup>(٥٣)</sup>.

وفي مناقب ابن شهر آشوب: «ولم يُقتل زين العابدين؛ لأنَّ أباه لم يأذن له في الحرب، وكان مريضاً» <sup>(٥٤)</sup>.

وغيرهما ممَّن نصَّ على عدم مشاركة الإمام عليه السلام في الحرب والقتال <sup>(٥٥)</sup>.

وَمِمَّا يُؤَيِّدُ ذَلِكَ وَيَقْوِيهِ:

أ - أَنَّ الإمام الحسين عليه السلام، لم يكن ليعرَّض ولده السَّجَّاد عليه السلام وهو البقيَّة الباقية من أولاده، وأبو الأئمة عليهم السلام من بعده، إلى خطر الحرب وما يرافق القتال من ضرب السيوف وطعن الرِّماح، والقوم على ما هم عليه من الحقد والقسوة والشَّدَّة، وقد عزموا على إبادة أهل هذا البيت الطَّاهر، وقد نُزعت من قلوبهم الرَّحمة، ولم يسلم من عدائهم حتَّى الطِّفْل الرُّضيع وهو في حجر أبيه الحسين عليه السلام.

فما بالك لو نظروا إلى ولده زين العابدين عليه السلام، يقاتلهم في أرض المعركة، فهل تراهم يدعوه، أو يتركوه سالماً؟!

وَمِمَّا يَصْلَحُ شَاهِداً لِمَا قُلْنَاهُ مَا رَوَاهُ الْمُجَلِّسِيُّ فِي الْبَحَارِ عَنْ بَعْضِهِمْ: «... ثُمَّ التَفَتَ الْحُسَيْنُ عليه السلام عَنْ يَمِينِهِ فَلَمْ يَرَ أَحَدًا مِنَ الرُّجَالِ، وَالتَفَتَ عَنْ يَسَارِهِ فَلَمْ يَرَ أَحَدًا، فَخَرَجَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ زَيْنُ الْعَابِدِينَ عليه السلام، وَكَانَ مَرِيضًا لَا يَقْدِرُ أَنْ يَقِلَّ سَيْفِهِ، وَأَمَّ كُلُّهُمْ تَنَادِي خَلْفَهُ: يَا بَنِيَّ ارْجِعْ! فَقَالَ: يَا عَمَّتَاهُ ذَرِينِي أَقَاتِلْ بَيْنَ يَدَيِ ابْنِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ الْحُسَيْنُ عليه السلام: يَا أُمَّ كُلُّهُمْ خَذِيهِ لئَلَّا تَبْقَى الْأَرْضُ خَالِيَةً مِنْ نَسْلِ آلِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ...» (٥٦).

ب - جَاءَ فِي بَعْضِ الْمُقَاتِلِ: أَنَّ الشَّمْرَ عِنْدَمَا أَرَادَ قَتْلَ الْإِمَامِ عليه السلام، وَحَاوَلَ الْقَوْمَ مَنَعَهُ، قَالَ لَهُمْ عِنْدئِذٍ: إِنَّ ابْنَ زِيَادٍ أَمَرَ بِقَتْلِ أَوْلَادِ الْحُسَيْنِ عليه السلام (٥٧).

وَقَدْ تَقَدَّمَ سَابِقاً أَنَّ الَّذِي أَوْجَبَ تَرَاجُعَهُمْ عَنْ قَتْلِهِ، الْحَالَةُ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا الْإِمَامُ عليه السلام مِنَ الْمَرَضِ وَالْعَلَّةِ، مُضَافاً إِلَى أَنَّهُ لَمْ يَقَاتِلْ، كَمَا سَبَقَ نَقْلُهُ عَنْ بَعْضِهِمْ. وَلَوْلَا ذَلِكَ لَكَانَ لَشَمْرِ وَغَيْرِهِ مِنَ الْأَعْدَاءِ أَنْ يَعْتَذِرُوا عَنْ قَتْلِهِ، بِأَنَّهُ شَارَكَ فِي الْقِتَالِ وَخَاضَ عِبَابَ الْحَرْبِ، وَمِنَ الطَّبِيعِيِّ - حِينَئِذٍ - أَنْ يُنَالَ جَزَاءَهُ، وَيُجْهَزُوا عَلَيْهِ، لَطَالَمَا أَنَّ أَحَدًا لَمْ يَكُنْ بِإِمَكَانِهِ أَنْ يَحْمِيَهُ وَيَسْتَنْقِذَهُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ، كَمَا تَبَيَّنَ

ذلك للحسن المشني ابن الإمام الحسن عليه السلام الذي كان جريحاً، فتشفّع به أسماء بن خارجة الفزارية من أخواله، فسَلِمَ من القتل وأنجاه الله تعالى <sup>(٥٨)</sup>.

ج - إنَّ مرض الإمام عليه السلام، كان شديداً - كما تقدّم -، ولم تكن حالته الصحيّة على ما يظهر تسمح له بحمل السّلاح، وقد تقدّم عن قريب، أنّه لم يكن يقدر على حمل سيفه.

وسبق أنّه عليه السلام كان مريضاً من اليوم التّاسع أيضاً، ومقتضى الحال أنّ حالته كانت تزداد سوءاً ساعةً بعد ساعة؛ ممّا يبعد احتمال أن يكون قد قاتل في وقت من الأوقات، ثمّ أصابه المرض، أو اشتدّ عليه، خصوصاً بملاحظة ما تقدّم من أنّ زينب عليها السلام كانت تمرّضه في ليلةٍ سابقةٍ على اليوم العاشر.

ومن هنا يعلم الضّعف في ما ذكره الفضيل بن الزبير، من أنّه ارتث يومئذٍ، وقد حضر بعض القتال فدفع الله عنه <sup>(٥٩)</sup>...

وقد تفرّد على ما يظهر بهذا، حيث لم أعثر - فيما تتبّعت - على نصٍّ أو شاهدٍ آخر يدعم قوله، أو يذكر للإمام عليه السلام وصفاً لقتاله في أرض المعركة، خصوصاً وأنّ العديد من الرّواة والمؤرّخين قد تتبّعوا ذلك وذكروه في حقّ من هو أقلُّ شأنًا من الإمام زين العابدين عليه السلام، ممّا يبعد معه خفاء هذا الأمر عليهم، كيف وهو ابن الإمام الحسين عليه السلام والبقية الباقية بعده.

وفي ما قدّمناه من وجوه ما يكفي لاستبعاد ما ذكره الفضيل، بل وردّه. هذا، ويضاف إلى ذلك - أيضاً - أنّه كان زيديّ المذهب <sup>(٦٠)</sup>، فلعلّه أراد بهذا القول تعزيز المذهب الزّيديّ القاتل بضرورة كون الإمام خارجاً بالسّيف، كما هي عقديتهم في الإمام، والله العالم بحقيقة الحال.

(١) نصّ على مرضه عليه السلام الكثير من المؤرّخين وأرباب المقاتل، منهم المفيد في الإرشاد ٢: ٩٣، ١١٢، وابن طاووس في اللّهُوف: ٦٣، وابن نما في مشير الأحزان: ٨٣، والطّبري في تاريخه ٤: ٢٩٣، ٣١٧، وأبو الفرج في مقاتل الطّالبيين: ١١٣، وأبو نصر البخاري في سرّ السّلسلة العلويّة: ٣١، وابن العنبري في تاريخ مختصر الدّول: ١١٠، وابن الجوزي في المنتظم ٥: ٣٤٥، والمزي في تهذيب الكمال ٢٠: ٣٨٤، والذهبي في تذكرة الحفاظ ١: ٧٤، وسير أعلام النبلاء ٣: ٣٠٩، وابن الأثير في الكامل ٣: ٤٣٤، وسبط ابن الجوزية في تذكرة الخواص: ٢٥٦، والخوارزمي في مقتل الحسين عليه السلام ٢: ٣٨، وابن منظور في مختصر تاريخ دمشق ١٧: ٢٣١، وابن العماد الحنبلي في شذرات الذهب ١: ١٦٣، وغيرهم الكثير.

(٢) بصائر الدّرجات: ١٦٨، الحديث: (٩)، تصحيح وتعليق الحاج ميرزا حسن، منشورات الأعلمي ١٤٠٤، مطبعة الأحدي، طهران.

(٣) الإرشاد ٢: ١١٤، مؤسسة آل البيت عليه السلام لتحقيق الثّراث، الطّبعة الثّانية، ١٤١٤.

(٤) لسان العرب، مادة (بطن).

(٥) مجمع البحرين ٦: ٢١٥، تحقيق السيّد أحمد الحسيني، نشر مكتب نشر الثّقافة الإسلاميّة، الطّبعة الثّانية ١٤٠٨.

(٦) راجع: لسان العرب ومجمع البحرين، مادة (ذرب).

(٧) ترتيب كتاب العين للفراهيدي، مادة (ذرب).

(٨) ابن شهر آشوب، محمّد بن علي، مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٨٤، تحقيق لجنة من أساتذة النّجف الأشرف، نشر المطبعة الحيدريّة ١٣٧٦ هـ.

(٩) أمين الإسلام الطّبرسي، الفضل بن الحسن، إعلام الوري بأعلام الهدى ١: ٤٨٣، تحقيق مؤسسة آل البيت عليه السلام، الطّبعة الأولى ١٤١٧.

(١٠) راجع: لسان العرب لابن منظور، مادة (ذرب).

(١١) الإرشاد ٢: ١١٤.

(١٢) القاضي المغربي، الثّعمان بن محمّد، شرح الأخبار ٣: ١٥٤، ١٩٦، ٢٥٠، تحقيق السيّد الجلال، نشر مؤسسة النّشر الإسلامي، قم.

(١٣) راجع: لسان العرب لابن منظور، مادة (دنف).



- (١٤) شرح الأخبار ٣: ١٥٦.
- (١٥) الإرشاد ٢: ١١٢.
- (١٦) شرح الأخبار ٣: ١٥٢.
- (١٧) الإرشاد ٢: ١١٢.
- (١٨) راجع: ترجمة الإمام الحسين عليه السلام ومقتله لابن سعد: ٧٨، من القسم غير المطبوع مع التاريخ، تحقيق الطباطبائي.
- (١٩) راجع: مطالب السؤول لابن طلحة الشافعي، واللّهوف لابن طاووس، والفصول المهمة لابن الصّباغ المالكي.
- (٢٠) شرح الأخبار ٣: ٢٥٢.
- (٢١) راجع: الإرشاد ٢: ٩٣، تاريخ الأمم والملوك ٤: ٣١٨، نشر مؤسسة الأعلمي، بيروت لبنان، شرح الأخبار ٣: ٢٥١.
- (٢٢) لاحظ مصادر الهامش السابق.
- (٢٣) أبو الفرج الإصفهاني، علي بن الحسين، مقاتل الطّالبيين: ٧٥، تقديم وإشراف كاظم المظفر، الطّبعة الثانية ١٣٨٥، منشورات المكتبة الحيدريّة، النّجف الأشرف.
- (٢٤) راجع: وقعة الطّف لأبي مخنف: ١٩٧، تحقيق الشّيخ اليوسفي الغروي، الطّبعة الأولى.
- (٢٥) راجع: الإرشاد ٢: ١١٢. طبقات ابن سعد ٥: ٢١٢، دار صادر بيروت. تاريخ الأمم والملوك ٤: ٣٤٧.
- (٢٦) راجع: الإرشاد ٢: ١١٤.
- (٢٧) وفي نسخة: كثير.
- (٢٨) الطّوسمي، محمّد بن الحسن، الأمالي: ٩١، الطّبعة الأولى ١٤١٤، نشر دار الثقافة، قم.
- (٢٩) شرح الأخبار ٣: ٢٥٣.
- (٣٠) ذكر ذلك الصّبان في إسعاف الرّاعيين المطبوع بهامش نور الأبصار للشبلنجي: ٢١٦.
- (٣١) الصّفار، محمّد بن الحسن، بصائر الدّرجات: ١٦٨، تحقيق ميرزا محسن كوجه باغي، منشورات الأعلمي، طهران، ١٣٦٨ ش.
- (٣٢) راجع الإرشاد ٢: ١١٣، تاريخ الأمم والملوك: ٤: ٣٤٧.
- (٣٣) راجع: الدّهبي، محمّد بن أحمد، سير أعلام النّبلاء ٣: ٣٢٠، إشراف شعيب الأرناؤوط، الطّبعة التاسعة ١٤١٣، مؤسسة الرّسالة، بيروت.
- (٣٤) مناقب آل أبي طالب ٤: ١٤٣.

- (٣٥) تاريخ الأمم والملوك ٤: ٣٤٧.
- (٣٦) الفتوح لابن أعثم ٥: ١٣١.
- (٣٧) الذينوري، أحمد بن داود، الأخبار الطوال: ٢٥٩، تحقيق عبد المنعم عامر، الطبعة الأولى ١٩٦٠، دار إحياء الكتب العربي.
- (٣٨) راجع: طبقات ابن سعد ٥: ٢٢١.
- (٣٩) راجع: شرح الأخبار ٣: ٢٦٥. النيسابوري، محمد بن الفتح، روضة الواعظين: ١٩١، منشورات الشريف الرضي، قم.
- (٤٠) الإرشاد ٢: ١٣٧. مناقب آل أبي طالب ٤: ١٧٥.
- (٤١) نقل ذلك العلامة المجلسي في الجزء (٤٦) من البحار عن جمع كبير من العلماء.
- (٤٢) الطبقات الكبرى ٥: ٢١٢.
- (٤٣) راجع: تلخيص المحصل المعروف نقد المحصل: ٤١٣.
- (٤٤) المصدر نفسه: ٤١٤.
- (٤٥) شرح الأخبار ٣: ٢٦٥.
- (٤٦) مناقب آل أبي طالب ٤: ٧٧، مطالب السؤول: ٦٩.
- (٤٧) راجع: المجدي في الأنساب للعمري: ٩١. لباب الأنساب لابن فندق ١: ٣٤٩.
- (٤٨) البخاري، أبو نصر، سر السلسلة العلوية: ٣١، الطبعة الأولى ١٤١٣، انتشارات الشريف الرضي، قم.
- (٤٩) راجع: مقتل الحسين عليه السلام للمقرم ٢: ٣٨، ط. النجف الأشرف.
- (٥٠) راجع: مثير الأحزان لابن نفا: ٧٢، نشر المطبعة الحيدرية ١٣٦٩، النجف الأشرف.
- (٥١) راجع: مقاتل الطالبين: ٨٦. ولا يخفى على القارئ ما في هذا الكلام من مدح للنفس، وذلك من خلال نسبة سخاء علي الأكبر إلى بني أمية؛ لأن ليل أمه أمها ميمونة بنت أبي سفيان بن حرب، مع أن الكرم نبت أصوله في البيت الهاشمي، وتشعبت فروعه، وللكلام مقام آخر.
- (٥٢) الإرشاد ٢: ١١٦.
- (٥٣) الطبقات الكبرى ٥: ٢١٢.
- (٥٤) مناقب آل أبي طالب ٤: ١١٣.
- (٥٥) سير أعلام النبلاء ٤: ٣٨٦.
- (٥٦) راجع: مقتل الخواري ٢: ٣٢.
- (٥٧) راجع: نفس المهموم للقمي: ٣٧١.

(٥٨) سرّ السلسلة العلويّة: ٥.

(٥٩) راجع: مجلّة تراثنا الصّادرة عن مؤسسة أهل البيت عليه السلام لإحياء التّراث، ص: ١٥٠، [تسمية من

قُتِل مع الحسين عليه السلام] للفضيل بن الزّبير، العدد الثّاني، السّنة الأولى.

(٦٠) المصدر نفسه: ١٤٢.

## المرأة موقفها ودورها

في عاشوراء (\*)

□ العلامة الشيخ عبد الله جوادى آملی (\*\*)

دخلت وقعة عاشوراء التاريخ وتمّ تدوينها بأقلام تضحيات جسام وجهود جبارة، وبحيزٍ أحر من دماء قانية طاهرة، قدّمها قائدُ همام، لا ولن يَسْمَح الدَّهرُ بمثله، مع ثلّةٍ من أصحابه لا تتجاوز الثلاثة والسّبعين نفراً.

إلّا أنّ هناك دوراً آخر مهمّاً، بل على قدرٍ عالٍ من الأهميّة، لا ينبغي لنا أنْ نغفل عنه؛ لأنّه من المكوّنات والعوامل الأساسيّة التي ساهمت - أيضاً - في صُنْع هذه الواقعة الحيّة والثّمينّة التي جرت أحداثها سنة ٦١ هـ. والذي مارس هذا الدّور واضطلع به: نساءٌ مؤمناتٌ قدّينَ الإسلام بأنفسِهِنَّ أوّلاً، وبأزواجهنّ وفلذات أكبادهنّ ثانياً، حتّى نال بعضهنّ الهدف المنشود، أعني: الشّهادة في سبيل الله، وحتّى دُوّنّت أسماؤهنّ بعزّة وافتخارٍ وعظيمةٍ في سجلِّ نهضة الإمام أبي عبد الله الحسين عليه السلام وثورته.

وما نريده في هذه المقالة، هو أنْ نأتي على ذكر أسمائهنّ اللامعة حسب

---

(\*) هذه المقالة متّقة من محاضرة للعلامة الآملی باللّغة الفارسيّة، إعداد قسم الترجمة في رسالة الثقلين.

(\*\*) مفكّر ومفسّر وفيلسوف إسلامي كبير.

الترتيب التاريخي، ونبين دورهن البارز، مُستذكرين ما قُمن به من توضيحات في نهضة عاشوراء المباركة.

### ١. دلهم بنت عمرو

أول هذه الأسماء الكريمة والعظيمة، هو «دلم»، اسم زوجة زهير بن القين، «دلم» التي سجّلت اسمها الصّالح، وللأبد، بعدما كان مجهولاً، سجّله بعملها الثّابت على صفحات التاريخ الإسلامي.

يقول رجلٌ من بني فزارة: كنّا مع زهير بن القين البجليّ حين أقبلنا من مكّة نساير الحسين، فلم يكن شيءٌ أبغض إلينا من أن نسايره في منزل، فإذا سار الحسين تخلف زهير بن القين، وإذا نزل الحسين تقدّم زهير، حتّى نزلنا - يومئذ - في منزلٍ لم نجد بداً من أن ننازله فيه، فنزل الحسين في جانب ونزلنا في جانب، فبينما نحن جلوسٌ نتغذى من طعام لنا، إذا أقبل رسول الحسين، حتّى سلّم، ثمّ دخل، فقال: يا زهير بن القين، إنّ أبا عبد الله الحسين بن عليّ بعثني إليك لتأتيه، قال: فطرح كلّ إنسانٍ ما في يده حتّى كأننا على رؤوسنا الطير. وقال أبو مخنف: فحدّثني دلم بنت عمرو امرأة زهير بن القين، قالت: فقلّلتُ له: أَيُبْعَثُ إِلَيْكَ ابن رسول الله ثمّ لا تأتيه، سبحان الله! لو أتيتّه فسَمِعْتَ من كلامه ثمّ انصرفت. لقد أثر كلام هذه المرأة في زوجها، وكان ذلك هو الذي جعل اسمه يُسجّل في سجلّ عظماء التاريخ الإسلامي، بعد أن قرّر زهير الذهاب إلى الإمام عليه السلام والتشرف بملاقاته، دون تردّد أو حيرة، بل بوجهٍ مُشرقٍ وعزيمةٍ فذة. فما لبث أن جاء مُستبشراً قد أسفرَ وجهه، فأمر بفسطاطه وثقله ومتاعه، فقدم وحمل إلى الحسين، مشترياً بذلك ولاية المآب مع الإمام الحسين عليه السلام، وكان مصداقاً للآية الشريفة: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾<sup>(١)</sup>. وأمّا زوجته، فقد طلقها، وألحقها بأهلها بعد أن أثر هو الشّهادة إلى جانب إمامه<sup>(٢)</sup>.

والأمر الآخر الذي رفع من قيمة هذه المرأة وشهد التاريخ لها به، أنه حينما استشهد زهيرٌ قالتَ لغلّامه: اذهب وكفّنْ مولاك، وعندما وصل الغلام رأى الإمام عليه السلام بدون كفّنٍ، فقال: أأكفّن سيدي وأترك الإمام الحسين عليه السلام ملقى هكذا! والله لن أفعل هذا. فكفّن الجسد المقدّس للإمام ثمّ رجع وأخذ كفناً آخر كفّن به مولا زهير بن القين<sup>(٣)</sup>.

## ٢. أم وهب بنت عبد

المرأة الأخرى التي يجدر بنا الوقوف عند شخصيّتها وإثارها، زوجة عبد الله بن عمير الكلبي، وهو من بني سليم، وكان قد نزل الكوفة واتّخذ فيها داراً، فرأى القوم، وقد اجتمعوا ورابطوا بالنخيلة، وهم يُعرضون لیسرّحوا إلى الحسين، فسأل عنهم، فقليل له: يُسرّحون إلى حسين بن فاطمة بنت رسول الله ﷺ، أي: إلى قتاله. فقال: والله لقد كنتُ على جهاد أهل الشّرك حريصاً، وإنّي لأرجو ألا يكون جهاد هؤلاء الذين يَغزون ابن بنت نبيهم أيسر ثواباً عند الله من ثوابه إيتاي في جهاد المشركين.

فدخل إلى امرأته، ويُقال لها: أم وهب بنت عبد، فأخبرها بما سمع، وأعلّمها بما يُريد، فقالت: أصبت، أصاب الله بك وأزشدّ أمورك، افعل وأخرِجني معك. فخرج بها ليلاً حتّى أتى حُسَيْنًا عليه السلام في الثامن من محرّم الحرام، فأقام معه. ثمّ في صُبح يوم العاشر، لما اشتعل أوار الحرب، خرج من جهة الأعداء يسار مولى زياد بن أبي سفيان، وسالم مولى عبيد الله بن زياد، فقالا: من يبارز؟ ليُخرج إلينا بغضكم. فوثب حبيب بن مظاهر وبرير بن خضير الهمداني، فقال لهما الحسين: اجلسا، فقام عبد الله بن عمير الكلبي، فقال: أبا عبد الله، رَحِمَك الله! اتذّن لي فلا أُخرج إليهما. فقال الحسين عليه السلام: إني لأخسبه للأقران قتالاً، أخرج إن شئت. فخرج إليهما وخده، فقاتلها فأرداها جميعاً وهو يرتجز ويقول:

إِنْ تُنْكَرُونِي فَأَنَا ابْنُ كَلْبٍ      حَسْبِي بَيْتِي فِي عَلِيمٍ حَسْبِي  
إِنِّي أَمْرُؤٌ ذُو مَرَّةٍ وَعَظْبٍ      وَلَكُنْتُ بِالْخَوَارِ عِنْدَ النُّكْبِ  
إِنِّي زَعِيمٌ لِّكَ أُمٌّ وَهَبَ      بِالطَّغْنِ فِيهِمْ مَقْدَمًا وَالضَّرْبِ  
ضَرْبَ غَلَامٍ مُّؤْمِنٍ بِالرَّبِّ

وعندما رآته أمٌ وهب، امرأته، على هذه الحال، أخذت عموداً، ثم أقبلت إلى ميدان المعركة متوجهة نحو زوجها، وهي تقول له: فذاك أبي وأمي، قاتل دون الطيبين ذرية محمد، فأقبل إليها يردّها نحو النساء، فأخذت تُجاذب ثوبه، ثم قالت: إِنِّي لَنْ أَدْعَكَ دُونَ أَنْ أَمُوتَ مَعَكَ. فنادها الحسين عليه السلام فقال: جُرَيْتُمْ مِنْ أَهْلِ بَيْتٍ خَيْرًا، أَزْجِعِي رَجْمَكَ اللَّهُ إِلَى النِّسَاءِ فَاجْلِسِي مَعَهُنَّ، فَإِنَّهُ لَيْسَ عَلَى النِّسَاءِ قِتَالٌ. فانصرفت إليهن<sup>(٤)</sup>. وكان عبد الله هذا هو الشهيد الثاني في يوم عاشوراء وأما أول الشهداء فقد كان مسلم بن عوسجة عليه السلام<sup>(٥)</sup>.

### ٣. الرِّبَاب

المرأة التالية التي ذكرها التاريخ وسجّل اسمها مُفْتَخراً بشتاتها وصلابتها هي زوجة الإمام الحسين عليه السلام «الرِّبَاب» ابنة امرئ القيس، وقد كانت الوحيدة من نسائه التي رافقته إلى كربلاء؛ لأنَّ أمَّ زَيْنَ العابدين رابع الأئمة عليهم السلام «شهربانو»، - وهي أخت يزيد جرد آخر ملوك السَّاسان في إيران - قد توفيت قبل فاجعة عاشوراء بأربعة وعشرين عاماً. كما أنَّ ليلي ابنة أبي مرّة بن عروة بن مسعود الثقفي أم عليّ الأكبر لم يُذكر اسمها في فاجعة كربلاء، ولا يعرف أحدٌ أنّها هل كانت حيّة في ذلك التاريخ أم لا؟ وكذلك، كما لم يُذكر اسم نساء أخريات كأم جعفر بن الحسين، وهي من قبيلة قضاة، وأم فاطمة بنت الحسين، يعني أم إسحاق ابنة طلحة بن عبيد الله التيمي التي حضرت ابنتها فاطمة واقعة كربلاء، وسُيِّتَ مع النساء ونُقِلَتْ إلى الكوفة ثُمَّ من بعد ذلك إلى الشَّام.

وعلى هذا، فالمرأة الوحيدة التي تشرّفت بصحبة زوجها الإمام الحسين عليه السلام في سفره إلى كربلاء هي الرّباب ابنة امرئ القيس الكلبيّ.

وكان امرؤ القيس هذا مسيحياً، قد أسلم في عهد عُمر، وقام هذا الأخير بتعيينه أميراً للمسلمين في قبيلة قضاة، وبعد تشرّفه بإمارة المسلمين، نال افتخاراً آخر بتزويج بناته الثلاثة إلى الأوصياء من آل محمد عليه السلام. حيث تزوّجت أولهنّ مولى الموحدين عليّاً عليه السلام، والأخرى الحسن المجتبى عليه السلام، وصُغراهنّ، وهي الرّباب، الإمام الحسين عليه السلام<sup>(١)</sup>.

أنجبت الرّباب بنتاً سُمّيت «سكينة»، وولداً سُمّي «عبد الله»، وقد استشهد ولدها الرّضيع يوم عاشوراء، وسُمّيت هي مع ابنتها سكينة أسيرة.

واسمها، وإن لم يرد عند ذكر الأحداث التي جرت يوم عاشوراء، إلا أنّه قد جاء في رواية<sup>(٢)</sup>: أنّها أُتيح لها فرصة الكلام في مجلس اللّعين ابن زياد، الذي أهدى إليه الرّأس الشريف، فأزاحت الستار عن مجريات عاشوراء بخلاصة عجيبة نظّمته في مرثية سجّلت على صفحات التّاريخ؛ إذ قامت الرّباب من بين النّاس وأخذت الرّأس المقدّس فقبلته ووضّعته في حجرها مرددة:

واحسبنا فلا نسيتُ حُسِيناً      أقصدته أسنّة الأعداء  
غادروه بكربلاء صريعاً      لا سقى الله جانبي كربلاء

وفي ظاهر الأمر، يُمكن أن يُقال: إنّ هذه المرأة لما أثّرت عاطفتها الجريحة، تداعت آهاتها القلبية في هذه المرثية الحزينة. إلا أنّنا نجزم بأنّ الأمر أكبر من هذا بكثير، وأنّه لا يقتصر على هذا التّوجيه البسيط والرّؤية السّطحية فحسب، بل يتعداه ليردّ على العديد من المستشرقين الذين أرادوا التّعقيم على هذه الواقعة التّاريخية وتحريفها لصالح الأعداء. فقال بعضهم: إنّ الإمام عليه السلام قد كان مريضاً بالسّل الذي سبّب له الإدماء عبر فمه، فتوقّى على إثر ذلك!! وفي صفحة كاذبة أخرى يقول أحدهم: إنّ الإمام عليه السلام كان مصاباً بمرض السرطان وقد وافته المنية



قبل بدء المعركة!!

فكانت الوحيدة التي تستطيع أن تحجب أمثال هؤلاء الذين أشدوا لمعاوية ويزيد منفعة عظيمة بكلامهم، هي الزَّباب زوجة الإمام الحسين عليه السلام؛ لأنها بينتَين صغيرين تمكَّنت من إزاحة الستار عن الحقيقة، وردَّت بهما أكذوبة مرض الإمام بالسَّل أو السَّرطان؛ حيث صرَّحت في مرثيتها بأنَّ الإمام الحسين عليه السلام قطع إرباً إرباً واستشهد في سبيل الله بيد قائد الأعداء، الدَّعي الذي لم يُعرَف له أب، لكي لا يقول أحد غداً أنَّ الحسين عليه السلام دُفِن بتجليل واحترام، بل رُمي به تحت التُّراب دون مراعاة لحرمة، أو حفظ لقرابته.

إنَّ ذكر هذه الحوادث والمطالب والتذكير بها مهمٌّ وضروريٌّ، ونحن نقطع بأنَّ أهل البيت عليهم السلام كان لديهم علمٌ بأنَّ أعداءهم سوف يغمدون إلى تزييف حقائق عاشوراء بأيِّ ثمن كان، وأنَّهم سيسعون إلى تضليل أفكار النَّاس. ومن هنا، وردَّاً على كُلِّ محرِّف في أيِّ مكانٍ من الدُّنيا، وجواباً على كُلِّ قولٍ فاحشٍ أو غير مناسب، قام هؤلاء النُّسوة بسردِ فصولٍ مهمَّةٍ من واقعة كربلاء، فأُزن زاوية كانت مُظلمة في تاريخ شهادة سيِّد الشهداء عليه السلام.

ويأتي في هذا السِّياق، قيام ثلاثة من النُّسوة خطيباتٍ في النَّاس في اليوم الأوَّل من وصولهم إلى الكوفة، وأمَّا الإمام الرابع، زين العابدين عليه السلام، فسوف يخطب في الكوفة وفي محضر ابن زياد.

وبعد، فلا يبقى مجالٌ لكلامنا نحن؛ لأنَّ كُلاًّ منهم قد أُتيحت لها الفرصة آنذاك لكي يفضِّخن يزيد وجلاوزته، ولو أنَّهنَّ كنَّ في وسط أقباصٍ وسجون، لبادرن فيها إلى رفع صوتهنَّ، ساعين بذلك إلى إزالة غفلة النَّاس. ولكن لم تكن النتيجة في نظر متكلِّم أهل البيت عليهم السلام هكذا، ولا المصلحة عندهم في إرجاعهم إلى المدينة، بل كانت في لزوم وصولهم إلى مركز الخلافة الإسلاميَّة «دمشق».

إنَّ طيَّ الإمام زين العابدين عليه السلام هذه المسافة من بغداد إلى دمشق كأسيرٍ مقيَّدٍ

بالأغلال والأصفاد، كان، على صعوبته، أمراً قابلاً للتحمّل، ولكنّ الذي لا يقبل التّحمّل هو عدم ترتّب الأثر على شهادة الإمام الحسين عليه السلام وتحريف تاريخ عاشوراء.

إنّا نعتقد أنّ الإمام الرّابع ونساء أهل البيت عليهم السلام كانوا مطمئني الفكر مرتاحي البال إزاء بقائهم عدّة أيام في مركز الخلافة، فهم قد خطبوا في النّاس وأزاحوا عن أذهانهم الاشتباه، وقاموا بأعمالٍ لو أراد أيّ مؤرّخ أن يؤرّخ لواقعة كربلاء كما بيّنها هم، لما استطاع إلى ذلك سبيلاً، أزيد ممّا كتبه الطّبري والمفيد وأبو الفرج الأصفهاني. هذا.

وقد تمكّن أهل البيت عليهم السلام في ذلك اليوم فقط، أن يرجعوا إلى المدينة بخواطر صافية، فصحيح أنّهم دخلوها باكين، ناديين ومتألّمين، ممّا ترك على أهل المدينة تأثيراً بالغاً، إلّا أنّهم كانوا مطمئنين لجهة تحقيقهم لهدفهم المنشود، ولم يكونوا مضطربين بشأن الصّورة التي سوف يكتبها التّاريخ حول الأحداث التي جرت في عاشوراء، ولا بشأن الصّورة التي سيؤجّه بها ثورة أبي عبد الله الحسين عليه السلام، ولم يخافوا من التّحريف الذي قد يطال هذه النّهضة العظيمة، ومن الطّريقة التي قد يُستخوذ بها على أذهان النّاس البسطاء بالأكاذيب والأباطيل والأراجيف، بل كانوا مُستبشرين بأنّ ما قالوه وما نقلوه من جزئيات واقعة كربلاء سيدخل قلوب النّاس وصدورهم، وإنّ غداً لناظره قريب، فذلك ما سوف تكتبه وتثبتّه صفحات التّاريخ الإسلامي، بحيث تقف سداً منيعاً أمام كلّ تحريف وتغيير أو زيادة ونقصان.

#### ٤. البكرية

المرأة الرّابعة التي أرعبت العدوّ بخطبتها القصيرة ضمنّ جريان أحداث عصر عاشوراء، وسجّل اسمها كواحدة من أعلام هذه الواقعة التّاريخيّة، وصار

لها مقامٌ شامخٌ ساهمَ في فضح تاريخ أعداء الله وأعداء دينه، هي امرأةٌ من قبيلة بكر بن وائل رافقت زوجها الذي كان أحد أفراد جيش ابن سعد، لكنّها بمجرد رؤيتها لهجوم الأعداء وإغارتهم على الخيام، وعدم مراعاتهم لحرمة النساء، لم تتمالك نفسها فحملت سيفاً قاصدةً خيمة أبي عبد الله الحسين عليه السلام وهي تصرخ وتنادي: يا آل بكر بن وائل. أتسلب بنات رسول الله؟! لا حُكْمَ إِلَّا لله، يا لثارات رسول الله<sup>(٨)</sup>.

وبهذا الخطاب القصير فضحت أعمال العدو، ولا يزال صوتهما يصدح حتى الآن، ويعلو في فضاء خيمة أبي عبد الله الحسين عليه السلام.

إننا عند البحث والتحقيق في تاريخ عاشوراء، نجد أنّ هؤلاء النسوة العظيمات قد قُمنَ لأجل إعلاء كلمة الحق وأهله وبإخلاص تام.

ولم تكن هذه المواقف والوقفات مُنحصرة في الأسماء المذكورة فقط، بل كما أنّ تضحية الشهداء من بني هاشم وغيرهم، مع جلال قدرهم وعظيم منزلتهم وجسيم تضحياتهم، لا يصلون إلى المقام الرفيع لمولانا الإمام الحسين عليه السلام، الذي كان قائداً، بكلّ ما تضمّنه هذه الكلمة من معنى. فكذلك، لا أحد من هؤلاء النساء المجاهدات أو المسيّبات، يصل إلى مقام زينب بنت أمير المؤمنين عليه السلام، التي استطاعت - بحق - أن تخلف أخاها الإمام الحسين عليه السلام في أحداث الأسر والسبي؛ إذ واصلت هدفه، الذي يتجلّى ويتلخّص في كلمة «هيهات منا الذلة»، مكملّة المسيرة الكربلائية، منذ عصر عاشوراء وحتى دخولها المدينة.

كما أنّها عليه السلام جسّدت التربية الحقّة لأُمّها الزّهراء سلام الله عليها، ولم تكن لتتوقع من ابنة أمير المؤمنين عليه السلام إلا هذا، فهي يجب عليها أن تكون صابرة في دين الله، كما كانت أمّها الزّهراء، وكما كانت جدّتها خديجة الكبرى، سلام الله عليهما.

لم تكن خديجة الكبرى أسبق الناس إيماناً برسول الله صلى الله عليه وآله، وأوهم دعوة

وتضحية في سبيل الله، منذ أول البعثة حتى تاريخ وفاتها؟ ألم تكن رفيقة النبي ﷺ وشريكة أحزانه لسنواتٍ عشرٍ أزاحت خلالها المحن والعقبات التي واجهته؟ ألم تكن زينب هذه حفيذة خديجة؟ ألم يقم الحسين ﷺ دفاعاً عن دين رسول الله وإحياء لدعوته؟

### ٥. الهاشميات في سوق الكوفة

لو افترضنا امرأة أسيرة في دين الله، وبهذه الحجة كانت تخطب في الأسواق والمعابر، وقد أظهرت بخطاباتها الحقيقة الحسنيّة الناصعة وعرفتها للناس وأوصلتها إلى أذهانهم، فاضحة بذلك أعداء الله تعالى. فمن - يا ترى - سيكون أنسب وأقدر من ابنة أمير المؤمنين ﷺ، التي ورثت التضحية عن أعظم النساء المضحيات في الإسلام خديجة الكبرى، وأكبر حام وكفيل لرسول الله ﷺ أبي طالب ﷺ.

ولهذا خطبت سلام الله عليها في سوق الكوفة، فكلمت الناس بلسان أبيها أمير المؤمنين ﷺ، الذي كان أخطب الناس بعد رسول الله ﷺ، وأشارت إلى الناس بأن أنصتوا، فارتدت الأنفاس، وسكنت الأجراس<sup>(٩)</sup>.

هذا. وقد أورد أحمد بن أبي طاهر البغدادي المتوفى عام ٢٨٠هـ في كتاب بلاغة النساء ثلاث روايات حول هذه الخطبة، واحدة منها مروية عن الإمام الصادق ﷺ.

ومنّ خطب في سوق الكوفة أيضاً، أختها أم كلثوم، التي ألفت اللوم على أهلها، مذكرة الناس برسائلهم التي كانوا قد بعثوا بها إلى الحسين ﷺ، فضج الناس بالبكاء والحنين والنواح والعويل، ولم ير باكيةً وبالكٍ أكثر من ذلك اليوم<sup>(١٠)</sup>.

كما أنّ فاطمة بنت الإمام الحسين ﷺ خطبت في المكان نفسه ملقية اللوم على

النَّاسَ بِسَبَبِ مَخَالَفَتِهِمْ لَوَعُودِهِمْ، وَمَا أَلَمَ مِنْ أَذْيَةٍ وَفَاجِعَةٍ بَيَّنَّتِ النَّبُوَّةَ<sup>(١)</sup>. وَبِهَذَا  
انْتَهَى الدَّوْرُ الَّذِي لَعَبْتَهُ بَنَاتُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي سَوْقِ الْكُوفَةِ.

#### ٦. فِي مَجْلِسِ ابْنِ زِيَادٍ

ثُمَّ انْتَقَلَتِ الْفُرْصَةُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى مَجْلِسِ اللَّعِينِ بْنِ زِيَادٍ، حَيْثُ أُذْخِلَتْ زَيْنَبُ  
ابْنَةُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ﷺ مَجْلِسَ الطَّاعِيَةِ ابْنِ زِيَادٍ بِأَرْذَلِ ثِيَابِهَا، فَجَلَسَتْ نَاحِيَةً وَقَدْ  
حَفَّتْ بِهَا إِمَاؤُهَا. وَعِنْدَمَا سَأَلَ ابْنُ زِيَادٍ: مَنْ تَكُونُ هَذِهِ الْمَرْأَةُ؟ فَلَمْ يُجِبْهُ أَحَدٌ،  
فَاعَادَ السُّؤَالَ مَرَّةً أُخْرَى، فَأَجَابَتْهُ إِحْدَى جَوَارِي زَيْنَبِ ﷺ قَائِلَةً: هَذِهِ زَيْنَبُ  
بِنْتُ فَاطِمَةَ بِنْتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

وَهُنَا تَكْمُنُ الْوُضُيْفَةُ الصَّعْبَةُ وَالْمَهْمَةُ الشَّاقَّةُ الَّتِي تَنْتَظِرُ زَيْنَبَ سَلَامَ اللَّهِ  
عَلَيْهَا؛ إِذْ يَجِبُ عَلَيْهَا أَنْ تَتِمَّاكَ أَعْصَابُهَا وَلَا تَفْقِدَ صَبْرَهَا، كَيْ لَا تَسْمَحَ لِابْنِ  
مَرْجَانَةَ بِأَنْ يَزَيِّفَ الْحَقِيقَةَ أَمَامَ النَّاسِ؛ وَهُوَ الْأَمْرُ الَّذِي حَاوَلَ اللَّعِينُ فَعْلَهُ  
وَالْقِيَامَ بِهِ عِنْدَمَا قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَحَكُمْ وَقَتْلَكُمْ.

وَلَقَدْ تَجَرَّأَ ابْنُ زِيَادٍ بِخَطَابِ الْكُفْرِ هَذَا النَّابِعِ مِنْ قِمَّةِ غُرُورِهِ بِانْتِصَارِهِ  
الزَّائِفِ عَلَى بَيْتِ النَّبُوَّةِ، وَإِلَّا، فَآيَ كَذِبٍ كَانَ يُنْطَقُ بِهِ بِنِوْهِ هَاشِمٍ؟! فَهَلْ كَذَبُوا  
عِنْدَمَا قَالُوا: «مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ»؟!!

وَعَلَى كُلِّ حَالٍ، فَقَدْ أَجَابَتْهُ الْحَوَارِيُّ زَيْنَبُ ﷺ دُونَ أَدْنَى تَرَدُّدٍ قَائِلَةً:  
«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَكْرَمَنَا بِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَطَهَّرَنَا مِنَ الرَّجْسِ تَطْهِيراً، إِنَّمَا  
يَفْتَضِحُ الْفَاسِقُ، وَيَكْذِبُ الْفَاجِرُ، وَهُوَ أَنْتَ يَا عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّ رَسُولِهِ».

فَقَالَ لَهَا: كَيْفَ رَأَيْتِ صُنْعَ اللَّهِ بِأَخِيكَ الْحُسَيْنِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ؟ وَكَأَنَّهُ أَرَادَ بِذَلِكَ  
تَذْكِيرَ زَيْنَبَ بِقَتْلِ يَوْمِ عَاشُورَاءَ وَاسْتِثَارَتِهَا، سَاعِياً إِلَى جَفْلِهَا ﷺ تُجِيبُهُ عَلَى وَفْقِ  
مِثْلِهِ وَرَغْبَتِهِ أَوْ تَرْتِجَاهُ، غَافِلاً عَنْ أَنَّهَا أَكْثَرُ مِنْهُ ذِكَاءً وَنَبَاهَةً، فَلَنْ تَقُولَ كَلِمَةً  
وَاحِدَةً فِي غَيْرِ مَحَلِّهَا، بَلْ كُلُّ مَا سَتَقُولُهُ مَسْطَرٌّ وَمَدْرُوسٌ، مُحَقَّقَةٌ بِذَلِكَ الْهَدَفِ

المنشود من نهضة عاشوراء المباركة.

فقلت له زينب في جوابها: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالَ فْتَبَادَرُوا أَمْرَ رَبِّهِمْ، وَبَرَزُوا إِلَى مَضَاجِعِهِمْ، فَقَاتِلُوا ثُمَّ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَسَيَجْمَعُ اللَّهُ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ، وَتَتَحَاجُّونَ وَتَتَخَاصِمُونَ عِنْدَ اللَّهِ، وَإِنَّ لَكَ مَوْقِفًا، فَاسْتَعِدَّ لِلْمَسْأَلَةِ جَوَابًا، إِذَا كَانَ الْقَاضِيُ اللَّهُ، وَالْخُضْمُ جَدِّي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَالسَّجْنُ جَهَنَّمُ»<sup>(١٢)</sup>.  
وعندها ارتسم الغضب الشديد على وجهه، ولولا عمرو بن حريث ولومه له، لَأَضْدَرَ أَمْرُهُ بِقَتْلِهَا سَلَامَ اللَّهِ عَلَيْهَا.

ولكن، ما هي الفائدة يا ثري من هذا الكلام الفاخر الصّادر من طاهرة من بيْت طاهر، بيْت النبوة، من زينب ؑ، الذي فضحت به هذا الفاسق الفاجر، ونزّهت وعرّفت به أهل بيْت العصمة والطهارة.

#### ٧. في مجلس يزيد

ثم بعد مضيّ شهرٍ أو أكثر على هذا المجلس، تجتمع زينب في مجلسٍ أهمّ، وأصعب موقفاً من الأوّل، موضحةً معالم نهضة عاشوراء، ومزيحةً بذلك الستار أمام أهل الشّام الذين كانوا يجهلون مواقف أهل الكوفة، وبعيدين عن معرفة أهل بيْت العصمة والطهارة.

وقد انعقد هذا المجلس في مركز الخلافة الإسلامية آنذاك، دمشق، الذي وقفت فيه زينب ؑ بكلّ ثباتٍ وثقة، وبإصرارٍ عجيب. لقد خطبت سلام الله عليها في هذا المجلس، ونُقلت خطبتها الشّريفة في كتبٍ عديدة، وقصّتها<sup>(١٣)</sup>:

أَنَّهُ لَمَّا أُذْخِلَ ثَقُلَ الْحُسَيْنُ ؑ وَنَسَاؤُهُ وَمَنْ تَخَلَّفَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ عَلَى يَزِيدَ بْنِ مَعَاوِيَةَ، وَهُمْ مَقْرَنُونَ فِي الْحَبَالِ، فَلَمَّا وَقَفُوا بَيْنَ يَدَيْهِ، وَهُمْ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ، دَعَا يَزِيدُ اللَّعِينُ بِقَضِيْبٍ مِنْ خِيزَرَانٍ، فَجَعَلَ يَنْكُتُ بِهِ ثَنَائِي أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الْحُسَيْنِ ؑ، مِمَثْلًا بِهَذِهِ الْآيَاتِ:

لَيْتَ أَشْيَاخِي يَبْذُرُ شَهْدُوا  
لَأَهْلُوا وَاسْتَهْلُوا قَرَحاً  
لَعَبَتْ هَاشِمٌ بِالْمَلِكِ فَلَا  
لَسْتُ مِنْ خِنْدَفٍ إِنْ لَمْ أَنْتَقِمِ  
وَعَدْلُنَاهُ يَبْذُرُ فَاغْتَدَلِ  
قَدْ قَتَلْنَا الْقُرْمَ مِنْ سَادَاتِهِمْ

فلو كان يزيد لحد الآن يحارب الحسين عليه السلام فهل يتجرأ على المساس بشخص النبي، ويقف في وجهه متجاهراً بعدائه لرسول الله صلى الله عليه وآله؟! ثم كيف يكون موقف زينب يا ترى؟! فهل تقف ساكنة تاركة العنان ليزيد لكي يتجرأ بكلامه المخزي الذي لا يُمكن تحمله في حق خليفة رسول الله، أوليبيدي أحقاده الدفينة للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله، ويساوي بينه وبين مُشركي قريش وعتاتها الذين قُتلوا في معركة بدر، جاعلة كلامه مقبولاً ليعتقد به وبصحته أهل الشام؟!!

لا نظنَّ أنَّ زينب عليها السلام تستطيع أن تؤثر السكوت في موقف كهذا، بل كل ما ستقوله عليها السلام فإنما ينبع من تكليفها ووظيفتها الشخصيّة، التي سيحفظها الله لها يوم القيامة. وبحمد الله، فإنَّ هذه المواقف لم تُنمَّحْ كما تُحِثُّ العديد من المُستندات المذهبية الأخرى؛ إذ لم يكن لأية قدرة أن تتمكن من إخماد صوت العقيلة زينب عليها السلام، أو أن تحبسه عن تسجيل آهاته على صفحات التاريخ حاملاً رسالته المحمّدية الأصيلة لكافة مُسلمي العالم.

أم هل يجب على زينب أن تُحرّف الحقيقة وتبدّل كلماتها بكلمات التّجليل والتّملّق ليزيد أو إظهار العجز وطلب الاعتذار منه.

لا يرضى بهذا التّبديل والتّحريف، لا نهج البلاغة لأمير المؤمنين علي عليه السلام، ولا صحيفة السّجادة عليها السلام، ولا خطب الإمام الحسين عليه السلام في طريقه إلى كربلاء أو في يوم عاشوراء، ولا خطب الإمام زين العابدين عليه السلام أو زينب الكبرى، وأم كلثوم وفاطمة بنت الحسين عليها السلام في كُلِّ من الكوفة والشّام والمدينة.

وما دامت المكتبات متواجدة في هذه الدنيا، فإن هذه الكلمات ستبقى خالدة  
 حية أبد الدهر، ممنوعة من التحريف، وغير قابلة للزيادة أو النقصان.  
 إن الله سبحانه وتعالى ليس حافظاً للقرآن من التحريف فحسب، بل هو  
 تعالى حافظ لكل مستند ديني أو مذهبي له ارتباط وثيق بتعاليم القرآن وقيمه،  
 ولذا وجب شكره الجزيل على نعمه التي تفضل بها علينا.

\* \* \*

## الهوامش:

- (١) من الآية ٢٥٧ من سورة البقرة.
- (٢) انظر: الطبري، تاريخ الطبري ٤: ٢٩٨-٢٩٩، ط مؤسسة الأعلمي، بيروت.
- (٣) محمد الحسون وأم علي مشكور، أعلام النساء المؤمنات: ٣٩٣، ط دار الأسوة للطباعة والنشر، إيران.
- (٤) الطبري، تاريخ الطبري ٤: ٣٢٦-٣٢٧، ط مؤسسة الأعلمي، بيروت.
- (٥) المجلسي، المولى محمد باقر، بحار الأنوار ٤٥: ٦٨، ط مؤسسة الوفاء، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٨٣م.
- (٦) المسقلاني، ابن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة ١: ٣٥٥، ط دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.
- (٧) السيد محسن الأمين، لواعج الأشجان: ٢٢٣، ط منشورات بصيرتي، قم، ١٣٣١هـ. والظاهر أن الرواية هي رواية ابن الجوزية في تذكرة الخواص.
- (٨) المجلسي، المولى محمد باقر، بحار الأنوار ٤٥: ٥٨، ط مؤسسة الوفاء، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٨٣م.
- (٩) الطبرسي، الاحتجاج ٢: ٢٩، ط دار التعمان للطباعة والنشر، التجف الأشرف، ١٩٦٦م.
- (١٠) المجلسي، المولى محمد باقر، بحار الأنوار ٤٥: ١١٢، ط مؤسسة الوفاء، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٨٣م.



- (١١) الطَّبْرَسِي، الاحتجاج ٢: ٢٧، ط دار النعمان للطباعة والنشر، التجف الأشرف، ١٩٦٦ م.
- (١٢) القندوزي، يابيع المودة لدوي القُرْبَى ٣: ٨٧-٨٨، ط دار الأسوة للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، ١٤١٦ هـ.
- (١٣) السَّيِّد ابن طاووس، اللّهُوف في قتلى الطّغُوف: ١٠٥، ط أنوار الهدى، قم، إيران، الطبعة الأولى، ١٤١٧ هـ.

## قراءة في وقعة الطف

لأبي مخنف لوط بن يحيى الأزدي الغامدي الكوفي  
تحقيق: الشيخ محمد هادي اليوسفي الغروي

□ إعداد: أحمد عبد الله أبو زيد

يوم العاشر من محرم الحرام من العام الواحد والسّتين بعد الهجرة كانت أرض الطفّ على موعدٍ مع احتضان فلذة رسول الله ﷺ الإمام أبي عبد الله الحسين بن علي عليه السلام، وذلك في أعظم وأفجع حادثة تاريخيّة خلّدها تاريخ البشريّة بهذا الشّكل حتّى يومنا هذا، على الرّغم من محدوديّتها زمنيّاً وجغرافيّاً؛ فلا هي حرب داحس والغبراء بامتدادها التّاريخي الذي أقصّ مضاجع الجاهليّة الأولى لسنواتٍ طوال، ولا هي حربٌ قادتها الجيوش المدجّجة ودارت رحاها في عاصمةٍ من عواصم العالم الإسلامي، ليكون العاملان الزّمني والجغرافي السّبب في بقائها ذكراً تلهج به الألسن على مرّ السّنين، وإنّما هي المظلوميّة الصّادقة، والرّساليّة الصّارخة التي ستبقي هذه الواقعة إلى قيام الساعة مصدر إلهام، ومشعلاً يستنير به طلاب الحق.

لم تكن المواجهة في كربلاء كما قلنا تمك من عناصر البقاء الإعلامي بحسب الموازين الطبيعيّة ما يؤهلها للعيش في ذاكرة التّاريخ، إلّا أنّ رساليّتها الفريدة

ضَحَّتْ فِيهَا مِنْ عُنَاصِرِ الدِّيمُومَةِ وَالْخُلُودِ مَا جَعَلَهَا أَحَادِيثَ تَتَنَاقَلُهَا الشَّفَاهُ وَالْأَلْسُنُ جِيلًا بَعْدَ جِيلٍ؛ فَإِنَّ التَّارِيخَ لَمْ يَسْجُلْ لَنَا مِنْ شَهِدِ الْوَاقِعَةِ وَدَوَّنَ أَحْدَاثَهَا فِي مَصْنَفٍ يُمْكِنُ أَنْ يَلْعَبَ دَوْرَ الْمَرْجِعِ وَالْمَلَاذِ فِي هَذَا الْبَابِ.

وَلَعَلَّ أَوَّلَ مَنْ بَذَرَ فِي هَذِهِ الْأَرْضِ حَوْلَ مَقْتَلِ الْإِمَامِ الْحُسَيْنِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) الْأَصْبَغُ بْنُ نَبَاتَةَ أَحَدَ خُلَصِّ أَصْحَابِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ)؛ فَقَدْ رَوَى الدَّوْرِي عَنْهُ مَقْتَلَ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ (عَلَيْهِ السَّلَامُ)، عَنْ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدَ بْنِ سَعِيدٍ، عَنْ أَحْمَدَ بْنِ يُونُسَ الْجَعْفِيِّ، عَنْ مُحَمَّدَ بْنِ يَزِيدَ النَّخْعِيِّ، عَنْ أَحْمَدَ بْنِ الْحُسَيْنِ، عَنْ أَبِي الْجَارُودِ عَنْ الْأَصْبَغِ<sup>(١)</sup>.

وَمَنْ تَلَاهَ وَصُتِفَ أَثَرُهُ فِي كُتُبِ الْفَهَارِسِ تَحْتَ عُنْوَانِ (مَقْتَلِ الْحُسَيْنِ) إِبْرَاهِيمَ بْنِ مُحَمَّدَ بْنِ سَعِيدَ بْنِ هَلَالِ بْنِ عَاصِمَ بْنِ سَعْدَ بْنِ مَسْعُودِ الثَّقَفِيِّ، وَهُوَ عَمُّ الْمُخْتَارِ الثَّقَفِيِّ الَّذِي وَلَّاهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) الْمَدَائِنَ<sup>(٢)</sup>.

وَمِنْهُمْ: جَابِرُ بْنُ يَزِيدَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ (ت ١٢٨ هـ)<sup>(٣)</sup>. وَمِنْهُمْ: عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنُ يَحْيَى بْنِ أَحْمَدَ بْنِ عَيْسَى الْجَلُودِيِّ الْأَزْدِيِّ الْبَصْرِيِّ<sup>(٤)</sup>. وَمِنْهُمْ: بَعْدَ الْمَتِينِ إِبْرَاهِيمُ بْنُ إِسْحَاقَ أَبُو إِسْحَاقَ الْأَحْمَرِيُّ التَّهَاجُوتِيُّ، وَكَانَ ضَعِيفًا فِي حَدِيثِهِ مَتَهُومًا<sup>(٥)</sup>. وَمِنْهُمْ: مُحَمَّدُ بْنُ زَكْرِيَّا بْنِ دِينَارٍ (ت: ٢٩٨ هـ)<sup>(٦)</sup>. وَمِنْهُمْ: مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ يَحْيَى بْنِ عِمْرَانَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَعْدَ بْنِ مَالِكِ الْأَشْعَرِيِّ الْقُمِّيِّ<sup>(٧)</sup>.

وَمِنْهُمْ: مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى أَبُو جَعْفَرٍ الْعَطَّارُ الْقُمِّيُّ<sup>(٨)</sup>. وَمِنْهُمْ: مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ الْفَضْلِ<sup>(٩)</sup>. وَمِنْهُمْ: نَصْرُ بْنُ مَزَاحِمٍ الْمَنْقَرِيِّ الْعَطَّارِ<sup>(١٠)</sup>. وَمِنْهُمْ: هِشَامُ بْنُ مُحَمَّدَ بْنِ السَّائِبِ<sup>(١١)</sup>. وَمِنْهُمْ: سَلْمَةُ بْنُ الْخَطَّابِ الْبَرَاوِسْتَانِيَّ<sup>(١٢)</sup>. وَمِنْهُمْ: عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدَ الْمَدَائِنِيِّ<sup>(١٣)</sup>. وَمِنْهُمْ: عَبْدِ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدَ بْنِ أَبِي الدُّنْيَا<sup>(١٤)</sup>. وَمِنْهُمْ: مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ مُوسَى بْنِ بَابُوَيْهِ الْقُمِّيِّ<sup>(١٥)</sup>. وَمِنْهُمْ: مُحَمَّدُ بْنُ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ الطُّوسِيِّ (شَيْخُ الطَّائِفَةِ)<sup>(١٦)</sup>. كَمَا نَسَبَ الْمَقْتَلَ إِلَى بَعْضِهِمْ، كَعِمَارَةَ بْنِ زَيْدِ أَبِي زَيْدِ الْخِيَوَانِيِّ

الْهَمْدَانِيِّ<sup>(١٧)</sup>.

### المقتل المتداول المعروف بـ (مقتل أبي مخنف)

من أشهر المقاتل التي تناولت فاجعة كربلاء ما كتبه لوط بن يحيى بن سعيد بن مخنف بن سالم الأزدي الغامدي أبو مخنف (ت ١٥٧ هـ) الذي سجّلت له كتب الفهارس مقتلًا للحسين عليه السلام <sup>(١٨)</sup>، وكان لوط هذا «أحد أئمة هذا الشأن» على ما أطبق عليه أرباب السّير وجاء في كلام ابن كثير في (البداية والنهاية) <sup>(١٩)</sup>، والذي ذكر في موضع آخر أنّه «كان شيعيًا، وهو ضعيف الحديث عند الأئمة، ولكنّه أخباريٌّ حافظ، عنده من هذه الأشياء ما ليس عند غيره، ولهذا يترامى عليه كثيرٌ من المصنّفين في هذا الشأن بمن بعده، والله أعلم» <sup>(٢٠)</sup>.

وكان نصيب النصّ الأصلي لمقتل الحسين عليه السلام الذي صنّفه أبو مخنف الضّبياع في جملة ما ضاع من تراث الأسلاف. ويحتمل السيّد حسن الأمين أنّ متنه الأصلي ظلّ موجوداً حتّى حدود القرن الرابع الهجري؛ لأنّه يبدو أنّ الطّبري كان ينقل عنه دون واسطة. كما يحتمل السيّد الأمين ومن خلال بعض القرائن كون هذا الكتاب من منتجات الدّورة الصّفويّة <sup>(٢١)</sup>.

وقد بدا للسيّد الأمين أنّ مقتل أبي مخنف المتداول طبع للمرّة الأولى في طهران عام ١٢٧٥ هـ بخط محمّد رضا الخوانساري، وبرفقة (اللهوف) و(مهيّج الأحزان)، وكانت طبعته حجرية <sup>(٢٢)</sup>. كما ويبدو أنّه تُرجم مرّة إلى الأردو، ومرّتين إلى اللّغة الفارسيّة: أولاً: عام ١٣٢٢ بقلم محمّد طاهر بن محمّد باقر الموسوي الدّزفولي، ومعه كتاب (أخذ الثّار في أحوال المختار) المنسوب إلى أبي مخنف، ووقع ذلك في (٢٤٠) صفحة. والثّانية: عام ١٤٠٥ هـ مع ملحق (أخذ الثّار في أحوال المختار) في (٣١٧) صفحة، ونُشر بواسطة ناشرٍ متنفّع، وقد عنون هذا النّاشر اسم الكتاب على أنّه (أوّل تاريخ لكربلاء). وتحتوي هذه التّرجمة على مقدّمة من ثلاث عشرة صفحة، وقد ذُكرت فيها أحاديث العظماء حول أبي مخنف، ولكنّها لم تُشر من قريبٍ أو بعيدٍ إلى تزيف واختلاق هذا

المقتل، مع أنه قد أوردت فيها في صفحات (١٢) و(١٣) أحاديث الشيخ  
الثوري والشيخ عباس القمي رحمهما الله حول هذا المقتل، وهما من المصرحين بوقوع  
التحريف فيه <sup>(٢٣)</sup>.

**اتفاق المحققين على وقوع التحريف في مقتل أبي مخنف المتداول**  
ربما ينتهي المستبصّر لكلمات أهل الفن إلى الاطمئنان بتعرّض المقتل الذي صنّفه  
أبو مخنف لوط بن يحيى الأزدي للدسّ والتزوير.

فها هو الميرزا الثوري رحمته الله صاحب (المستدرک) - وهو أحد كبار أهل الفن -  
يقول ما مضمونه: «أبو مخنف لوط بن يحيى: من كبار المحدثين، ومعتمد لدى  
أرباب السير والتاريخ. ومقتله في منتهى الاعتبار، وهذا هو رأي كبار العلماء.  
إضافة إلى ملاحظة المقتل وسائر آثاره الأخرى، ولكن بما يؤسف له أن النسخة  
الحالية من العيوب لمقتله غير موجودة، وأمّا المقتل الموجود الذي يُنسب إليه  
فهو مشتمل على بعض المواضيع المحرّفة والمخالفة لأصول المذهب، والتي عمد  
إلى دسّها المخالفون المغرضون والأصدقاء الجاهلون، وما الهدف منها إلا  
أغراض السوء. ومن ثمّ فلا اعتبار لهذا الكتاب، وهو ساقط عن الاعتماد، ولا  
يوثق بما ورد فيه... وقد قام الشيخ خلف آل عصفور بتحمّل المشاق في بعض  
رسائله - التي كانت جواباً لثلاثين مسألة - لإظهار المآخذ على هذا الكتاب  
والأمور التي تخالف أصول المذهب، ولكن لا نحسب أن مثل هذه الأمور  
خافية على المتأمل، وليس من وراء هذه المشاق إلاّ الجهد والنصب» <sup>(٢٤)</sup>.

وهو ما يراه المحدث القمي رحمته الله أيضاً؛ إذ كتب في (هدية الأجيال) ما نصّه:  
«لو كان مقتل أبي مخنف موجوداً لكان غايةً في الاعتبار، كما يُعرف ذلك من  
كبار العلماء الماضين، ولكن مع بالغ الأسف فإن أصل هذا المقتل قد فقد بمرور  
الأيام كما هو شأن مقتل الكليني والمدائني وأمثالهما، ولم يصلنا منها شيء. وأمّا

هذا المقتل الموجود الذي طُبع في آخر كتاب (البحار) والذي ينسب إلى أبي مخنف، فهو ليس منه ولا يعرف من أين أتى»<sup>(٣٥)</sup>.

ويقول في موضع آخر: «وأما المقتل الذي بأيدينا ويُنسب إليه فليس له، بل ولا لأحد من المؤرخين المعتمدين، ومن أراد تصديق ذلك فليقابل ما في هذا المقتل وما نقله الطبري وغيره عنه حتّى يعلم ذلك، وقد بينت ذلك في (نفس المهموم) في طرمّاح بن عدي، والله العالم»<sup>(٣٦)</sup>.

وقريبٌ منه ما ذكره السيّد عبد الحسين شرف الدين رحمته الله حيث قال: «ولا يخفى أنّ الكتاب المتداول في مقتله عليه السلام المنسوب إلى أبي مخنف قد اشتمل على كثير من الأحاديث التي لا علم لأبي مخنف بها، وإنّما هي مكذوبةٌ على الرَّجل، وقد كثرت عليه الكذّابة، وهذا شاهدٌ على جلالته»<sup>(٣٧)</sup>.

ويُمنّ تعرّض لتحريف هذا المقتل السيّد محسن الأمين رحمته الله في (أعيانه) أثناء حديثه عن الحرّ بن يزيد الرياحي رحمته الله، حيث تطرّق لبعض ما يرتبط بكتاب أبي مخنف الذي عبّر عنه بـ«المنسوب»، مصرّحاً بأنّه المطبوع مع الجزء العاشر من (البحار)، والمطبوع كذلك في (بمبي). وقد تعرّض هناك لجملة من الأمور التي تتعلّق بالحرّ بن يزيد لم تعلم صحتها أو علم بطلانها، مثل نسبة الأبيات الميمية التي قالها عبّيد الله بن الحرّ الجعفي إليه، وأولّها:

يقول أمير غادر حق غادر      ألا كنت قد قاتلت الشهيد بن فاطمة  
إلى نهاية (١٥) بيتاً مع تغيير البيت الأوّل إلى قوله:

أكون أميراً غادراً وابن غادر      إذا كنت قد قاتلت الحسين بن فاطمة  
و تغيير بعض أبياتٍ آخر وإنقاصها إلى تسعة أبيات.

ثمّ مثل السيّد الأمين بمجموعة من الأبيات المنسوبة إلى الحرّ الرياحي، ثمّ قال: «ولمّا تأملتُ بعض هذا المقتل المطبوع المنسوب إلى أبي مخنف علمتُ أنّه ليس لأبي مخنف وأنّه منه بريء، وإنّما ألفه رجلٌ ونسبه إلى أبي مخنف. وربما

يكون فيه شيءٌ من مقتل أبي مخنف، بأن يكون هذا الرَّجل عمد إلى مقتل أبي مخنف فمسخه وغيره وحرّفه تحريفاً قبيحاً، فزاد عليه ونقص منه وغيرَ وبدّل. وأبو مخنف من رؤساء أهل الأخبار، وكُلُّ من ألّف في التّاريخ نقل عنه وأخذ منه، وأكثر ما في هذا المقتل لا يمكن صدوره من أبي مخنف. فالآبيات الميمية هي لعبيد الله الحر الجعفي كما ذكره جميع المؤرّخين، منهم ابن الأثير في (الكامل) في حوادث سنة ٦٨، ومنهم أبو مخنف نفسه فيما حكاه صاحب (خزانة الأدب) عن أبي سعيد السّكّري عن أبي مخنف، والآبيات نفسها تشهد أنّها ليست للحر...» (٢٨).

### مستند القول بوقوع التّحريف في المقتل المتداول

ثمّة أمورٌ كثيرةٌ ساهمت في دفع العلماء والمحقّقين نحو القول بوقوع التّحريف في المقتل المتداول المنسوب إلى أبي مخنف:

منها: أنّه بعد أن شاع ذكر هذا المقتل وتمّ الاعتماد عليه؛ نظراً للمكانة الخاصّة التي يحظى بها مصنّفه لدى المؤرّخين وأرباب السّير، كان من المحطّات الرّئيسيّة الملفتة للنّظر أنّنا إذا قارنا بين ما جاء في تاريخ الطّبري نقلاً عن الأزدي - والذي روى عنه الطّبري بنحو يُشعر بأنّ كتابه (المقتل) كان بين يديه - وبين ما هو موجودٌ في المقتل المتداول، لوجدنا اختلافاً فاحشاً على الرّغم من التّقاطع والاشتراك في بعض المحطّات، وهو ما أسلفنا نقله عن الشّيخ عبّاس القمّي رحمته الله، فعلى سبيل المثال:

١ - إسناد الطّبري لروايات أبي مخنف، حيث يذكر فيها سلسلة الرّواة، بينما لا نرى في هذا المقتل المختلق إلّا الروايات المرسلّة، باستثناء عددٍ قليلٍ منها.

٢ - وجاء فيه: «قُتل الطرمّاح بن عدي بعد أن جندل سبعين بطلاً من جيش عمر بن سعد»، بينما ينقل الطّبري عن أبي مخنف أنّ الطرمّاح لم يكن موجوداً في

كربلاء، ومن ثمَّ فهو لم يقتل فيها.

ومن هذه الأمور أيضاً: أننا إذا قمنا بممارسة عملية نقدٍ لمتن المقتل فستعزّز لدينا فكرة وضعه على أبي مخنف ونسبته إليه. وهذا النقد الذي يمكننا أن نمارسه يُثبت تارةً عدم صحّة نسبة المقتل إلى أبي مخنف، وأخرى يثبت لنا عدم صحّة ما جاء فيه مع قطع النظر عن صحّة نسبته إليه أو عدمها.

#### فمن القسم الأول:

- ١ - ما جاء في أوّل الكتاب: «قال أبو مخنف: حدّثنا أبو المنذر هشام، عن مُحَمَّد بن سائب الكلبي...»، مع أنَّ هشام هو تلميذ أبي مخنف.
- ٢ - جاء في المقتل: «وروى الكليني في حديث...»، مع أنَّ الكليني وُلِدَ بعد وفاة أبي مخنف بما يقارب المائة سنة.

٣ - وجاء فيه: «خاطب الإمام الحسين جمعاً من أهل الكوفة بشأن صلح أخيه الإمام الحسن قائلاً: أقسم بالله أنّي كنتُ تَوَاقُفاً إلى الموت حتّى جاءني أخي الحسن وأقسم عليّ ألاّ أقدم على أمرٍ، ولا أحرّض أحداً، فأطعته وكأني أرى أحدهم يجذع أنفي بسكينٍ، أو ينشر بدني بمنشارٍ؛ ومن ثمَّ فقد أطعته رغم أنفي». وواضحٌ أنَّ هذا الموضوع لا ينسجم مع الأصول الثابتة، ولو كان هذا الموضوع من نتاجات قلم أبي مخنف، لما اكتفى علماء الرُّجال الشيعة بعدم توثيقه، بل لعدّوا ذلك إلى تضعيفه، في حين أنّنا نراهم قد وثّقوه جميعاً<sup>٢٩٣</sup>.

#### ومن القسم الثاني:

- ١ - أنّه جاء في المقتل: «ذكر عمّار في حديثه...»، مع أنَّ عمّاراً قد استشهد في حرب صفين سنة (٣٧) للهجرة، ولم يكن موجوداً عام ستين.
- ٢ - وجاء فيه: «وبعد أن قُتِل العباس وحبيب بن مظاهر، حزن الإمام الحسين عليه السلام واغتمَّ غمّاً شديداً، فعزّاه زهير بن القين وهذا من روعه»، والحال أنَّ زهيراً لم يبقَ بعد العباس.



٣ - كما ذكر اسم (سهل بن سعيد الشهروري) بدلاً عن (سهل بن سعد الساعدي) (٣٠).

### محاولة الشيخ الغفاري لتهديب (مقتل الحسين عليه السلام)

المحاولة الأولى التي جاءت في سياق تهديب مقتل أبي مخنف المتداول كانت للشيخ حسن الغفاري. ووفقاً لما ذكره المؤلف فإن هذا الكتاب عبارة عن مجموعة مستخرجة بما ذكره الطبري عن واقعة كربلاء في تاريخه، وقد تحدث في مقدمة موجزة عن أسلوب استخراجه، وذكر أحوال أبي مخنف وأضاف: «إن هذه المواضيع المثبتة في كتابنا هذا هي نفس المواضيع التي كتبها أبو مخنف، إلا أنها ليست كل ما كتب». وعلى هذا الأساس فإن المؤلف يكون قد أورد ما ذكره الطبري من مواضيع دونها أبو مخنف مباشرة أو نقلها هشام عنه.

ويمكن أن يؤخذ على مثل هذا الاستخراج:

أولاً: عدم وجود قطع بأن كل ما يذكره هشام هو عن مقتل أبي مخنف، فربما يكون هشام قد سمع حديثاً عن أبي مخنف لم يكن الأخير قد أثبت في مقتله.

ثانياً: أنه ذكر كل ما وجده عن هشام، والحال أن بعض هذه المواضيع غير منقولة عن أبي مخنف: ١ - فعلى سبيل المثال ورد في صفحة ٢٢: «قال هشام: قال عوانة...»، وكذلك في صفحات ٩٥، ٢٢٠، ٢٢٨ حيث ينقل هشام عن عوانة بن الحكم - أستاذه الثاني - ولكنها تنسب إلى أبي مخنف. ٢ - وفي صفحة ١٨٧، ينقل هشام عن أبي الهذيل. ٣ - وكذلك في صفحة ٢٣٠ ينقل هشام: «حدثني بعض أصحابنا...». ٤ - وفي صفحة ٢٣١: «حدثني عمرو بن حيزم الكلبي...» وغيرها.. وكلها قد نسبت إلى أبي مخنف. ٥ - وأهم من هذا كله ما ورد في صفحة ٢٨، حيث الحديث عن عمر بن شبة المتوفى عام ٢٦٢، ولم يلتفت المستخرج فنسبها إلى أبي مخنف، بينما الأخير قد توفي قبل ولادة عمر بن

### محاولة الشُّنخ مُحَمَّد هادي اليوسفي الغروي

والمحاولة الأخرى التي تلت هذه المحاولة كانت للمحقق الشُّنخ مُحَمَّد هادي اليوسفي الغروي، صاحب (موسوعة التاريخ الإسلامي) التي صدر منها لغاية اليوم أربعة أجزاء، وقد صرَّح السيّد حسن الأمين بأنَّ هذا الكتاب يحظى بقيمة أكثر من الكتاب الذي ذكرناه آنفاً<sup>(٣٢)</sup>. وقد حملت محاولته عنوان (وقعة الطَّف لأبي مخنف لوط بن يحيى الأزدي الغامدي الكوفي المتوفى سنة ١٥٧هـ.ق)، وصدر الكتاب في طبعته الثانية المزيّدة والمنقَّحة عن المجمع العالمي لأهل البيت (عليه السلام)، وقد وقع في (٣٣٤) صفحة.

وقد قدّم المحقّق اليوسفي كتابه هذا بمقدِّمة وافية تعرّض فيها لجملة من مهمّات المسائل المرتبطة بأبي مخنف ومقتله، نعرضها وندرسها ضمن نقاط:

- ١ -

#### تقدّم أبي مخنف في تدوين التاريخ<sup>(٣٣)</sup>

فبعد حديثه عن بداية تدوين التاريخ لدى المسلمين وسبق الشيعة سائر المسلمين في هذا المضمار، وانتهائه إلى اعتبار مُحَمَّد بن السائب الكلبي (١٤٦هـ) وأبي مخنف لوط بن يحيى الأزدي (١٥٧هـ) وهشام الكلبي (٢٠٦هـ) من مصادر التاريخ الإسلامي، يتنقّل إلى صلب الموضوع محلّ البحث، متحدّثاً عن سبق أبي مخنف إلى التاريخ لواقعة الطَّف، واعتماد غالب من كتب عنها على ما صنّفه هو في هذا المجال. فالروايات التي رواها أبو مخنف تارةً يحفظها التاريخ نقلاً عنه مباشرة، وأخرى تنقل لنا عن تلميذه هشام بن مُحَمَّد بن السائب الكلبي الكوفي النسابة (٢٠٦هـ)، والذي تتلمذ - إلى جانب أبي مخنف - على عوانة بن الحكم (١٥٨هـ)، ولهذا نجد من روايات كربلاء ما يرويه الكلبي عن

ابن الحكم لا عن أبي مخنف.

- ٢ -

### عمر المصنّفات التاريخيّة لأبي مخنف<sup>(٣٤)</sup>

قبل أن يركّز المحقّق على وقوع التّحريف في المقتل المتداول المنسوب إلى أبي مخنف، يحاول تحديد الوقت الزّمني الذي كانت فيه مصنّفات أبي مخنف لا تزال موجودة ومتوفّرة بين أيدي المؤرّخين. وقد سبق أن أشرنا إلى اعتقاد السيّد حسن الأمين - ومن خلال مجموعة من القرائن - ببقاء المقتل إلى القرن الرّابع الهجري، إلّا أن محقّقنا يذهب إلى أبعد من هذا - وإن كان ذلك بلحاظ مؤلّفاته التاريخيّة بشكل عام لا خصوص المقتل - فقد استطاع أن يتتبّع المصادر التي يظهر منها النّقل المباشر عن أبي مخنف، فبدأ بالواقدي (٢٠٧هـ)، مروراً بالطّبري (٣١٠هـ) وابن قتيبة (٣٢٢هـ) وابن عبد ربّه الأندلسي (٣٢٨هـ) والمسعودي (٣٤٥هـ) والشّيخ المفيد (٤١٣هـ) والشّهرستاني (٥٤٨هـ) والخوارزمي (٥٦٨هـ) وابن الأثير (٦٣٠هـ) وابن الجوزي (٦٥٤هـ).. وانتهاءً بأبي الفداء في تاريخه (٧٣٢هـ).

- ٣ -

### النّسخة الأصليّة لمقتل أبي مخنف غير المحرّف<sup>(٣٥)</sup>

ذكرنا سابقاً أن نصيب النّصّ الأصلي لمقتل الحسين عليه السلام الذي صنّفه أبو مخنف كان الصّياح في جملة ما ضاع من تراث الأسلاف. كما أشرنا إلى احتمال السيّد حسن الأمين كون المقتل المتداول من منتجات الدّورة الصّفويّة، وإلى أنّه طبع للمرّة الأولى في طهران عام ١٢٧٥هـ بخطّ محمّد رضا الخوانساري، وبرفقة (اللّهوف) و(مهتج الأحزان)، وكانت طبعته حجرية.

وفي هامش من هوامش المقدّمة يُشير المحقّق إلى أنّه عثر على رسالة (الشّدرات الدّهية في تراجم الأئمّة الاثني عشر عند الإماميّة) لابن طولون

بتحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد، الذي ذكر في مصادر التحقيق مخطوطة المقتل من ميكروفيلم رقم (٢٣٣ ف) بمكتبة الأمبروزيانا في ميلانو بإيطاليا. ثم علق على ذلك بأنه لم يحصل عليه - أي المقتل - فلا يعلم هل هو الصحيح أم المحرف<sup>(٣٦)</sup>.

ونضيف إلى كلام المحقق اليوسفي أننا وجدنا السيد محمد حسين الحسيني الجلاي يذكر في (فهرس التراث) تحت عنوان (مقتل الحسين عليه السلام الصحيح) أن هذا المقتل طبع بتحقيق عبد المولى الطرمي في دار الكتب التجارية بالنجف سنة ١٣٦٩ هـ وله نسخ مخطوطة: منها في قسم التاريخ في المكتبة الظاهرية بدمشق عنوانها (هذا مصرع الحسين لأبي مخنف لوط بن يحيى ١٥٧)، والنسخة مخرومة وهي برقم (٤٣٠٣). ونسخة في دار الكتب المصرية بالقاهرة برقم (٢١٦٨) «صورتها»، ونسخة بعنوان مقتل الحسين لأبي مخنف لوط بن يحيى الأزدي في مكتبة إمبروزيانا - ميلانو برقم (٢٣٣)، «صورتها»؛ وميكروفيلم منها في معهد المخطوطات<sup>(٣٧)</sup>.

والآفت للنظر أن السيد الجلاي عَنُون هذا المقطع بعنوان (مقتل الحسين عليه السلام الصحيح)، وكأنه احتراز منه عن المقتل المحرف المتداول، كما أنه أشار إلى تصويره النسخة المودعة في مكتبة إمبروزيانا بإيطاليا، وهي النسخة التي تعرض لها المحقق اليوسفي في ما نقلناه عنه مؤخراً.

- ٤ -

أقدم من ينقل عن المقتل غير المحرف<sup>(٣٨)</sup>

بعد ذلك يحاول المحقق اليوسفي تعيين أقدم المصادر التي نقلت أحاديث أبي مخنف بواسطة تلميذه الكلبي (ت ٢٠٦ هـ)، فانتهى إلى أنه الطبري صاحب التاريخ المعروف (ولد ٢٢٤ هـ)، وهو يرويه - كما يلاحظ من تاريخ وفاة الأول وولادة الثاني - بالواسطة لا بالمباشرة، إضافة إلى مورد من التاريخ يقول فيه

الطبري: «هكذا وجدته في كتابي...»<sup>(٣٩)</sup>.

وإذا لاحظنا أن ما أودعه الطبري في تاريخه كان عن الكلبي كما تقدّم، فهذا يعني أن الموجود لدى الطبري - وربما غيره - لم يكن كتابات أبي مخنف نفسه، وإنما روايات تلميذه الكلبي عنه.

- ٥ -

#### إنجاز المحقق في تطبيق روايات الطبري والمفيد<sup>(٤٠)</sup>

بعد الانتهاء إلى أن الطبري هو أقدم متني اعتمد روايات الكلبي نقلاً عن أستاذه أبي مخنف، يحاول المحقق اليوسفي الوقوف على مصادر أخرى قديمة اعتمدت على المصدر نفسه، وذلك ليتسنى له التأكد من صحة الاعتقاد بأن المودع في الطبري هو من روايات أبي مخنف واقعاً. وقد استطاع المحقق رصد ما نقله الشيخ المفيد<sup>(٤١)</sup> (٤١٣) ثم سبط ابن الجوزي (٦٥٤) عن أبي مخنف، وبعد مقارنة هذين المصدرين مع ما جاء في الطبري، وجد المطابقة شبه التامة بين هذه المصادر الثلاثة، وهذا يعني بحساب الاحتمال أن هذه المصادر قد اعتمدت فعلاً على المصدر نفسه، وهذا يعزّز من مقولة بقاء الكتابات غير المحرفة لأبي مخنف أو تلميذه الكلبي إلى ذلك الزمان.

وكانت هذه الخطوة من أكثر الخطوات التي استطاع المحقق تسجيلها في هذا الكتاب توفيقاً.

- ٦ -

#### ترجمة أبي مخنف

أولاً: حول نسبه<sup>(٤١)</sup>

شرع المحقق اليوسفي - ووفق العادة الجارية بين المحققين - بترجمة صاحب الكتاب «لوط بن يحيى بن سعيد بن مخنف الأزدي»، وقد أحصى أولاً ما جاء عنه في الأصول الرجالية الشيعية، مورداً تخطئة الشيخ الطوسي لما جاء في رجال

الكثبي من وقوع لوط بن يحيى في طبقة من روى عن أمير المؤمنين عليه السلام. ومع مصادقته على تخطئة الكثبي، إلا أن محققنا يتعب نفسه في التدليل على فساد ما صحَّح به الشيخ الطوسي رحمته الله مزاعم الكثبي رحمته الله عندما ذهب - أي الطوسي - إلى أن الصحيح لقاء يحيى الأزدي أمير المؤمنين عليه السلام لا ولده لوط، حيث استطاع المحقق من خلال مجموعة من القرائن القويّة المبعثرة في مطاوي الكتب الانتهاء إلى أن الذي كان من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام هو جدّه سعيد لا والده يحيى.

#### ثانياً: حول مصنفاته<sup>(٤٢)</sup>

بعد تعداده مصنفات أبي مخنف اعتماداً على كتب الفهارس، يلاحظ المحقق اليوسفي اهتمام الأزدي بأخبار الشيعة، وبأخبار الكوفة على وجه الخصوص، كما لاحظ خلوّ كتبه من تناول أخبار بني أميّة، أو بني مروان، أو أبي مسلم الخراساني أو بني العباس، على الرّغم من أنّه عمّر بعدهم، وأنّ الطّبري ينقل عنه أخباراً إلى أواخر أيام الأمويين، وبالتّعين إلى حوادث سنة ١٣٢ هـ. وفي لفظة أخرى، يلاحظ المحقق كثرة نقل أبي مخنف عن أبيه أو عمّه أو بني عمومته أو أشياخه من حيّ الأزدي من الكوفيّين، بماّ يعني وفرة الأخبار بينهم واهتمامهم بهذا الجانب عموماً. ولهذا عدّ أبو مخنف أعلم بأخبار أهل الكوفة من غيره.

أمّا في ما يتعلّق بمقتله حول الإمام الحسين عليه السلام، فيستشهد المحقق بنصّ لأبي مخنف حول دخول مسلم بن عقيل دار المختار بن أبي عبيد الثقفي حيث يقول: «وهي التي تدعى اليوم دار مسلم بن المسيّب»، فحيث كان مسلم هذا في سنة ١٢٩ هـ عاملاً لابن عمر على شيراز، فالذي يبدو أنّ أبا مخنف صنّف مقتله في حدود الثلاثين بعد المائة. ويحتمل المحقق وقوف العباسيين وراء تصنيف أبي مخنف، وذلك لتأييد دعوتهم، ثمّ بعد ذلك تركوه كما تركوا أهل البيت عليهم السلام.

ثالثاً: مذهبه ووثاقته

لم يجد المحقق أنَّ أبا مخنف روى عن غير الإمام الصادق عليه السلام بلا واسطة، ولم يرو عن الصادق عليه السلام بلا واسطة إلا بضع روايات. ومع أنَّه عمَّر ما يقرب من عشر سنوات بعد وفاة الإمام الصادق عليه السلام، إلا أنَّه لم يرو عن الإمام الكاظم عليه السلام. وبعد أن ينقل نصوصاً لأهل السُّنة ينسبون فيها أبا مخنف إلى التَّشيع، يلفت المحقق النَّظر إلى أنَّ أئمة الرِّجال وصفوه بأنَّه «شيخ أصحاب الأخبار» لا «شيخ أصحابنا». ثُمَّ يخلص بعد ذلك إلى أمرين:

أحدهما: صحَّة ما ذهب إليه النَّجاشي عندما نفى أن يكون أبو مخنف قد روى عن الإمام الباقر عليه السلام.

والثَّاني: عدم كون أبي مخنف شيعياً بالمعنى الخاص للكلمة - وهو ما يصطلح عليه عند العامة بالرَّافضي - بل كان شيعياً في الرَّأي والهوى فحسب، شأنه في ذلك شأن أكثر الكوفيِّين غير رافضي لمذهب عامَّة المسلمين آنذاك. وربما أيد ذلك عدم رميه من قبل العامة بالرَّفَض، بل بالتَّشيع، المراد منه في مصطلحهم مجرَّد الميل إلى أهل البيت عليه السلام لا اتِّباعهم في المذهب. وقد استشهد بنصِّ لابن أبي حديد المعتزلي ينفي فيه التَّشيع عن أبي مخنف، وينفي كونه معدوداً من رجالات الشيعة. وقد وفَّق المحقق بين آراء العامة وبين رأي ابن أبي الحديد بأنَّ ما يثبت له من خلال آراء العامة هو الميل نحو أهل البيت عليه السلام، والمنفي عنه في كلام ابن أبي الحديد كونه من الشيعة بالمعنى الخاص، أي بمعنى المتبع.

والنتيجة النَّهائية للمحقق هي الاعتماد على أخباره، وما وصف هذه الأخبار في جملة من المصادر الرِّجالية بالחסان إلا بسبب الاعتماد عليها<sup>(٤٣)</sup>.

ويمكن أن نضيف إلى نصوص المحقق الشَّاهدة على رميه من قبل أهل السُّنة بالتَّشيع ما جاء في (البداية والنهاية) لابن كثير، فقد ذكر في مورد: «رواه ابن جرير عن أبي مخنف وغيره من رواة الشيعة»<sup>(٤٤)</sup>، إضافةً إلى ما

قدّمناه سابقاً عن ابن كثير حيث قال في أبي مخنف: «كان شيعياً، وهو ضعيف الحديث عند الأئمة، ولكنّه أخباريٌّ حافظ، عنده من هذه الأشياء ما ليس عند غيره، ولهذا يترامى عليه كثيرٌ من المصنّفين في هذا الشأن ممّن بعده، والله أعلم»<sup>(٤٥)</sup>. ويقول في موضع آخر: «لم يذكر ابن جرير أنّ مُحَمَّد بن الحنفية ردّ جوابه، مع أنّ ابن جرير قد تقصّى هذا الفصل وأطال شرحه، ويظهر من غبون كلامه قوّة وجده به وغرامه؛ ولهذا توسّع في إيراده بروايات أبي مخنف لوط بن يحيى، وهو متهم فيما يرويه، ولا سيما في باب التشيع، وهذا المقام للشّيعه فيه غرامٌ وأيّ غرام؛ إذ فيه الأخذ بثأر الحسين وأهله من قتلهم والانتقام منهم»<sup>(٤٦)</sup>.

ويبقى جانبٌ تعرّض له السيّد حسن الأمين في محاولة للدّب عن تشيع أبي مخنف بعد أن أمكن استفادة تسنّته من خلال جملة من الموارد:

فمنها: ما تقدّم ذكره عن ابن أبي الحديد، حيث نفى عنه التشيع في قوله: «ليس من الشّيعه ولا معدوداً من رجالها»<sup>(٤٧)</sup>. وقد دفعه السيّد الأمين بأن ابن أبي الحديد ليس من المختصّين في علم الرّجال. إلّا أنّ جمع المحقّق اليوسفي بين إفادة ابن أبي الحديد وبين إفادات غيره ألطف وأمتن.

ومنها: أنّ الشّيخ المفيد<sup>(٤٨)</sup> يقول في آخر كتاب (الجمال): «فهذه جملةٌ من أخبار البصرة وسبب فتنها ومقالات أصحاب الآراء في حكم الفتنة بها، وقد أوردناها على سبيل الاختصار وأثبتنا ما أثبتنا من الأخبار عن رجال العامة دون الخاصة، ولم نثبت في ذلك ما روته الشّيعه في إنكاره؛ إذ كان الغرض فيما أوردناه في هذا الكتاب تفصيل فتنة البصرة وما جرى فيها من القتال والفعال والإبانة عن عناد القوم لأمير المؤمنين<sup>(٤٩)</sup>، والقصد لحربه، وسفك دمه من غير شبهة في أمره ولا عذر فيما صاروا إليه من خلافه، ولنوضح فيما تضمّنته الأخبار في بطلان مقال من ادّعى للقوم التّوبة من فرطهم الضّلال لحرب أمير المؤمنين<sup>(٥٠)</sup>



وفساد مذهب من ذهب إلى ذلك من المعتزلة والمرجئة والحشوية»<sup>(٤٨)</sup>.

وقد وجّه السيّد الأمين كلام الشيخ المفيد<sup>(٤٩)</sup> بأنّه في مقام الجدل، باعتبار أنّه يريد الاستفادة من ذلك لغايته، ومن ثمّ لا يمكن الاستناد إليه، وأفضل دليل على ذلك أنّه نقل في كتابه المذكور عن المسعودي صاحب (مروج الذهب)، والحال أنّ أصحاب الرجال و مترجمي سيرته يعدّونه من الشيعة.

ومنها: عدّ العلامة المجلسي في (البحار) مقتل أبي مخنف ضمن مصنفات المخالفين التي اعتمد عليها<sup>(٥٠)</sup>. وقد ردّ السيّد الأمين ذلك بأنّ كلام المجلسي لم يكن صادراً عن تفحص أو تحقيق، ومن ثمّ لا يمكن الاستناد إليه. إضافة إلى أنّه يمتدحه في موضع آخر.

ومنها: نقل بعض الأمور عنه ممّا لا يتفق مع عقائد وآراء الشيعة، فمثلاً ينقل عنه ما يلي: عندما أبلغ الوليد - عامل يزيد في المدينة - خبر موت معاوية إلى الإمام الحسين<sup>(٥١)</sup> قال: «إنا لله وإنا إليه راجعون، رحم الله معاوية وعظم الله لك الأجر»<sup>(٥٢)</sup>.

وقد دفع السيّد الأمين ذلك بأنّ أصل الكتاب غير متوفّر لدينا لنعلم حقيقة الأمر، وهل أنّ ما ينقل عنه صادر عنه بحق أم هو من إضافات النّاقلين. إضافة إلى ذلك، فإنّه نقل الحوادث - على غرار جميع رواة الحوادث - عن الآخرين، ومن ثمّ فهو غير ضامن لصحتها. وإلى جانب ذلك كلّه فإنّ مثل هذا النّقل دليل على حفظ الأمانة، الذي كان سبباً لقبول الفريقين له<sup>(٥٣)</sup>.

هذا وبعض ما أورده في هذه الموارد قابل للمناقشة، ولكنّ ذلك يخرجنا عن غرض هذه المقالة.

- ٧ -

ترجمة هشام الكلبي<sup>(٥٤)</sup>

وكان لا بدّ للمحقّق من ترجمة هشام بن محمّد بن السائب الكلبي الكوفي

النسابة (٢٠٦هـ) تلميذ أبي مخنف الذي وصلتنا روايات أستاذه نقلاً عنه، والذي ذكر له النجاشي كتاباً في مقتل الحسين عليه السلام يبدو أنه جمع فيه ما يرويه - أو أكثره - في ذلك عن أستاذه أبي مخنف. وقد أشرنا سابقاً إلى أن ما كان بين أيدي المؤرخين ليس ما صنّفه أبو مخنف مباشرة، بل ما نقله عنه تلميذه الكلبي.

أمّا الكلبي هذا، فينقل المحقق اليوسفي نصوصاً تشيد بفضله ودرايته بالأيام - أي بالتاريخ - وبوثاقته والرُّكون إلى أخباره، وإن كان عند شيخ الطائفة من رجال العامة، إلا أن له - بحسب قوله أيضاً - ميلاً ومحبةً شديدة، خاصةً مع ما ينقله النجاشي من أن الإمام الصادق عليه السلام كان يقربه ويدنيه وينشطه.

وإذا كان هذا حال الكلبي عندنا، فليس مختلفاً عنه عند أهل العامة، ولهذا يورد المحقق نصوصاً تشهد بالاعتقاد عليه. ونضيف إلى ذلك ما ذكره ابن الفقيه في (البلدان) حيث عبّر عنه بـ «الثقة المؤتمن.. الذي ملأ الآفاق علماً»<sup>(٥٣)</sup>.

- ٨ -

#### بعض التحريفات الواقعة في المقتل<sup>(٥٤)</sup>

لقد سبق أن نقلنا نصوص كبار المحققين المصرّحة بوقوع التحريف في مقتل أبي مخنف المتداول، ككلام المحدث الثوري، والمحدث القمي، والسيد شرف الدين، والسيد محسن الأمين عليه السلام. كما سبق أن ذكرنا أن ما يمكن توجيهه من نقد إلى المقتل المتداول تارةً يُثبت عدم صحة نسبة الكتاب إلى أبي مخنف، وأخرى عدم صحة ما جاء فيه مع قطع النظر عن نسبته إلى أبي مخنف، وقد مثلنا للقسم الأول بخمسة شواهد، وللثاني بشاهدين. وقد رصد المحقق اليوسفي عشرين نقطة استدّل بها على وضع الكتاب، ووقوع التحريف فيه، ونسبته زوراً إلى أبي مخنف، نوردها في ما يلي باختصار مع محاولة فرزها إلى القسمين المتقدمين:

أمّا القسم الأول:

فمنه (١): ما ذكرناه سابقاً وجاء في أوّل الكتاب: «قال أبو مخنف: حدّثنا أبو

المنذر هشام، عن مُحَمَّد بن سائب الكلبي...»، مع أَنَّ هشام هو تلميذ أبي مخنف.  
ومنه (٢): ما ذكرناه سابقاً كذلك وجاء في المقتل: «وروى الكليني في حديث...»، مع أَنَّ الكليني وُلِد بعد وفاة أبي مخنف بما يقارب المائة سنة.  
ومنه (٣): وقوع التّهافت بين ما جاء في المقتل وبين ما رواه الطّبري عن أبي مخنف حول دخول الحسين عليه السلام مكّة لثلاث خلون من شعبان.

ومنه (١٣): ذكره الطرمّاح في من قتل مع الحسين عليه السلام، مع أَنَّ الطّبري يروي عن الكلبي عن أبي مخنف أَنَّ الطرمّاح لم يحضر إلى كربلاء ولم يقتل معه عليه السلام.  
ومنه (١٤): نسبة أبيات عُبيد الله بن الحرّ الجعفي صاحب قصر بني مقاتل إلى الحرّ الرّياحي مع عدم تناسبها على آية حال مع حال الحر. وقد سبق أن نقلنا تنبيه السيّد محسن الأمين عليه السلام على ذلك في (أعيانه).

ومنه (١٦): نسبته إلى الإمام الحسين عليه السلام أبياتاً صريحة في كونها لشاعر متأخر.

ومنه (١٧): تعيين نزول الحسين عليه السلام في كربلاء يوم الأربعاء وشهادته يوم الإثنين، مع أَنَّ ما جاء في الطّبري نقلاً عن أبي مخنف نفسه هو نزوله بها يوم الخميس.

ومنه (١٨): نسبة أبيات سليمان بن قتّة الهاشمي إلى سهل الشّهرزوري الذي يبدأ بإكثار النّقل عنه ابتداءً من الحديث رقم (١٠٥)، ثُمَّ ينسب خبر سهل بن سعد السّاعدي إلى الشّهرزوري. وقد تعرّض لهذه الإثارة السيّد حسن الأمين أيضاً.

ومنه (١٩): نسبته إلى الإمام الحسين عليه السلام نيّفاً وثلاثين بيتاً ذكر الإربلي أَنَّ أبا مخنف لم يذكرها، فمن أين أتى بها المقتل؟!

ومنه (٢٠): اشتغال المقتل على ألفاظٍ عربيّة باللّغة الدّارجة تنتمي إلى العصور المتأخّرة.

وهناك مجموعة من موارد التَّفَرُّد أوردتها المحقِّق اليوسفي ضمن الشواهد على تحريف المقتل. ويُمكن أن تُرجع ذلك إلى أنَّها لو كانت موجودة في المقتل الأصلي، وكان أبو مخنف مصدراً من أمَّهات المصادر لنقلت عنه في سائر الكتب، ولما تفرَّد بها المقتل المتداول. وهذا يعني أنَّها (صنعت) في مراحل متأخرة:

فمنها (٤، ٥): تفرَّده في حديثين حول مقتل مسلم بن عقيل.

ومنها (٦): تفرَّده بنقل خبر أفراس الإمام الحسين عليه السلام.

ومنها (٧): تفرَّده بنقل حديث الإمام السَّجَّاد عليه السلام ليلة العاشر من المحرم.

ومنها (٨): تفرَّده بذكر عدد عساكر ابن سعد في كربلاء أنَّها ثمانون ألفاً.

ومنها (٩): تفرَّده بإيراد خطبة زهير بن القين.

ومنها (١٠): تفرَّده بنقل حفر الحسين عليه السلام بثرأ.

ومنها (١١): تفرَّده بتكرير حديث ليلة عاشوراء وصبيحتها ثلاث مرَّات.

ومنها (١٢): تفرَّده في أصحاب الحسين عليه السلام بذكر إبراهيم بن الحسين.

أما القسم الثاني:

فمنه (١٥): ما نسبته إلى الإمام الحسين عليه السلام في رثاء الحرِّ مع عدم تناسبه مع

حاله عليه السلام.

#### - ٩ -

#### قوائم الرواة <sup>(٥٥)</sup>

والخطوة الأخيرة والمهمَّة التي أنجزها المحقِّق في تقديمه للكتاب عبارة عن

إعداد قوائم تفصيليَّة للرواة الذين يفصلون أبا مخنف عن الحوادث التي نقلها:

القائمة الأولى: في من شهد الواقعة ونقل عنه أبو مخنف بالمباشرة. وقد عدَّ

فيها ثلاثة أشخاص.

القائمة الثانية: في من شهد المعركة وروى عنه أبو مخنف بواسطة أو

واسطتين. وقد عدّ فيها خمسة عشر شخصاً.  
القائمة الثالثة: في من باشر الأحداث من قبل كربلاء أو بعدها، وحدث أبا  
مخنف بلا واسطة، فيروي أبو مخنف عنه الأحداث بواسطة. وقد عدّ فيها خمسة  
أشخاص.

القائمة الرابعة: في من باشر الأحداث من قبل كربلاء أو بعدها، وروى عنه  
أبو مخنف بواسطة أو اثنتين. وقد عدّ فيها واحداً وعشرين رجلاً.  
القائمة الخامسة: في من لم يشهد الواقعة ولم يباشر الأحداث، وإنّا كان من  
وسائط أبي مخنف إلى أولئك الأشخاص. وقد عدّ فيها تسعاً وعشرين شخصاً.  
القائمة السادسة: في الرواة العدول من أصحاب الأئمة عليهم السلام أو الأئمة  
أنفسهم عليهم السلام الذين لم يشهدوا الواقعة ولم يباشروا الأحداث، ولكنهم لم يحدثوا  
بواسطة أو لم يصّرّحوا بها. وقد عدّ فيها أربعة عشر رجلاً.

- ١٠ -

### الأعمال التّسميَّة

وإلى جانب ما ذكرناه ضمن النّقاط التّسع المتقدّمة، كان للمحقّق اليوسفي  
إنجازٌ قد لا يقلّ عما سبق أهميّة أودعه في بطن الكتاب، وربما أمكننا أن نُجمله  
ضمن المسائل التّالية:

- ١ - إضافة العناوين الرئيسيّة والفرعيّة المناسبة.
- ٢ - إثبات أسانيد الطّبري عند بدايات النّقل.
- ٣ - توثيق معلومات الكتاب من المصادر التّاريخيّة الأخرى.
- ٤ - الإشارة إلى اختلاف النّقول التّاريخيّة حيث وجد الاختلاف.
- ٥ - تعزيز معلومات الكتاب وتتميمها بما جاء في المصادر الأخرى ممّا لم  
يذكره الطّبري.
- ٦ - ترجمة الأعلام في هامش الكتاب، إضافة إلى التّعريف بالبقع الجغرافيّة،

والتفسير اللغوي لجملة من الكلمات.  
٧ - نقد مضامين جملة من الروايات التي أودعها الطبري.

\*\*\*

### الهوامش:

- (١) فهرست الطوسي، تحقيق السيد عبد العزيز الطباطبائي، نشر مكتبة المحقق الطباطبائي، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ - قم، ص: ٨٩، رقم (١١٩).
- (٢) رجال النجاشي، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجامعة المدرسين، الطبعة السادسة - قم، ١٤١٨هـ - ص: ١٦، رقم (١٩)؛ فهرست الطوسي: ١٣، رقم (٧).
- (٣) رجال النجاشي: ١٢٩، رقم (٣٣٢).
- (٤) رجال النجاشي: ٢٤٢، رقم (٦٤٠).
- (٥) رجال النجاشي: ١٩، رقم (٢١)؛ فهرست الطوسي: ١٦، رقم (٩).
- (٦) رجال النجاشي: ٣٤٧، رقم (٩٣٦).
- (٧) رجال النجاشي: ٣٤٩، رقم (٩٣٩).
- (٨) رجال النجاشي: ٣٥٣، رقم (٩٤٦).
- (٩) رجال النجاشي: ٣٨٥، رقم (١٠٤٦).
- (١٠) رجال النجاشي: ٤٢٧، رقم (١١٤٨)؛ فهرست الطوسي: ٤٨١، رقم (٧٧٣).
- (١١) رجال النجاشي: ٤٣٤، رقم (١١٦٦).
- (١٢) فهرست الطوسي: ٢٢٥، رقم (٣٣٤).
- (١٣) فهرست الطوسي: ٢٧٨، رقم (٤٠٦).
- (١٤) فهرست الطوسي: ٢٩٨، رقم (٤٥٠).
- (١٥) فهرست الطوسي: ٤٤٢، رقم (٧١٠).
- (١٦) فهرست الطوسي: ٤٥١، رقم (٧١٤).
- (١٧) رجال النجاشي: ٣٠٣، رقم (٨٢٧).

- (١٨) رجال النجاشي: ٣٢٠، رقم (٨٧٥)؛ فهرست الطوسي: ٣٨١، رقم (٥٨٦).
- (١٩) البداية والنهاية، ابن كثير الدمشقي، دار الفكر - بيروت، ١٩٨٦م، ج ٧: ٣٠٩.
- (٢٠) البداية والنهاية ٨: ٢٠٢.
- (٢١) مستدركات أعيان الشيعة، السيّد حسن الأمين، دار التعارف للمطبوعات - بيروت، ١٤٠٨هـ ج ٦: ٢٥٥.
- (٢٢) مستدركات أعيان الشيعة ٦: ٢٥٧.
- (٢٣) انظر: مستدركات أعيان الشيعة ٦: ٢٥٦.
- (٢٤) مستدركات أعيان الشيعة ٦: ٢٥٦، نقلاً عن: لؤلؤ ومرجان در شرط پله أول ودوم روضه خوان للميرزا النوري (فارسي): ١٥٦ - ١٥٧.
- (٢٥) مستدركات أعيان الشيعة ٦: ٢٥٦، نقلاً عن: هدية الأحباب: ٤٥.
- (٢٦) الكنى والألقاب، الشيخ عباس القمي، نشر مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين - قم، ١٤٢٥هـ ج ١: ١٩٨ - ١٩٩.
- (٢٧) مختصر الكلام في مؤلفي الشيعة من صدر الإسلام (مجموعة الآثار)، السيّد عبد الحسين شرف الدين، دار المؤرخ العربي - بيروت، ٢٠٠٦م، ج ٦: ٢٧٢٧ - ٢٧٢٨.
- (٢٨) أعيان الشيعة ٤: ٦١٤.
- (٢٩) انظر: مستدركات أعيان الشيعة ٦: ٢٥٥.
- (٣٠) انظر: مستدركات أعيان الشيعة ٦: ٢٥٥.
- (٣١) مستدركات أعيان الشيعة ٦: ٢٥٦.
- (٣٢) مستدركات أعيان الشيعة ٦: ٢٥٦.
- (٣٣) وقعة الطف، أبو مخنف لوط بن يحيى الأزدي، تحقيق الشيخ محمد هادي اليوسفي الغروي، طباعة المجمع العالمي لأهل البيت (عليه السلام) - قم، ١٤٢٧هـ ص: ١٦.
- (٣٤) وقعة الطف: ١٧ - ١٨.
- (٣٥) وقعة الطف: ١٨.
- (٣٦) وقعة الطف: ١٨، الهامش رقم (١).
- (٣٧) فهرس التراث، السيّد محمد حسين الحسيني الجلالي، نشر دليل ما - قم، ١٤٢٢هـ ج ١: ١٦٦.
- (٣٨) وقعة الطف: ١٨ - ١٩.
- (٣٩) وقعة الطف: ١٩. وانظر: تاريخ الطبري، محمد بن جرير الطبري، تحقيق محمد أبو الفضل

إبراهيم، دار التراث، الطبعة الثانية، ١٩٦٧م، ج ٥: ٤٨٧.

(٤٠) وقعة الطف: ١٩.

(٤١) وقعة الطف: ٢٥ - ٢٦.

(٤٢) وقعة الطف: ٢٦ - ٢٧.

(٤٣) وقعة الطف: ٢٨ - ٣٠.

(٤٤) البداية والنهاية ٨: ١٥٧.

(٤٥) البداية والنهاية ٨: ٢٠٢.

(٤٦) البداية والنهاية ٨: ٢٧٤.

(٤٧) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد المعتزلي، طباعة مكتبة المرعشي النجفي - قم، ١٤٠٤هـ ج ١: ١٤٧.

(٤٨) الجمل، الشيخ المفيد، طباعة دار المفيد - بيروت، ١٩٩٣م، ص: ٤٢٣.

(٤٩) بحار الأنوار، العلامة المجلسي، دار الوفاء - بيروت، ١٤٠٤هـ ج ١: ٢٥.

(٥٠) تاريخ الطبري ٥: ٣٣٩.

(٥١) مستدركات أعيان الشيعة ٦: ٢٥٤.

(٥٢) وقعة الطف: ٣٠ - ٣٢.

(٥٣) البلدان، ابن الفقيه، تحقيق يوسف الهادي، عالم الكتب - بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م، ص: ٢٥٦.

(٥٤) وقعة الطف: ٣٤ - ٣٩.

(٥٥) وقعة الطف: ٤٠ - ٨١.



## الحسين عليه السلام في الفكر المسيحي

في حوار مع المفكر المسيحي أنطوان بارا

□ إعداد: قسم الترجمة (\*)

لقد تحوّل النهر الذي سال على رمال «الطّف» دماءً وشهداء إلى «فراة» للحقيقة، يرتوي من معين مائه المتعطّشون إلى العزة والحريّة على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم، كما الأديان والطوائف، كلّ على حسب ظمإه وبمقدار عطشه.

وفي هذا الإطار، ومنذ أوّل مسيحيّ طالبٍ للحقّ وقف في وجهه يزيد وثار عليه في قصره العاجي، وإلى عصرنا الحاليّ، فليسوا قلة أولئك المسيحيّون الذين هم على شاكلة «جرجي زيدان» و«جورج جرداق»، والعشرات غيرهم من طلاب الحقيقة المسيحيّين، والذين تمكّنوا من بلوغ الحقيقة الخالصة التي أقرّتها كافة الأديان الأصيلة والواقعيّة فيما يتعلّق بـ «أهل بيت النّبيّ الطّاهرين»، و«محراب شهادة عليّ عليه السلام»، و«صحراء كربلاء الدّامية»، بل تركوا آثاراً ومؤلفاتٍ في هذا الشّأن.

«أنطوان بارا»، هذا العاشق المسيحيّ، الذي صرف سنواتٍ مديدةً من عمر

(\*) نُقل الحوار عن جريدة كيهان الصّادرة باللّغة الفارسيّة في تاريخ: ٢٤ / ١ / ٢٠٠٧.

شبابه في البحث والتحقيق عن حياة الإمام الحسين عليه السلام وثورته، لكي يتمكن في آخر المطاف من الكلام عن هذه الشخصية التاريخية العظيمة من زاوية فكره الخاص، وبلسان الإنجيل ونبي الله عيسى عليه السلام. وبالفعل، فقد أخذ بعد كل هذه السنوات من التحقيق والمطالعة في مختلف مصادر التاريخ الإسلامي في تأليف كتاب لم يكتب على لسان مسيحي مثله، بل لم يسطر نظير له في كل نوعه.

هذا المؤلف، الذي أطلق عليه اسم «الحسين في الفكر المسيحي»، اصطبغ بصبغة تحقيقية، أدبية وعاطفية، وقد قام صاحبه فيه بإجراء مقايضة ومقارنة بين حياة وشهادة النبي عيسى عليه السلام من وجهة نظر المسيحية، وبين حياة وشهادة الإمام الحسين عليه السلام من وجهة نظر الإسلام، مُستفيداً في ذلك من نظريات الديانتين بمهارة جديرة بالثناء والاهتمام. وفي هذه التحليلات نكات دقيقة ومهمة، إذا وقعت عين المسلم عليها رآتها منصفة وجديرة بالقراءة.

لقد أبصر كتاب «الحسين في الفكر المسيحي» النور للمرة الأولى في العام ١٩٧٨، إلا أن المؤلف بغد هذا التاريخ، وعلى أثر مزيد من المطالعة، قام بإضافة مُلحقَات وزيادات كثيرة عليه، حتى نُشِرت الطبعة الرابعة منه في الشهور الأخيرة. كما أن هذا الكتاب قد تُرجمَ لحدّ الآن إلى (١٧) لغة، وأُقرّ تدريسه في ٥ جامعات في مراحل الليسانس والدكتوراه، ومن المقرر أن يُصار سريعاً إلى ترجمة هذه الطبعة الأخيرة إلى اللغة الفارسية ونشرها.

أنطوان بارا، هذا المؤلف السوري الأصل، القاطن حالياً في الكويت، أديب يتمتع بذوق عالٍ في كتابته، فهو مضافاً إلى الكتاب المذكور أعلاه، قد صنّف (١٥) مجلداً وكتاباً يأتي مُعظَمها في سياق الأدب الروائي والقصصي. كما أنه امتن الصّحافة حُرقة له فمارسها ونشط فيها لمدة بلغت واحداً وأربعين سنة؛ إذ شارك بقلمه في شتى المجالات والجرائد المعروفة، وهو في الوقت الحالي يشغل منصب رئاسة التحرير في المجلة الأسبوعية: «شبكة الحوادث الكويتية».

وفي الأسبوع الماضي قام أنطوان بارا بزيارة الجمهورية الإسلامية الإيرانية للمشاركة في مؤتمر «ابن ميثم البخراني»، وهو ما وجدت فيه مؤسسة «كيهان» الفرصة المتاحة والملائمة لتوجيه دعوة إليه لعقد لقاء، يُعْتَبَرُ اللقاء الأول له مع مؤسسة صحافية في إيران، لعلنا نستمع إلى طرفٍ من كلامه في الإمام الحسين عليه السلام.

لقد حملتنا البشاشة في وجهه الباسم، مع تواضعه المُفْرِط، ونَفَسُ الصَّدْقِ والأمانة الذي ينبعث على لسانه وفي كلماته، حملتنا على أن لا نُهْمِلَ أيَّ سؤالٍ يخطر لنا، بل كنّا نبادر إلى طرحه، وهو الأمر الذي أدّى إلى أن يَسْتغرق هذا اللقاء مدة ثلاث ساعات، استمرّت إلى الساعة الحادية عشرة ليلاً، كُلُّ هذا، ولم يتطرّق إلينا أيّ شعورٍ وإحساسٍ بالتعب أو الملل من حديثه الشَّيْق؛ بل إنّ الارتياح والصفاء والوضوح والحميمية في حديثه، جعلنا نشعر بنفوذ كلامه إلى قلوبنا وصدورنا، ونطمئن إلى أن ما يقوله لنا ليس نابعاً إلا من باطن قلبه وعميق إحساسه.

إنّ الحرارة التي كان يتكلّم بها، والشّوق واللّهفة تجاه الإمام الحسين عليه السلام، ومُعتقداته التي يتحمّلها عن هذا الإمام، جعلتنا نظنّ أن الذي نستمع إليه ليس مسيحياً، بل واحداً من الشيعة الذين يَعْشِقُونَهُ عليه السلام ويَعْتَرِفُونَ بأنّ حبه قد أجَنَّهُم. وهذا ما يقرّ به بارا نفسه، حيث قال لنا: إنّ الناس في الدّول العربيّة يُطلقون عليّ اسم: «المسيحيّ الشّيعي». لقد تمكّن حبّ التّشيع من الرّجل، لدرجة أنّه لم يأت في طيّات كلامه على ذكر اسم «الحسين»، إلاّ وعقّب بعده بالقول: «عليه السّلام».

يرى أنطوان بارا أنّ التّشيع للإمام عليه السلام هو بمعنى التّحليّ بأعلى درجات العشق الإلهي، وأنّ الإمام الحسين عليه السلام ليس مُختصّاً بالشيعة أو المسلمين لوخذهم، بل «الحسين عليه السلام» للعالمين أجمعين، الحسين عنده «جوهر الأديان»؛

ويُختم أنطوان بارا كلامه قائلاً: «إنَّ الحسين عليه السلام ساكنٌ في قلبي».

وفي هذا اللقاء، يُحدِّثنا بارا عن عشقه وحبِّه لعلي عليه السلام، وقد أخبرنا أنَّه قد قرأ نهج البلاغة بتمامه ٢٥ مرَّةً لحدِّ الآن، وأنَّه في كُلِّ مرَّةٍ كان يُطالع فيها هذا الكتاب الشَّريف كان يكتشف فيه مطالب ونكاتٍ جديدةً. وإنَّ هذا ما يدعونا للتفكير فيما لعلي عليه السلام من مظلوميَّة، حتَّى في أوساط الشيعة أنفسهم، كيف لا؟! وأكثرنا لمْ ولا يمرَّ على نهج البلاغة بكامله ولو لمرةً واحدةً في كُلِّ حياته!!! وفيما يلي نذكر للقارئ العزيز القسم الأوَّل من الحوار الطويل والمفصَّل الذي جرى بيننا وبين المفكِّر «أنطوان بارا»:

❖ في البداية، وكسؤالٍ أوَّل، نرجو منكم الحديث باختصار حول عائلتكم، حياتكم، دراستكم ونشاطاتكم الإجتماعية.

بارا: إنَّسَمي «أنطوان بارا»، كائنٌ ولادتي عام ١٩٤٣م في سوريا، لديَّ أربعة إخوة، وثلاث أخوات، وأيضاً أربعة من الأولاد، هم: طلال، مريم، فيصل ويوسف. قام أجدادي، والذين هم في الأضل من منطقة «نجد» في السعودية، بالهجرة منذ أمدٍ بعيدٍ إلى بلاد الشام.

كان أفراد عائلتي من أصحاب الدَّخَل المتوسَّط، فأسلافُ كُلِّهم، ومنهم والدي، كانوا يعملون في التجارة وصناعة الأدوات والآلات التي يحتاج إليها المزارعون في عملهم.

تابعْتُ دراستي في الصُّفوف الأولى في واحدةٍ من المدارس المسيحية الخاصَّة، ثمَّ انتقلتُ في المرحلة الابتدائية برفقة أخي «حبيب» إلى مدرسيَّة رسميَّة، حيثُ كنَّا أوَّل طالبيْن مسيحيَّيْن وطأتْ قدماهما أرض تلك المدرسة؛ إذ كان كافَّةُ طُلابها آنذاك من المُسلمين.

وفي أوَّل صفٍّ من دُرس أحكام الدِّين الإسلامي، استدعانا المعلِّم إلى غُرْفَةٍ جانبية خارج الصَّف وقال لنا: من اللازم عليكما أنتما - أيضاً - أن تُشاركا في هذا

الصَّفِّ، وعليكما بالتَّعرُّف على مُختلف الأديان، والتَّعوُّد على تعلُّم الثَّقافة الإسلامية، وأنَّه حتَّى لو كُنَّا من العرب المسيحيين، فإنَّنا سنستفيد من هذه الثَّقافة والحضارة؛ لأنَّنا نعيش في مجتمع ثقافي واحد، وأنَّه لا ينبغي علينا أن نجعل شيئاً ممَّا يتعلَّق بالمُسلمين. وبعد أن قام والذي بالحديث مع أستاذ هذه المادَّة، شاركنا في حصَّة درسه، وهكذا يكون والذي هو الذي مهَّد لنا الأرضيَّة للتعرُّف على الإسلام.

وفي المرحلة الثَّانويَّة، اخترتُ لنفسي الفرع الأدبي، وفي أثناء هذه المرحلة، ومنذ تلك السَّنوات المتقدِّمة، بدأتُ بممارسة نشاطي الصَّحافي. وبعد هجرتنا إلى الكويت، عملتُ للمرَّة الأولى كمحرِّر رياضيٍّ في جريدة «أخبار الكويت». ومنذ ذلك التَّاريخ، وإلى يومنا الحاضر، عملتُ في مُختلف أقسام العمل الصَّحفي، من الرِّياضة إلى الثَّقافة فالإقتصاد فالفنّ وإلى الأخبار المحليَّة، كاتباً أو رئيساً للتَّحرير، وفي جرائد ونشريات متعدِّدة، حتَّى قضيتُ في هذا العمل نيِّقاً وأربعين سنة.

وفي مجال التَّأليف كذلك، فقد قُمتُ بتأليف كتابي الأوَّل «الحُسين في الفكر المسيحي» منذ سنِّي الشَّباب الأولى. وبالطَّبع، فأنا نفسي لا أعرف كيف استطعتُ أن أوِّلف مثل هذا الكتاب العسير، بل إنِّي كلَّما قرأتُ في هذا الكتاب أتعجَّب من نفسي كيف أتيتُ بنشاطي الفكريِّ بهذا الكتاب، وفي الواقع، فإنَّ تأليف هذا الكتاب شكَّل مُفتاحاً للطَّريق أمامي لتأليف (١٥) كتاباً آخر جميعها في المجال الأدبي.

❖ ما هو العمل والنَّشاط الذي تقومون به حالياً على الصَّعيد الاجتماعي؟!

بارا: أنا الآن رئيس تحرير في «شبكة الحوادث الكويتيَّة»، المجلَّة الأسبوعيَّة النَّاشطة في مجالات: الفنّ، والاجتماع، والثَّقافة، والحقوق. وأيضاً، لديّ تعاون مع عددٍ من الإذاعات والمجلَّات، كُلٌّ ذلك في إطار تأليف الكتب الأدبيَّة

والقصصية. وهناك كتاب آخر كنت قد بدأت بتأليفه منذ (٢٥) سنة، تحت عنوان «زينب صرخة أكملت مسيرة»، إلا أنني لما أصل بعد إلى نهايته؛ إذ أحتمل أنه ليس مثل كتاب أخيها الحسين عليه السلام.

❖ كيف تعرّفتم على أهل بيت النبي ﷺ، وبالأخص الإمام الحسين عليه السلام؟ متى بدأت هذه المعرفة؟ وكيف تكونت؟ وهل ثمة أمر كان حصوله لكم هو ما دعاكم إلى التفكير بتأليف كتاب حول الإمام الحسين عليه السلام؟!

بارا: كان ذلك لمخض الصّدفه!! فإنَّ كُلَّ ما كُنَّا قد سمعناه أو قرأناه عمّا جرى في وقعة كربلاء قليل جداً ومُختَصَرٌّ. فعندما كُنْتُ شاباً، وبينما كُنْتُ أعمل في الصّحافة الكويتية، ذهبتُ يوماً برفقة أحد أصدقائي لزيارة المرحوم آية الله السيّد محمّد الشّيرازي، الذي سألتني: هل تعرف شيئاً عن كربلاء؟؟ فأجبته: إنّ كُلَّ الذي أعرفه، أنّ حزباً ما وقعت بين يزيد والحسين عليه السلام. فقال: فهل تعرف عن أبعاد هذه المعركة شيئاً؟ فأجبته بالنّفي. فما كان منه إلّا أن قدّم إليّ عدداً من الكتب لأقرأها، منها كتاب «مقتل الحسين» للمقرّم. وعندما شرعتُ بقراءة هذا المقتل، دوّنتُ على هامشه مجموعة من الملاحظات. ثمّ عدتُ بعد شهرٍ واحدٍ لزيارة السيّد الشّيرازي.

سألني: هل قرأت الكتاب؟ فقلتُ: نعم، وقد دوّنتُ بعض الملاحظات على هامشه. وبعد ستّة أشهرٍ، طلب مني أن أريه هذه الملاحظات والمدوّنات. وبعد أن اطّلع عليها، قال لي: إنّ هذه الملاحظات تستحقّ أن تُخرج على هيئة كتاب؛ لأنّها تحتوي على نكاتٍ لا تُوجد فيما صنّفه المسلمون من الشيعة والسّنة؛ لأنّ هذه النّكات لم يكتبها مُستشرقٌ يُجهل قُدسيّة الشّخصيّة التي يكتب عنها، ولا ينظر إلى التّاريخ إلّا بالنّظرة المادّيّة المحضّة، غافلاً عن جهته المعنويّة. نعم، إنّي أراك، وأنتَ عربيٌّ مسيحيٌّ يعيش في قلب الحضارة الإسلاميّة، أراك جئتُ بشيءٍ جديدٍ ومختلفٍ.

قُلْتُ له: إِنَّهُ لَيْسَ لِي مِنَ الْعَمْرِ مَا يَسْمَحُ لِي بِجَمْعِ هَذِهِ الْخَوَاطِرِ وَالتَّصَوُّرَاتِ  
وَالْأَفْكَارِ أَوْ أَنْ أَصْنِفَهَا فِي كِتَابٍ، فَإِنَّ هَذَا عَمَلٌ شاقٌّ جَدًّا. وَلَكِنَّهُ عِنْدَ ذَلِكَ قَالَ  
لِي: أَنْتَ ابْدَأْ بِالْعَمَلِ، وَاللَّهُ تَعَالَى يُعِينُكَ عَلَيْهِ بِبَرَكَاتِ الْحُسَيْنِ (عَلَيْهِ السَّلَام).

وبالفعل، فَقَدْ شَرَعْتُ بِالْعَمَلِ عَلَى هَذَا الْكِتَابِ، إِلَّا أَنَّنِي كُنْتُ كُلَّمَا حَمَلْتُ  
قَلَمِي لِلْكِتَابَةِ أَزْدَادَ إِحْسَاسِي بِصُعُوبَةِ هَذَا الْعَمَلِ وَمَشَقَّتِهِ؛ لِأَنَّهُ يُرْضِي قَوْمًا  
وَيُسْخِطُ آخَرِينَ، لَا سِيَّمَا وَأَنَّ كَثْرَةَ الْمَصَادِرِ وَالْقِرَائِنِ وَالتَّفَاصِيلِ التَّارِيخِيَّةِ  
الْمُتَنَاقِضَةِ فِيهَا بَيْنَهَا، كَانَتْ إِلَى دَرَجَةٍ شَعَرْتُ مَعَهَا بِأَنَّنِي وَضَعْتُ قَدَمِي فِي حِفْلٍ  
مَلِيءٍ بِالْأَلْغَامِ، وَأَنَّنِي قَدْ دَخَلْتُ إِلَى مُعْتَرِكٍ وَسَاحَةٍ لِلْخِلَافِ الْعَقَائِدِيِّ وَالْمَذْهَبِيِّ  
تَضْرِبُ جَذُورَهُ فِي الزَّمَانِ الْغَابِرِ، فَمِنْ يَوْمِ السَّقِيفَةِ إِلَى كَرْبَلَاءَ، وَفِي هَذَا  
الْوَسْطِ يُخَالَفُ بَعْضُ وَيؤَيِّدُ آخَرُونَ. وَعَلَى سَبِيلِ الْمَثَالِ، فَإِنَّ بَعْضَهُمْ، كَابْنِ  
الْقَيْمِ الْجَوْزِيَّةِ كَانَ يَرَى فِي قِيَامِ الْحُسَيْنِ (عَلَيْهِ السَّلَام) وَثُورَتَهُ خَطَأً وَاشْتَبَاهَا كَبِيرًا، فِي حِينِ  
يَرَى فِيهِ مَوْزُونِ آخَرُونَ نَهْضَةً عَقَائِدِيَّةً وَدِينِيَّةً.

وَعَلَى هَذَا الْأَسَاسِ، فَقَدْ تَابَعْتُ قِرَاءَتِي لِهَذَا الْمَوْضُوعِ مِنْ وَجْهَةٍ نَظَرِي كَعَرَبِيٍّ  
مَسِيحِيٍّ؛ إِذْ لَمْ أَكُنْ فِي بَخْثِي لَهُ مُسْلِمًا وَاقِعًا تَحْتَ تَأْثِيرِ تِلْكَ الْوَاقِعَةِ عَاطِفِيًّا، وَلَا  
مُسْتَشْرِقًا يَقْصُرُ النَّظْرَ فِيهَا عَلَى جَوَانِبِهَا الْمَادِّيَّةِ وَلَا يَبَالِي أَضْلَالَ بِجَوَانِبِهَا الْآخَرَى  
الرُّوحِيَّةِ وَالْمَعْنَوِيَّةِ.

وَقَدْ قُمْتُ أَثْنَاءَ تَأْلِيفِي لِلْكِتَابِ بِمَرَاجَعَةِ وَمُطَالَعَةِ مَثَاتِ الْمَصَادِرِ وَالْمَرَاجِعِ،  
كَمَا أَنِّي صَرَفْتُ الْكَثِيرَ مِنَ الْجُهْدِ وَالْوَقْتِ عَلَى الْبَحْثِ فِيهَا وَالتَّحْقِيقِ، وَفِي كُلِّ  
مَرَّةٍ كَانَتْ يَدِي تَلْمَسُ فِيهَا الْقَلَمَ، كَانَ يَتَنَابَنِي شَعُورٌ بِالتَّأَثُّرِ الشَّدِيدِ، وَكَثِيرًا مَا  
بَدَلْتُ وَجَدَدْتُ عِبَارَاتِ هَذَا الْكِتَابِ قَبْلَ إِخْرَاجِهِ إِلَى الطَّبْعِ.

وَبَعْدَ خَمْسِ سِنَوَاتٍ مِنَ الْبَحْثِ وَالتَّحْقِيقِ، بَدَأْتُ عَمَلِي فِي مَجَالِ التَّأْلِيفِ  
وَالْكِتَابَةِ، كُنْتُ أَقُولُ لِنَفْسِي: يَجِبُ عَلَيَّ أَنْ أَتِمَّ الْعَمَلَ فِي ذَلِكَ الْكِتَابِ، وَكُنْتُ  
أَشْعُرُ أَنَّ قُوَّةَ مَا خَفِيََّةً تَدْفَعُنِي وَتَرْغَبُنِي فِي إِكْمَالِهِ. وَالْآنَ، وَبَعْدَ (٣٢) سَنَةً مَرَّتْ

على تأليفه، وعلى الرّغم من تجربتي الكبيرة في مجال الصحافة والكتابة والتأليف، أشعر أنّي لستُ قادراً على تأليف كتابٍ آخر مثله، ورغم أنّي ألفْتُ (١٥) كتاباً غيره، إلّا أنّ هذا الكتاب يبقى مختلفاً عن الجميع، وهو دائماً مصدر اعتزاز وفخر لي، كان كذلك، وسيظلّ للأبد؛ للآثار الإيجابية التي ترتبت عليه. ويُمكن أن نعتبر أنّ هذا العمل كان تأمّلاً عقلانياً في حادثة كربلاء وما جرى فيها. وبنظري، أنّي قد تمكّنتُ من أداء هذا المطلب حقّه من ناحية إبراز التحليلات والأنظار الجديدة.

❖ قد حدّثنا عن كتاب «الحسين في الفكر المسيحي» فهل لكم أن تتفضّلوا بالحديث شيئاً ما عن ميزات هذا الكتاب وخصائصه؟!

بارا: تلخّص ميزة هذا الكتاب وخصائصه وأهمّيته في أنّ كَيْفِيَّةَ نظرته إلى مجرّيات وقعة كربلاء وأحداثها تختلف عمّا كتبه لحّد الآن المسلمون والمستشرقون على حدّ سواء، ومن هنا يعتقد الكثيرون أنّ هذا الكتاب حيادي في تعاطيه مع هذا الموضوع.

ومن الخصائص المهمّة لهذا الكتاب، أنّي قد قُمتُ فيه بعقد مقايسة بين شخصيّتي الحسين وعيسى بن مريم عليه السلام، من ناحية الأفكار والخطابات والمواقف والإنجازات التي حقّقها كلّ منهما، وصولاً إلى كَيْفِيَّةَ استشهاد هذين العظيمين، وكيف أنّهما استقبلا الموت بشجاعة في سبيل العقيدة والمبادئ - (هذا طبعاً بناءً على مُعتقدات المسيحيين القائلة بأنّ نبيّ الله عيسى عليه السلام قد صُلِبَ واستشهد، وهو ما لا ينسجم ولا يتوافق مع النّظرة القرآنيّة) - ولقد جذتُ شهباً كبيراً من حيث الشّهادة - لا النّبوة - بين كلّ من الحسين وعيسى عليه السلام.

نعم، لقد تتبّعْتُ في الإنجيل وفي الكتب الأخرى التي تتحدّث عن حياة ومقتل الإمام الحسين عليه السلام، فعثرتُ على وجوه شبه كبيرة وعجيبة فيما بينهما، في التصرّفات والإنجازات والخطابات، وفي طريقة تبليغ العقيدة، وفي كَيْفِيَّةَ



حفظها، وهو بحث لم يُسلط عليه الضوء سابقاً، ولم يُتعرّض لتفصيله بهذا النحو من قبل. كما أنني حللتُ بالتفصيل الأسباب التي دعت هذين العزيزين إلى الإقبال على الموت برغبتها واختيارهما وإرادتهما، وبالأخصّ الحسين الشهيد عليه السلام، في وقت كان يُمكن له أن ينال جميع ما تشتهيهِ النفس من مالٍ أو جاهٍ أو مقامٍ دُنيويٍّ عالٍ، ولو أنّه كان قد أظهر من نفسه شيئاً قليلاً من اللين والسهولة واستجاب لمطالب يزيد، لكان باستطاعته أن ينجو بنفسه من القتل، إلّا أنّه أثر أن ينهض بهذه الثورة المذهبة، عملاً بالآية: ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٤١]، ولم يلتفت إلى شيء من الإغراءات والمرغبات، مع أن الأجواء - آنذاك - كان يغلب عليها عبادة الدُّنيا وحبُّ المال والجاه والسُّلطة. لقد ترك عليه السلام كافة هذه الأمور وراء ظهره، ومضى بأهله وعشيرته نحو الشهادة، مقدماً إليّاهم جميعاً في سبيل العقيدة والمبدأ.

❖ سمعنا أن الطبعة الرابعة من كتابكم «الحسين في الفكر المسيحي» جاءت بشكلٍ مغايرٍ ومختلفٍ عن الطبّعات السابقة، هل لنا بمزيدٍ من التوضيح في هذا الشأن؟

بارا: لقد أتيتُ في الطبعة الرابعة على ذكر جميع ما كتبه المسلمون، سنةً وشيعاً، أو نشرته الصحافة حول هذا الكتاب. وأضفتُ إليه - أيضاً - جميع التقارير والمسائل المتعلقة بمحاكمته ومنع انتشاره في الكويت، وكذلك أدرجتُ في آخره (٥٠) رسماً تعكس سير وكيفية حصول الأحداث في كربلاء، قام بنقشها فنانون من العرب والإيرانيين. والأهمُّ من كلّ هذا، أنني قد ذكرتُ في هذه الطبعة مصادر جديدةً ومتنوعةً لم تكن موجودةً في الطبّعات السابقة. وبشكلٍ عامٍّ، فإنَّ الطبعة الرابعة تشكّل بالنسبة لي حصيلة (٢٠) عاماً من المطالعة الدَّووية والبحث الدَّقيق والمعتمَق والسَّعي المتواصل لغرض إغناء هذا

الكتاب وإشباعه، وإنِّي أحمَد الله أن كان انتشاره مقبولا ومُرضياً.

### ❖ ما هي قصّة هذه المحاكمة والمنع؟

بارا: مسألة المحاكمة مسألة عجيبة جداً، كُنْتُ قد ذكُرْتُ في كتابي هذا عبارة تتحدّث عن حكومة عُثمان على الولايات الإسلاميّة، وطريقة إدارته لها، وقيام النَّاس عليه، وقد نقلتها من أكثر المراجع والمصادر الموجودة في مكاتب الكويت اعتباراً ومُضدّاقية. إلّا أنّني في العام ١٩٨٦م تسلّمتُ مذكرة استدعاء من محكمة الكويت، اتّهمتُ فيها بأنني قد اختلقتُ في حقّ عُثمان أموراً ذكُرْتُها في الكتاب ونسبْتُها إليه.

ولكني أثبتَ لهم عدم صحّة هذا الادّعاء، قدّمتُ لهم العشرات من المصادر والمآخذ التي ذُكِرَتْ فيها هذه العبارة، وقُلْتُ لهم: إنّ هذا الذي ذكُرْتُه في الكتاب أمرٌ واضحٌ يغرفه الجميع، ومن الطّريف، أنّي رأيتُ في مجلّة «العربي»، التّابعة لوزارة الإعلام الكويتيّة، عباراتٍ تحكي نفس المضمون في حقّ عُثمان، إلّا أنّها أشدُّ من تلك التي ذكُرْتُها وأعلى وتيرة.

ولكن، وعلى الرّغم من جميع هذه الاستدلالات ولمّا كان قصدهم الحدّ من انتشار الكتاب مهما كان الثّمَن، فقد حكموا عليّ بدفع (٥٠) ديناراً جريمةً، مُضافاً إلى الحُكْم بمنع نشر الكتاب في الكويت، وأيضاً بمصادرة ما خرج إلى الطّبع منه.

بعد ذلك، لجأتُ إلى محكمة الاستئناف لتجديد النّظر في الحُكْم فقدّمتُ إليهم كافّة الدّلائل والوثائق التّاريخيّة، التي بلغ حجمها آنذاك (١٥٠) صفحةً، إلّا أنّ قاضي الاستئناف لم يكلّف نفسه حتّى عناء فتح هذه الوثائق والمصادر، التي كانت من كُتب أهل السُّنّة، بل أيد الحُكْم البدويّ الذي أصدرته المحكمة بعيونٍ مُغلّقة. ولقد تأكّدتُ بعد ذلك، أنّه كان مُغرّضاً وكُنْتُ أدرك جيّداً أنّ له اتّصالاً بالسّلفيّة. إلى أن اكتشفتُ لاحقاً، أنّه كان يُعرّض كُلّ ما له علاقة

بالشيعة للمحاكمة لغرض الحد من توسعه وانتشاره.

وعلى كُلِّ حالٍ، ففي العام ١٩٨٦ تمَّ وضع كتابي على القائمة السوداء الممنوعة في الكويت. وبدوري، فقد قرَّرتُ أن أمتنع عن طباعة الكتاب مجدداً، واشتغلتُ منذ ذلك التاريخ ولمدة (٢٠) سنة بتجديد النَّظر والتَّصحيح وزيادة إضافاتٍ أخرى، إلى أن كان عملي في السَّتين الأخيرتين مُقتصرأً على تنظيم وترتيب صفحاته وإعداده للطَّبع وتنضيد حروفه، لكي تكون الطَّبعة الأخيرة خاليةً في جميع جوانبها من كُلِّ عيبٍ أو خللٍ أو نقص.

❖ كيف كانت ردَّات الفعل على تأليف كتاب «الحسين في الفكر

المسيحي»؟!

بارا: ما إن مرَّت ثلاثة أشهر على نشر الكتاب، حتَّى قام أحد السَّلفيَّين المُفرطين بتأليف كتابٍ تصدَّى فيه للرَّدِّ على كتابي هذا، مطلقاً عليه اسم: «يزيد أمير المؤمنين»، وكان هذا الشَّخص من أتباع إحدى الفرق الضَّالَّة التي تمتلك إمكانياتٍ هائلة، وتسعى إلى التَّشويش على الأفكار الإسلاميَّة الخالصة أو الشَّيعيَّة، وإبعاد النَّاس وإضلالهم عنها، بل عندما أراد أن يطبع كتابه أخذه إلى نفس المطبعة التي كانت قد طبعت لي كتاب الحسين، إلَّا أنَّ المسؤول في تلك المطبعة أراد أن يتخلَّص من شرِّه، فقال له: لا بدَّ أن يكون كتابك حائراً على إجازةٍ للنَّشر، فعاد عن الأمر، إلَّا أنَّنا عرفنا بعد سنة أنَّ الكتاب المذكور تمَّ نشره في السَّعوديَّة. وقد كان هذا الكتاب مليئاً بالطَّعن والافتراء على الحسين عليه السلام ومتأثراً - إلى حدٍّ بعيد - بأفكار ابن الجوزية.

وأيضاً هناك كُتِبَ أخرى نُشِرت وتعرَّض أصحابها في طيَّات كلامهم، قليلاً أو كثيراً، لنقد كتابي هذا. كما تستطيع أن تعثر من بين ما نشرته الصَّحافة، قديماً أو حديثاً، على مواضع متفرقة متناثرة تنتقده، إلَّا أنَّ كافة هذه الانتقادات كانت توجَّه من قِبَل المتطرَّفين.

وأما من الجانب الإيجابي، فقد استحسّن العديد من المسلمين، سنة وشيعة، وجود مثل هذا الكتاب، مُعترفين بأنّ الروح السائدة فيه هي روح التضامن والتّقريب والحياديّة والعقلانيّة، ويأتّه خالٍ من الكثير من المبالغة والتّضخيم. بينما كان المنتقدون يقولون: إنّ كلّ ما جاء في هذا الكتاب غير صحيح، وإنّ كلّ ما ذُكر فيه من وجوه الشّبه بين عيسى والحسين عليه السلام لا واقعيّة له، وإذا كان من شبه بينهما، فإنّها هو لمحض الصدفة والاتّفاق.

وبشكّل عامّ فقد شهدت بعد انتشار هذا الكتاب كثيراً من الانتقادات وكثيراً من الإطراء، إلّا أنّ نسبة الانتقادات إلى المديح والإطراء قليلة جداً. ❀ كيف كان تفاعل العلماء المسلمين، وأيضاً القسيسين والعلماء المسيحيّين مع هذا الكتاب؟

بارا: ردّة الفعل بين عامّة المسلمين، ولدى علماء الشيعة ومجموعة من علماء السنة، كانت إيجابيّة وعقلانيّة؛ حيث رأوا فيه كتاباً تحليليّاً رائعاً ومقروءاً زوّعي فيه أضلّ الحياء والاعتدال، وعدّه علماء الشيعة كتاباً حاوياً لآراءٍ ونظريّات وتحليلاتٍ جديدةٍ وبديعة.

وأما بعض السّلفيّين من المتعصّبين والمتطرّفين فاعتبروا أنّ مطالب الكتاب جميعها خاطئة، وأنّ الكتاب لا يبيّن إلّا عقائد الشيعة وآراءهم.

وأما القسيسون والعلماء المسيحيّون، فجميعهم أظهرها إيجابيّة وردّ فعل مثبت مُنّين على هذا العمل، حتّى أنّ سرور بعضهم بهذا الكتاب كان سروراً عارماً؛ حيث رأى فيه خطوةً في سبيل التّقريب والتّوافق بين الأديان والتّوفيق بين عمل الأنبياء والأولياء.

وبشكّل عامّ، فإنّ الأشخاص الذين انتقدوا الكتاب واعترضوا عليه، لم يُبَيّنوا في نقدهم له سنداً ولا دليلاً، ممّا يعزّز لديّ الاعتقاد بأنّ منشأ هذه الانتقادات هو التّعصّب والنّوايا السيّئة. لقد كان تعصّبهم والهوى في أنفسهم

فاتماً لدرجة أنهم أبوا أن يفكروا في السبب الذي لأجله قام حفيد النبي ﷺ بهذه الملعمة، ولماذا لجأ إلى تعريض نفسه وعائلته للخطر، رغم وجود كُلِّ هذه الإغراءات؟ وهل كان ذلك لأجل أهدافه الشخصية؟ إذا كان هذا هو ما سعى إليه لكان الأنسب به أن يرقه نفسه بإطاعة أوامر الحكومة وعدم تعريض نفسه للخطر. إلا أننا نرى، أن قضيته والخط الذي سار عليه لا يزال، وعلى الرغم من مرور القرون وتعاقب الأجيال، جيلاً بعد جيل، لا يزال موضعاً للتكريم والاحترام والتقدير من قبل ملايين الناس الذين يُحيون ذكره في كُلِّ عام، فهل هذا إلا بفعل افتتانٍ إلهي؟!

كان بعضهم ينتقدي ويقول: هل أنت مُسلمٌ لتأتي وتكتب كتاباً عن الحسين ﷺ؟

وكنْتُ أجيبهم: كيف يُمكن أن لا يتابنا الشعور بالحبِّ والإعجاب تجاه الحسين ﷺ سليل النبي ﷺ وعلى ﷺ والزَّهراء ﷺ؟ كيف؟ ونحن لا نجد في مشروعه أيَّ مظهرٍ من مظاهر الضَّعف أو الذَّلَّة. ولستُ أنا لوحدي مَنْ أغرِم بالحسين، فانظروا إلى غاندي مثلاً، وهو الهندوسي، يقول: إذا أردتم أن تنتصروا فلا بدَّ أن تسيروا على خطِّ الحسين ﷺ. ويقول أيضاً: تعلَّمْتُ من الحسين كيف أكون مظلوماً فانتصر. فهل كان غاندي مُسلماً عندما أتى بهذه الكلمات على لسانه؟ أو فانظروا إلى جبران خليل جبران، هذه الشَّخصية المسيحية العظيمة، وهو يقول: الحسين مصباحٌ منيرٌ لجميع الأديان. وأنا - أيضاً - هكذا أقول: إنَّ الحسين جوهر الأديان الخالد والأبدِي، وهو جوهر الدِّين الواحد.

❖ من بين جميع الرموز الدِّينية للمُسلمين عامةً وللشيعة خاصَّةً، لماذا قُمتُم باختيار الإمام الحسين ﷺ والسَّيدة زينب ﷺ لتأليف الكتاب؟ وهل كان لكم مطالعاتٌ وتأليفاتٌ في حقِّ سائر الأئمة، وعلى وجه التَّحديد علي ﷺ؟

بارا: سؤالٌ جيّد. قد ذكرْتُ في كتابي عبارةً بهذا المضمون: أنَّ الإسلام

محمدي الوجود حسيني البقاء، ونهضة كربلاء قيامها حسيني، ولكن بقاءها زيني. إن الله تعالى يستنهض في كل برهة من الزمن ثلة تقوم بإحياء القلوب من جديد. والحسين عليه السلام أحد هؤلاء المجدين الذين أحيوا بتحركهم الكثير من الأموات. إنني أكن الاحترام والتقدير لسائر الأئمة عليهم السلام، ولا سيما الإمام علي عليه السلام، والذي له في قلوبنا - نحن العرب المسيحيين على وجه الخصوص - محبة وقديسة ومنزلة خاصة، ولكن مع ذلك فقد أردت أن أستعرض أحوال الحركة التي جاء بها الحسين عليه السلام؛ لأنها حركة برزت في التاريخ فتركت آثارها الخاصة على قلوب الناس.

إن الشرارة التي اشتعلت في كربلاء قد تحولت إلى مصباح منير على مر التاريخ كله، وأما القناديل المؤقتة والظرفية التي أشعلها معاوية ويزيد فقد خدث جميعها. فمثلاً، ماذا تعرفون الآن حول قبر يزيد؟ ومن من الناس الآن يعتبر ضريحه مقدساً؟ ألم يتحول قبره إلى مزبلة ومشرح للقطط؟ وعلى بُعد أمتارٍ منه، المقام الذي وُضع فيه رأس الحسين عليه السلام محل يؤدي فيه المسلمون مراسم الاحترام والتقدير. إن هذه الأمور، دفعني إلى التعلق بالإمام الحسين عليه السلام خاصة، رغم الاحترام والتقدير الذي أكنه لسائر الأئمة عليهم السلام.

وبالطبع أشير هنا، إلى أنني في نفس الوقت الذي كنت أجري فيه مطالعاتي حول الإمام الحسين عليه السلام، طالعت نهج البلاغة، وقد قرأت هذا الكتاب الشريف لحد الآن (٢٥) مرة، وفي كل مرة كنت أكتشف فيه نكات جديدة، كما استفدت من كلامه عليه السلام في مقالاتي المختلفة، بل وحتى في كتاب «الحسين في الفكر المسيحي». هذا، بالإضافة إلى المقالات التي كتبتها حول شخصيته خاصة.

❖ بعد مطالعتكم الواسعة والمعمقة في التاريخ الإسلامي والثورة الحسينية، ما هي الرؤية الدقيقة والانطباع الذي توصلتم إليه في شأن الإمام الحسين عليه السلام؟ وبعبارة ثانية: من هو الإمام الحسين عليه السلام برأيكم؟ وكيف وجدتموه وتعرفتم عليه؟

بارا: أستطيع أن أعرف الحسين عليه السلام بنفس العبارات المختصرة والواضحة التي قلّتها فيه في الكتاب؛ إذ قد وصفته بأنّه: جوهر الأديان الأبديّ والخالد، وهو الشّهاد المتواضع الذي نهض وقام لحفظ دين جدّه والحياة في مسيرته، رغم أنّه لم يمتلك الجاه ولا الجبروت اللّذين كانا لكلّ من فرعون وكسرى. الحسين في بداية الأمر بدأ بالمحاورّة مع معاوية ويزيد، إلّا أنّ طريقة الحوار لم تؤثّر ولم تنفع في هداية أعدائه وإعادتهم إلى رشدهم وصوابهم، فلذلك، ومع علمه بأنّه يُقتل، فقد عرض نفسه للخطر في سبيل العقيدة، وخرج بجيشه المؤلّف من سبعين نفراً إلى الكوفة في مواجهة جيش عبيد الله المؤلّف - على ما تصرّح به المصادر التّاريخيّة - من سبعين ألفاً من المقاتلين، كلّ ذلك لأجل إيجاد حركة ونهضة في المجتمع آنذاك.

ليسّت الملحمة الحسينيّة محدّصة بالشّيعّة والسّنة والمسلمين فحسب، بل إنّها هي لكلّ مؤمن، كما جاء ذلك في الحديث: «إنّ لقتل الحسين حرارة في قلوب المؤمنين لا تبرد أبداً»، ولم يقل: في قلوب المسلمين، بل يشمل كلّ إنسان حرّاً آمن بخطّ الحسين وطريقه؛ ولذا نرى أنّ المفكرين وأهل العالم بأسرهم حبّ الحسين عندما يطّلعون على سيرته، تماماً كما صاروا من المعجّبين والمحبّين لطريق عليّ بن أبي طالب عليه السلام ولسلوكة.

❖ قد أشرتكم في كتابكم إلى أنّ السيّد المسيح عليه السلام تنبأ وأخبر سابقاً عن الحسين عليه السلام ووروده إلى كربلاء، فهل لديكم أدلّة ومستندات تحكّمة في هذا الشأن؟

بارا: نعم الأدلّة جميعاً مأخوذة من الإنجيل، وطبقاً لما جاء في التّاريخ فإنّ المسيح قام بزيارة كربلاء، وقال لبني إسرائيل: يجب على كلّ من يذكّر الحسين أن يهب لنُصْرته. والبغض، وإن شكّك في هذه الرواية التّاريخيّة، إلّا أنّنا لا نرى فيها مجالاً للشّك؛ لأنّ المسيح عليه السلام كانت تظهر على يديه المعجزات، من إحياء

الموتى، وشفاء ذوي الأمراض المستعصية، ولذلك نسأل، هل من الصَّعب في حقّه أن يُخبر بالمغيَّبات أو يتحدّث عمَّن يستشهد بعده؟!

❖ بها أنكم أجريتم هذا البحث الواسع في حياة وكلمات الإمام الحسين عليه السلام، فما هي الجهة التي كانت محلّ اهتمامكم أكثر في أبعاد شخصيته؟!

بارا: هذا سؤالٌ جيّد. إنّ البُعد الذي جعلني أتعلّق بالإمام الحسين، في حياته وتحركه، هو البُعد الثَّوريّ الذي تحلّى به، كما أعلن ذلك الإمام عليه السلام في أهداف قيامه قائلاً: «إني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً، إنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي». إنّ هذه الرُّوح الثَّوريّة يُمكن أن يكون لها أثر المعجزة على كلّ إنسانٍ يستفيد منها في كلّ زمانٍ ومكان، وقد شهدنا في السّنوات الأخيرة انتصار الثَّورة وإنجازاتها في إيران التي انطلق شعبها ومسؤولوها من مبادئ وفلسفة النّهضة الحُسينيّة، وقارعوا الظُّلم والاستكبار وثاروا في وجهه بكلّ ما قد أوتوا من قوّة.

والبُعد الآخر في شخصيّة الإمام الحسين عليه السلام، الذي جذبني إليه، هو تحلّيه بصفة التّواضع إلى جانب روحه الثَّوريّة؛ لأنّ هاتين الميزتين لا يُمكن اجتماعهما في شخصٍ واحد، والتّواضع هو أحد الصّفات والخصوصيّات التي يتمتّع بها أولياء الله وخاصّته. نعم، كان الإمام عليه السلام إلى جانب إحساسه بالعزّة والحرّيّة والشّموخ في مواجهة الأعداء، كان لديه إحساسه الخاصّ بالتّواضع، وهذا ما يُمكن عدّه واحداً من أهمّ أبعاد شخصيته عليه السلام.

❖ جاء في طبّات كتابكم «الحسين في الفكر المسيحيّ»: إذا كان الحسين عليه السلام واحداً منّا نحن المسيحيّين، لرفعنا له في كلّ بقعةٍ من بقاع الأرض رايةً، ولنصنّأ له في كلّ مكانٍ منبراً، ولدعوّنا النّاس إلى المسيحيّة باسم الحسين. تفضّلوا علينا بالتّوضيح.

بارا: عندما يتعلّق أحدنا بشخصيّة تاريخيّة أو دينيّة، فإنّ هذا التعلّق



والإعجاب يؤدّي إلى أن ينبعث لسانه في الكلام حول هذه الشّخصيّة بلا شعور منه ولا إرادة. والخصال التي توجد في شخصيّة الحسين عليه السلام تعيد إلى ذاكرة كلّ مسيحيّ صورة نبيّه عيسى عليه السلام، كما تفعل ذلك - أيضاً - خصال شخصيّة علي عليه السلام. وليس هذا رأينا فقط نحن المسيحيّين، بل هو ما قاله النّبيّ عليه السلام لعلي عليه السلام: أنت أكثر النّاس شبهاً بعيسى روحاً وفكراً وقلباً. والعبارة التي ذكرتموها، إنّما تعني أنّنا لشدة حبنا للحسين عليه السلام وتعلّقنا به فتمنّى أن يكون الحسين ممّا كما كان عيسى ممّا، حتّى نُعْلي له في كلّ مدينة رايةً تحمل اسمه، وحتّى ندعو النّاس إلى المسيحيّة باسمه؛ لأنّ المسيحيّة دين الرّوح والقلب وتوأم التسامح، وتدعو إلى نبذ العُنف. وقد أجبتُ فيما سبق، عن سؤالٍ وجّه إليّ مفاده: كيف ذهب الحسين عليه السلام للحرب؟ قلتُ: لم يكن تحرّك الحسين تحرّكاً داعياً إلى العنف، بل هو تحرّكٌ ينطلق من التّضحية بالنّفس وتقديم الدّم فداءً وقرباناً. ولو أنّه أثر الجلوس في بيته، لما حدث له أيُّ مكروه. وفي الوقت عينه، كانت بعض الفرق الضّالة، كالمرجئة والمنافقين الذين يتملّقون الحكومة، يُشيعون أنّ الخلاف الذي نشب بين يزيد والحسين هو صراعٌ على السّلطة والحكومة.

نحن المسيحيّون، كنّا نتبرّك بموضع قدم حمار السيّد المسيح ونعظّمه، وأمّا أنتم فلديكم مرقد الحسين وآثاره وإرثه المبارك، ولكنّ لم تر أنّكم تستفيدون منها بالشّكل اللاّئق، ليس الحسين مرحلةً تاريخيّة فقط، وإنّما الحسين حركة الإنسان نحو الحرّيّة، إنّهُ أصلٌ دائمٌ وأساسيّ وخالد، واليوم، يوجد في المسلمين من لم يكتشف لحدّ الآن رمز وسرّ البقاء والخلود في ثورة الحسين عليه السلام والأثر التي تتركه على القلوب.

✽ على الرّغم من أنّ الشّبيعة وسائر المسلمين، وعلى امتداد قرونٍ متطاولة، يُظهرون حبّهم وعشقهم للحسين عليه السلام، إلّا أنّكم، وفي واحدةٍ من مقابلاتكم مع إحدى المجلّات العربيّة، تقولون: أنتم لا تعرفون قدر الحسين عليه السلام. بنظرك،

كباحث ومفكرٍ مسيحي، فهل ترى أنَّ هذا القدر من العشق والمحبة يُمكن له أن يفي للإمام حقّه. وعلى العموم، فكيف يُمكن أن نصل إلى معرفة منزلة الحسين وما هي الأمور المطلوبة التي لا نقوم بها فعلاً؟

بارا: التّعريف على الحسين ونهجه وثورته لا ينبغي برأيي أن يكون مقصوراً على تكرار ما جرى في تلك الملحمة، ولا أن يغفل النَّاس عن عظمة هذه الواقعة. إنَّ ما قصدته من قولي: أنتم لا تعرفون قدر الحسين، هو أنكم تجهلون حجم التّعاليم والدّروس التي يُمكن استفادتها من النّهضة الحُسينيّة والتي تعلّمنا كيف نتعامل مع ديننا ودُنيانا. لقد علّمنا الحسين أنّه لا ينبغي لنا أن ننجرّ إلى حروبٍ وصراعاتٍ ونزاعاتٍ على أساس المنافع المادّيّة، وأن لا نقدّم حبّ الدُّنيا على حساب عقائدنا والمبادئ.

المقصود أن علينا الالتفات إلى تعاليم الحسين عليه السلام والاهتمام بها، وهي تتلخّص في البُعد عن عبادة الدُّنيا، واجتناب الحرّص على بهارج الدُّنيا وزخارفها، وأيضاً في لزوم محبة النَّاس والعمل بسيرة النّبّي وسنته. لا بدّ أن نسعى لأن نكون حُسينيّين بالجوارح والجوانح، قلباً وقالباً، وأن لا نكتفي بالوقائع الظّاهريّة والحسيّة في كربلاء، بل يجب أن تجري ثورة الحسين في عقولنا وتفكيرنا وأعمالنا وأن نُظهرها ونُذكر أهمّيّتها وننقلها للآخرين. فلو أن النَّاس في الغرب يتعرّفون على شخصيّة الحسين عليه السلام لأحبّوه وعشقوه؛ لأنّ في الغرب أصولاً وأساساً وُضِعَتْ على أساسها مواثيق حقوق الإنسان، وعلى أساسها يُقدّسون الرُّموز المعنويّة. ومن هنا، فإنّ جهلنا وعدم معرفتنا بحقيقة النّهضة الحُسينيّة وجوهرها، سوف يؤدّي إلى انقطاعنا حتّى عن المشاركة في الأعمال الصّوريّة، أو حتّى عن الإفراط في الظّواهر والشكليات. لا ينبغي أن يكون إحياءنا لهذه المسألة بشكلٍ نجتمع فيه في فترةٍ معيّنة من السّنة نوذّي فيها عدداً من المراسم والأمور الروتينيّة، ثمّ نغفل عن القضية وننساها ويذهب كلّ منّا في

حال سبيله، إلى أن يحين وقت الذِّكْرَى في السَّنة القادمة، بل الواجب علينا أن نستحضر طوال العام ماذا فعل الحسين عليه السلام ولأي شيء فَعَلَهُ وقام به؟ لأنَّ ما قام به عليه السلام هو فوق كُلِّ وصفٍ وفوق كُلِّ ثناءٍ وكُلِّ مديح.

وعلى هذا، فالشيء الذي أقوله وأشدّد عليه، هو أنَّ الحسين عليه السلام، وإنَّ كان شخصيَّةً مقدَّسةً لديكم أنتم المسلمين، إلَّا أنكم لم تتعرَّفوا على عظيم منزلته بالشَّكل اللازم، بل إنكم أغفلتم تعاليمه ومبادئ حركته في مقام العمل. إنَّ وظيفتكم أن تعلموا كيف يُمكنكم اليوم أن تُعينوا هذا الإمام العظيم عن طريق بيان كلامه الحقِّ، وإعانة المظلومين، وإصلاح المجتمع، وتحقيق العدالة والحرِّية. وفرضُ عليكم، أن تُوصلوا، وبأمانة تامَّة، صنيحة الحسين عليه السلام يوم عاشوراء إلى جميع أهل العالم، ولازم تحمّل هذه الأمانة: أن نتعمَّق في أركان حركته الثَّوريَّة ومبادئها. ولازمه أيضاً: عدم الاكتفاء بطائفةٍ من الأفعال الشَّكليَّة والظواهر المرتبطة بواقعة عاشوراء.

❖ ما هو رأيكم بالنسبة إلى الشَّعائر الحُسَيْنِيَّة وكيفيَّة إحياء عزاء الإمام الحسين عليه السلام والآداب والمراسم التي تُحصل في الأثناء، كلطم الصُّدور وضرب السَّلاسل ومجالس العزاء وغيرها؟!

بارا: إنَّ القيام بمثل هذه الأفعال والمراسم يُعدّ أمراً صحيحاً ولازماً وضرورياً؛ لأنَّها تذكِّر بحادثة كربلاء، وتتيح للمُسلمين الفرصة لأن يراجعوا أنفسهم ويطرحوا عليها هذا السُّؤال: هل إنَّ دروس الحسين وتعاليمه تركت أثرها عليّ؟ هل استشهد الحسين وأهل بيته وسالت دماؤهم فقط لكي أقوم أنا بممارسة هذه الأفعال الشَّكليَّة والصُّوريَّة أم أنَّ له أهدافاً أخرى وراء ذلك؟!

إنَّ هذه الأفعال التي تعيد صورة كربلاء إلى أذهاننا، من العزاء ولطم الصُّدور وغيرها، هي، بنظري، أفعالٌ مناسبة وصحيحةٌ للحفاظ على الواقعة ودوام تذكُّرها، وهذا، طبعاً، ليس مختصاً بالمُسلمين وخدِّهم، فإنَّ المسيحيِّين هم

أيضاً يقيمون العزاء في عيد الفضح، إلا أن العزاء عند الشيعة أمر آخر؛ لأنَّ الفاجعة التي نزلت بسيدهم فاجعة غير مسبوقة، ولا نظير لها في كلِّ التاريخ. صحيح أن عيسى - بنظر المسيحيين - ارتكب اليهود فيه جريمة بأن قاموا بصلبه، بغض النظر عن الاختلاف بين الإنجيل والقرآن في هذه النقطة، إلا أن الذي جرى على الحسين عليه السلام في كربلاء، لم يحصل مثله لأي نبي أو شهيد، والوخشة التي مارستها جماعة من الوحوش ممن ينسبون أنفسهم إلى الإسلام على جسده الطاهر، إنها هي إهانة وظلم وجناية، وإذا لم يبادر المسلمون إلى مراجعة أنفسهم وإصلاحها، فمن الممكن لهذه الحادثة أن تتكرر وتقع لهم في كلِّ زمان ومكان.

❖ هل قُتِمَ شخصياً بالمشاركة في مراسم العزاء الحسيني من قبل؟

بارا: نعم، لقد شاركتُ في العديد من المراسم التي يقيمها الشيعة في البلدان العربية، بل قد حاضرتُ في المعزين أيضاً.

❖ قُلْتُمْ في مكانٍ من الكتاب: لو تعرَّف الغرب على ثورة الحسين، ومفاهيمها وقيمها وتعاليمها، فإنَّهم سوف يقومون باتباعه قطعاً. نرجو لو تفضّلوا علينا بالتوضيح.

بارا: إنَّ العقلانيَّة الغربيَّة قد قطعت أشواطاً كبيرة في مجال مواجهة الحقائق مع قطع النظر عن العواطف، على الرِّغم من وجود بعض الأخطاء والأمور غير المقبولة، ولكن مع ذلك، فأنا أعتقد أن الغرب لو تعرَّف على تعاليم الحسين عليه السلام العالمة، والتي تُشبه تعاليم عيسى عليه السلام فإنه سوف يعمد إلى تكريم هذه الشَّخصيَّة واحترامها، بل واتباعها على الصَّعيد الفكري، وربَّما على الصَّعيد العقائدي أيضاً. بمعنى: أن الحب والعشق لا يعني بالضرورة وجوب تغيير العقيدة، ومن الممكن لصاحب عقيدة معيَّنة أن يحبَّ ويحترم شخصاً آخر ينتمي إلى عقيدة أُخرى، وهذا أمر موجود في الإسلام أيضاً، فالمسلمون مثلاً، يُقدِّسون

عيسى ومريم عليهما السلام، وهم مع ذلك لا ينسبون النبي ﷺ وأهل البيت عليهم السلام.  
ومن هنا، فإنَّ طريق الحسين عليه السلام وأهدافه من شأنها، لو اطلع عليها الغرب وعرفها، أن تجذبه وتدعوه إلى العمل بها وعلى أساسها، تماماً كما أن تعاليم نهج البلاغة وقيمه وحقوق الإنسان التي كان علي عليه السلام قد ساقها منذ أربعة عشر قرناً ليخاطب بها أتباعه، قد جذبت إليها الأنظار والاهتمام في هيئة الأمم المتحدة.

❖ قد اعتبرتم الإمام الحسين عليه السلام في الكتاب مكملاً لرسالات الأنبياء، بل جعلتم له منزلة أرفع من مقام الأنبياء، وأوصلتموه إلى حدِّ مقام نبوة النبي محمد ﷺ، ما هو دليلكم على هذه الرؤية؟؟

بارا: تحمّل المصطفى ﷺ عند نزول الإسلام عليه من الأذى والبلاء الشيء الكثير، وقد قام كفار قريش وأغنياؤها بوضع العقبات والموانع أمام دعوته، إلى الحدِّ الذي يقول فيه ﷺ: «ما أُوذِيَ نبيٌّ مثل ما أُوذِيتُ». ثم جاء من بعده خليفته، أعني: الإمام علي عليه السلام، ليأخذ على عاتقه مسؤولية التفسير والتأويل والمداومة على تبليغ الخطاب القرآني، ولتحمل بدوره شتى المشاكل والصعاب في هذا السبيل، مضحياً بنفسه لأجل الإسلام، ومحارباً أعداءه. إلى أن وصلت مسؤولية حفظ الرسالة واستمراريتها إلى حفيد النبي ﷺ، أعني: الحسين عليه السلام، الذي وقف على مخاطر تهدد الدِّين ككلِّ، بمسحه وبتخريفه، وعلم أن تحريف الدِّين من شأنه أن يُلقِي بتضحيات جدّه وأبيه وجميع ما تحشاه في سبيل الرسالة في مهبط الريح، وأنَّ هذا الوضع لو استمرَّ على ما هو عليه، لأدَّى إلى خروج الشريعة الإسلامية الحقة وانحرافها عن جادة الصواب. لذا كان عليه أن يُقدم على فعلٍ ينعث الحياة في هذا الدِّين من جديد، هذا الإحياء الذي لا يرقى إلى مُستوى نزول القرآن، ولكنه على حدِّ سواء مع إنجازات والده بعد النبي ﷺ.

وطبعاً، فإنَّ أهميّة هذا الإحياء لا تقلُّ عن الثبوت، بل إنها هي متممة ومكملة لها، فمع كونه شهيداً، حاملاً لرسالات الأنبياء، فإنَّه قد فعل ما فعله الأنبياء،

ومع كونه لم يُعْطَ ما أُعْطِيَ الأنبياء من مميّزاتٍ وخصوصيّاتٍ، إلّا أنّه قد تحمّل من الأذى والآلام والشّدائد والصّعوبات، مثل ما تحمّلوه، وكان عليه أن يُبادر إلى تحرّكٍ نهضويٍّ يُخَيِّمُ الدّينَ وَيُنْعِثُ الرُّوحَ فيه من جديد. وباعتقادي، فإنّ استمراريّة الإسلام وتعاليمه السّامية ما كانت لتُضمّن، لولا نهضة كربلاء وملحماتها الخالدة.

❖ ثمةُ جُمْلَةٌ معروفةٌ تُنسَبُ إليكم، مفادها: أنّ الإسلامَ محمديّ الحدوثِ حُسَيْنِيّ البقاء، نرجو منكم التّوضيح.

بارا: إنّ هذا الكلامَ بمجرّده لا يَعدو أن يكون تحليلاً صرفاً، وأمّا بحسب الدّقّة، فهو تَمَمّةٌ للجواب عن السّؤال السّابق، الذي قلنا فيه: إنّ دين الإسلام لم يكن ليبقى ويدوم لو لم ينهض الحسين ويتحرّك، وإنّ خلود الإسلام ودوامه كان منوطاً بالثّورة الحُسَيْنِيَّة، وإنّه الحسين من هزّ أركان وجود الأُمّة بأسرها عندما قام بهذا الزّلال الرّوحيّ والمعنويّ، وعندما قضى على غخطّهم الضّلاليّ؛ ليتمكّن من إعادة الحياة إلى تعاليم الإسلام وقيمه. وعلى أثر هذه الهزّة الرّوحيّة، تمكّنت شريعة الإسلام من إكمال طريقها مضيئةً برّاقةً ومُشرقةً. هذا. ولكنّ هناك حقيقةٌ أُخرى أزعجت بظلالها في المقام، وهي: أنّ ثورة كربلاء حدوثها حُسَيْنِيٌّ واستمرارها زَيْنِيٌّ، وأنّ الدّور الذي لعبته السيّدة زينب عليها السلام كان كبيراً ومتممّاً لدور أخيها.

❖ ما هو تقيّمكم لدور السيّدة زينب عليها السلام في كربلاء وما بعدها؟

بارا: لم يكن دور زينب عليها السلام ناشئاً من محض الصّدفة والاتّفاق، بل كان بإلهام من الله تعالى وموافقاً لإرادته ولأمره. فإنّ اصطحاب الحسين عليه السلام لأهل بيته ونسائه كان لغرض التّأثير على النّاس وإعلامهم بأهداف تحرّكه هذا. وقد تمكّنت زينب، هذه المرأة الفصيحة والبليلة، وابنة صاحب نهج البلاغة، أن تُوقظ النّاس في المدن المُختلفة التي مرّت بها في طريق أسرها، وإطلاعهم على

حقيقة ما جرى، وإنطال الدعايات المسمومة التي كان يبثها معاوية ويزيد ضد الحسين، حيث أشاعوا أن الحسين عليه السلام منحرف عن الدين، خارج على إمام زمانه، طالب للقوة والسلطة.

نعم، أعلنت زينب رفضها واستنكارها بوضوح وفصاحة، ورفعت صيحتها حتى في وجه يزيد نفسه، والذي كان رجلاً جاهلاً، فأذلته وحقرته. وقد وقف المسلمون، وعلى أثر هذه الخطابات الزينية الكثيرة إن في الشام أو في طريق العودة إلى المدينة، على عمق الفاجعة التي حلت بأخيها، وعظمة التضحيات التي قدمها. ومن هنا، يمكننا أن ندعي بأن دور زينب لم يكن بأقل أهمية من دور أخيها.

❖ إن كلامكم هذا يُذكرنا ببنت ذي مغزى من بليغ شعر الأستاذ «شهریار»، قال: «اصطحاب الأهل والحرم كان دستوراً وسراً من أسرار الغيب، ولولا ذلك، فأتى لنا بالعلم بالانتهاكات التي استباحوها في حق الحسين؟!».

بارا: نعم، ولقد أكذت على هذا المعنى في كتابي، وأوردت مسائل بنفس مضمونه.

❖ هل يُمكنكم أن تُشيروا لنا باختصار إلى كتاب «زينب» والذي قُلتم إنكم لم تفرغوا منه لحد الآن؟!!

بارا: بدأت بتأليف هذا الكتاب منذ ٢٧ سنة تحت عنوان «زينب صرخة أكملت مسيرة»، وقد كتبت القسم الأكبر منه، إلا أن ظروف العمل الصحافي، والذي - كما تعلمون - لا يُبقي للإنسان أي وقت للفراغ، حال دون إتمامه، والآن يتصل بي الناس من بلدان مختلفة ويصرون علي في إكماله وإنهائه. وأنا أرجو بمزيد من المطالعة وتجديد النظر، أن أوفق إلى نشره ليلاقي نفس المستوى من المقبولية الذي لاقاه من قبله كتاب الحسين. وأكثر ما أخشاه وأخافه، أن لا

يبلغ هذا المستوى.

❖ كيف تقرأون المظلومية وتفسرونها في المدرسة والثقافة الحسينية؟

بارا: سؤال جيد. المظلومية هي الرُّكن الأساسي الذي يقوم عليه تحرك الحسين عليه السلام، ولذا يُقال له: الحسين المظلوم، ولم يُعرف بهذا الوصف أحدٌ غيره. علينا أن ننظر لماذا سُمي الحسين بهذا الاسم؟

السبب في ذلك، أن الظُّلم الذي لحقه وحلَّ به، سواء من جهة أتباعه أو أعدائه، كان ظُلماً عظيماً. فمن الحين الذي طلب منه أتباعه القدوم عليهم بالكوفة، ليلقى عند قدومه حشداً غفيراً من مقاتليهم وسيوفهم المشهورة في وجهه، وخيانةً وغدراً وقلةً وفاء، وليتركوه وحيداً في مواجهة مصيره؛ وإلى الحين الذي تهادى أعداؤه في ميدان القتال في ظلِّهم له وغِيَّهم عليه إلى أن بلغوا حدَّ قتلته، هذا القتل الذي لم يكن طبيعياً ولا عادياً، فلقد قتلوه ظُلماً وعدواناً؛ وإنَّ الممارسات التي مارسوها في حقِّه، والانتهاكات التي تجاسروا على فعلها بيدنه الطَّاهر، حتَّى داسوا عليه بالخيول وقطعوا رأسه ومزَّقوا منه الثَّياب، هذه الجنايات الفظيعة كانت هي التي أدَّت إلى التصاق وصف المظلومية بالحسين.

وإنَّ الظُّلم الذي حلَّ به بسبب الإهانات والانتهاكات التي قاموا بممارستها على جثمانه الطَّاهر، هو أكبر بكثير من المظلومية التي لحقت به على أثر غدر مَنْ راسله. بل إنَّ مظلوميته التي حلَّت به فوق رمال كربلاء هي أكبر مظلومية. فلمْ يا تُرى لمْ يكتفِ أعداؤه بقتله، بل قاموا بتقطيع أعضاء جسده؟! أوليست المثلة بالجسد بأشدَّ من القتل وفي كافَّة الأديان السَّماوية؟! هذه المظلومية الرَّاسخة في قلوب النَّاس وأذهانهم تذكرهم كيف أنَّ هناك جماعةً دعَّوه إليهم، ثُمَّ كانوا ظالمين له مُتعدِّين لحقه من كافَّة النَّواحي: المادِّية والمعنويَّة، وتذكرهم - أيضاً - كيف أنَّ أعداءه في المعركة استباحوا كُلَّ هذه الجرائم، وقطعوا رأسه الشَّريف، وعفَّروا جسده بالتَّراب، وهي جرائم لا تُرتكَّب حتَّى في حقِّ أسوأ المُجرمين،



وهذا في حدّ نفسه هو المظلومية التي لا يفي بوصفها بياناً ولا كلام.

❖ صرفتم من عمركم سنواتٍ بحثاً وتحقيقاً وكتابةً لأجل الحسين عليه السلام، فهل لمستتم من هذه الناحية شيئاً من العناية أو البركة؟

بارا: أثناء تأليفي لكتاب «الحسين في الفكر المسيحي» أحسنتُ ببركاته. وهي عبارة عن الإحساس بالرّضا والرّاحة والاطمئنان الرّوحي والنّفسي. وإني كلّما شعرتُ بالضيق والكآبة وعدم الارتياح أذكر تضحيات الحسين، فأعلم أنّ مصاعب الدّنيا وشدائدها لا تعادل شيئاً إزاء ما فعله الحسين وما نزل به. إني دائماً ما أخطر هذا الموضوع في بالي، وأضع التّعاليم الموجودة في كتاب «الحسين في الفكر المسيحي» نُصب عيني ليلاً ونهاراً، وأراجع وأطالع فيه دائماً، حتّى كأنني لستُ أنا الذي كتبتُه وألفته، بل كلّما فتحتُه وقرأتُ فيه أشعر كأنني قرأتُ كلاماً جديداً لم يطرق سمعي من قبل.

ولا تقتصر البركة على البركة المادّيّة المتمثّلة في عقود العمل أو المال أو شراء المنزل أو سائر الأمور المادّيّة؛ فإنّ هذه الأمور أمورٌ زائلة لا يهتمّ لها الحسين عليه السلام ولا النّبي عليه السلام ولا عيسى عليه السلام. البركة الأضليّة، هي البركة الرّوحيّة والمعنويّة والنّفسيّة، فإنّها أهمّ رأس مالٍ يُمكن للإنسان أن يملكه ويحصل عليه. وإني أشعر بالتوفيق الإلهي، وأعلم أنّه ليس إلّا ببركة الكتاب الذي كتبتُه في الحسين ولاجله؛ وذلك لأنّه يُعيد إلى الأذهان مظلوميّة الحسين، ويترتّب على هذا التذكير بمظلوميّته ثوابٌ عظيم، وهذه هي البركة الرّوحيّة والمعنويّة التي لا زلتُ أنتعم بها.

❖ كيف تقيمون الدّور الذي لعبته - وتلعبه - كربلاء والملمحة الحسينيّة في إيقاظ الشعوب والمسلمين؟

بارا: أولاً: تعلّمهم وقعة كربلاء أنّ هدف الحسين عليه السلام من هذه الحادثة كان عبارة عن القيام في قبال الظّلم والظّالمن. فالإمام عندما أعلن مقتلته الشّهيرة:

« لا أُعطيكم بيدي إعطاء الدليل، ولا أقر لكم إقرار العبيد، فقد علّم الجميع بذلك أنّه عليهم أن لا يرضوا بأيّ من أشكال الظلم، سواء ما كان منه في حقّ النفس أو في حقّ الآخرين.

عاشوراء تعني: شجاعة مخالفة الظلم، تعني ملهمة الحرّية الفرديّة وحرّية السلوك والفكر على الصّعيد الاجتماعيّ وفي المُجتمعات البشريّة ككلّ. فالحياة ليست أكلاً وشرباً ونوماً فقط، وإنّما الحياة عقيدةٌ وجهاد، والإنسان الفاقد للعقيدة والمبادئ يتحوّل ليُصبح كالحَيوان يهيم على وجهه في الشّهول والجبال دونها هدفٍ أو مبادئ أو عقيدة. وفي كلّ مرّة يتمّ فيها تكرار أحداث واقعة عاشوراء وسرّدها وبيان إنجازاتها ونتائجها وعللها، فإنّها تترك على قلوب النّاس وأرواحهم وأحاسيسهم آثاراً هائلةً عظيمةً ومُلهمة. وهذه الإلهامات، تُرغم الإنسان على اتّباع ذلك العظيم، وتبعث فيه الشّعور بلزوم السّعي لتغيير حياته والعمل على إيجاد تحوّل وانقلابٍ في طريقة عيشه. وإنّ كربلاء هي المحكّ والمحور الذي على أساسه تتبدّل معيشة الإنسان ونظّرتة إلى الحياة.

❖ في نفس هذا السّياق، فهل تعتقدون أنّ الانتصار الأخير لحزب الله على العدوّ الإسرائيليّ في لبنان حمل مسحاتٍ وآثاراً وعلائم مُستمدّة من حادثة كربلاء؟

بارا: أجل، هكذا كان الأمر بالدقّة، لقد دُعيتُ منذ مدّة إلى مؤتمرٍ في سوريا، وألقيتُ فيه آياتاً من الشّعر، مضمونها: أنّ الشّباب الغيور الذين وقفوا ضدّ إسرائيل في جبهة الحقّ، هم شبابٌ استلهموا من ثورة الحسين عليه السلام، وأنّ تحرّكهم وانتفاضتهم في مواجهة الأعداء هي كتحرّك الحسين وأصحابه وقيامهم، فلقد استقبلوا - جميعهم - الشّهادة، فقط، لكي يُتعدوا الدّلة والهوان عن أنفسهم. وهم بهذا القيام والصّمود قد تأسّوا بسيرة الحسين عليه السلام، وبالطّبع، فإنّ الهجوم الوحشيّ الذي جرى عليهم لم يكن عملاً عسكريّاً عادياً، إلّا أنّ العون والمدد

الإلهيتين تدققا عليهم.

✽ بوضفك أديباً ومفكراً مسيحياً قام بمطالعات كثيرة في التاريخ

الإسلامي، كيف تُفسرون المفردات التالية: المسيحية، الإسلام، والتشيع؟

بارا: المسيحية جزء من الدين الواحد العام الذي أرسله الله تعالى للبشرية، وبدأه باليهودية ثم وصل إلى المسيحية، ليختتم بالإسلام، وليكون محمد ﷺ خاتم الأديان السماوية. المسيحية دين صوفي روحي ظهر في زمان كان فيه الناس في أشد الحاجة إلى الأمور الروحية والمعنوية، ولذا كان عيسى ﷺ نبي المحبة والروحانية. وقد أعطاه الله تعالى القدرة على القيام بأمر خارقة للعادة، في حين لم يكن أنبياء آخرون يتمتعون بهذه الخصوصية. ثم عندما نزلت آية: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [آلة: ٣]، فإنها كان المقصود: أن الدين الكلي الواحد قد اكتمل وبلغ الغاية برسالة الإسلام.

إن كلا الديانتين: المسيحية واليهودية، كان لديها في زمانها معجزات، ففي زمان موسى ﷺ كان الرائج بين الناس هو السحر والشعوذة، فبعث موسى ﷺ بمعجزات تتناسب مع ذلك الزمان، وتحولت عصاه ثعباناً، وفجر من الحجارة عيوناً. وأما في زمان عيسى ﷺ فقد كان الطب هو الرائج والمتداول، فسلک عيسى ﷺ لإثبات معجزته طريق إحياء الموتى ومداواة المرضى من ذوي الأمراض المستعصية. ثم بعد برهية من الزمن، حين كانت الفصاحة والبلاغة والجمال اللساني والأدبي هي الميزان والمعيار للتفاضل العقلي في المجتمع، أرسل الله تعالى محمداً بدين الإسلام، وأنزل عليه القرآن لإثبات نبوته.

نحن نعتقد أن جميع هذه الأديان السماوية هي من قبل الله عز وجل، وأنها بمجموعها تشكّل قالباً للدين الكلي الواحد، تجلّى وظهر على شكل ثلاث رسالات سماوية. ولكن الذي يميّز الإسلام عن هاتين الديانتين أنه يتوفّر على قيم وتعاليم كان الإنسان إبان اليهودية والمسيحية محروماً منها وفاقداً لها، وأن

الإسلام جاء ليُكَمِّلَ سائر الأديان بتعاليمه هذه، وهو استمرارٌ لهذه الأديان، وخاتمٌ لها، ومكملٌ لنواقصها. وعلى كُلِّ حال، فجميعنا مُسلمون؛ لأننا جميعاً نُسَلِّمُ بخالقٍ وإلهٍ واحد، كما نُسَلِّمُ بِكُلِّ من التَّوراة والإنجيل والقرآن.

وأما التَّشيعُ، فهو بنظري أعلى درجات العشق الإلهي، ومن الطَّبيعي أن يُقال لكلِّ محبٍّ لأهل البيت من ذرِّيَّةِ مُحَمَّدٍ وعليٍّ: إنه شيعيٌّ، بل هذا يشكِّلُ مصدر اعتزازٍ وافتخار للبشريَّةِ جمعاء، وإنَّ بإمكان أيِّ شخصٍ في هذا العالم، مهما كان دينه، أن يكون شيعياً، لو أنَّه يرى ما في أتباع أهل البيت من عظمة، مع المحافظة على جماليَّات عقيدته وإيجابياتها. هذا.

والطَّرِيفُ في الأمر، أنَّ الآخرين يُطلقون عليَّ اسم «المسيحيِّ الشَّيعيِّ»، وذلك لكثرة ما تحدَّثْتُ عن الشَّيعة في كتاباتي ومقالاتي!!

❁ ألا ترى أنَّ التعبير الذي تُحكى به عن نفسك قائلاً: «أنا مسيحيٌّ شيعيٌّ» تعبيراً متهاقناً ومتناقضاً في حدِّ ذاته؟!

بارا: أنا وإنَّ لم أكنْ أوَّلَ مَنْ أتى بهذا التعبير، إلَّا أنني مع ذلك، أفتخر بكوني مسيحياً شيعياً، وبالطَّبع، فإنَّ هناك أفراداً كثيرين، ومن سائر الأديان والمذاهب، يتفقون معي في هذه الفكرة، وليس فيها أيُّ تناقض أو تهافت؛ فإنَّ التَّشيعَ إنَّما يَعْنِي: المحبة، والتَّقبُّل، والعشق، والهيام، والافتداء، والاتباع؛ هذه هي حقيقة التَّشيع.

ذات مرَّة، كُنْتُ مُشاركاً في أحد المؤتمرات في سوريا، إذ قام الشَّاعر السُّوري «محمَّد الرُّفاعي» باستخدام تعبيرٍ رائعٍ في حقِّي، يقول فيه: «المسيحيَّة دينه، والإسلام هويَّته، والتَّشيعُ هواه، والعربيَّة لغته». فبالنسبة للشُّقِّ الأوَّل من هذه العبارة، فمعلومٌ أنَّ المسيحيَّة موجودةٌ لدينا خلفاً بعد سلف. وهويَّتي الإسلام؛ لأننا مواطنون في واحدٍ من البُلدان الإسلاميَّة، وقد تربَّينا وكبرنا على الميراث والهويَّة والثقافة الإسلاميَّة، ونُعَدُّ جزءاً من النَّسيج الإسلاميِّ القديم في

المجتمعات الإسلامية. والأمر بهذا الشَّكل؛ لأنَّ المسلمين والمسيحيين في مجتمعاتنا الإسلامية اليوم لا يُمَيِّزون ولا يُعرَف بعضهم من بعض، فعاداتهم وتقاليدهم واحدة، وأساليب حياتهم وطرق عيشهم ولباسهم واحدة، ولذلك، فإنني من حيث الهوية والمواطنة، لديَّ هويَّة المسلم وشخصيَّته. وأمَّا الهوى الشَّيعي، فهذا المعنى وهو: أنِّي لا أريد أن يكون لي نزعة وميل نحو محمد بن عبد الوهاب (مؤسس فرقة الوهابيَّة). إنني أهيِّم عشقاً بالحسين، وهو وخده عشقي وغرامي، والحسين إنَّما هو التَّشيع. وأمَّا ما يتعلَّق باللُّغة، فمعلومٌ أيضاً أنَّ العربيَّة هي لغتنا الأم. إنَّ هذه الأركان الأربعة تدلُّ على الإنصاف وسعة الصِّدْر والرُّؤية المفتحة وعدم الانغلاق والعصبيَّة، لا بمعنى أن تُنكر عقيدتنا، بل بحيث نقدِّس عقائد الآخرين ونحترم شعائرهم في نفس الوقت الذي نحفظ فيه بعقيدتنا وندافع عنها.

نحن في المسيحيَّة، بحثنا وسعينا دائماً للتَّفَتُّيش عن مظاهر الجمال، وقد توصلنا إلى أنَّ شخصيَّات كُلِّ من الحسين عليه السلام والإمام علي عليه السلام والنَّبي الأكرم عليه السلام تستبطن كُلَّ هذه المظاهر الجماليَّة وتتضمَّنُها. وهذه حقيقة لا يتسنَّى تجاهلها وعدم رؤيتها إلَّا لِمَن كان مُنكراً جاحداً أو عدواً معانداً.

والخلاصة: أنِّي لا أرى تناقضاً ولا تهافتاً بين هاتين المقولتين، بل هما قابلان للجمع.

\* \* \*

## من أنباء عاشوراء

□ إعداد: علي أحمد الحسن

(١)

التي جرت عليه إلى كُُلِّ المعلومات  
المفيدة التي سُجِّلت حول هذه  
الشَّخصية من بداية تاريخها إلى  
عصرنا الحاضر.

دَوَّنت دائرة المعارف هذه في سِتِّين  
باباً نُظِّمت في علوم وفنونٍ مختلفة؛  
بحيث يتفاوت كُُلُّ بابٍ عن الأبواب  
الأخرى، مع الاشتراك بينها في  
محورية سيِّد الشهداء عليه السلام.

يُمكن الإشارة في هذا التقرير  
المختصر إلى جملة من أبواب هذه  
الموسوعة: التَّشريع والفقه  
الاستدلالي بأسلوبٍ حديث،  
التَّاريخ، السِّياسة، الأدبيات،  
الحديث، الرِّجال، المنبر، الأدعية

دائرة معارف الإمام الحسين عليه السلام  
تعتبر دائرة معارف الإمام  
الحسين عليه السلام المؤلفة من (٦٠٠) مجلِّد  
أكبر دائرة معارف في العالم، وأكمل  
موسوعة تتكلَّم حول الإمام أبي عبد  
الله الحسين عليه السلام. وهي تأليف وتدوين  
العلامة الشَّيخ مُحَمَّد صادق  
الكرباسي. وتشتمل مجلِّداتها السُّتة على  
(٣٥٠) ألف صفحة، و (١٥٠)  
مليون كلمة. جعل المؤلف المحور  
الأصلي لهذه الموسوعة هو المولى أبي  
عبد الله، سيِّد الشهداء، وسيِّد شباب  
أهل الجنَّة، وتضمَّنت لكُُلِّ ما يرتبط  
به صلوات الله عليه؛ من الأحداث

- والزيارات، دفع الشُّبهات، الثقافة،  
الفنون، وغيرها.
- ومن جملة المطالب المنتظمة في هذه  
الموسوعة:
١. سيرة الإمام الحسين عليه السلام في  
(١٠) مجلدات.
  ٢. الإمام الحسين عليه السلام والتَّشريع  
الإسلامي في (١٣) مجلداً.
  ٣. شُبهات وردود في (١٠)  
مجلدات.
  ٤. تاريخ الحرم والمقامات  
المرتبطة بالنَّهضة الحُسينيَّة في (٧)  
مجلدات.
  ٥. القصائد العربيَّة التي نُظمت  
في حقِّه عليه السلام من القرن الأوَّل إلى  
القرن الخامس عشر للهجرة في (٦٤)  
مجلداً.
  ٦. دواوين الشُّعر العربي المرتبطة  
به عليه السلام، مع بيان قيمتها الأدبيَّة،  
وتحقيق أوزانها وما يرتبط بذلك، في  
(١٤٣) مجلداً.
  ٧. التَّحقيق الأدبي للأشعار  
المرتبطة به عليه السلام، وبيان وسرِّ قيمتها
  - الأدبيَّة في (١٠) مجلدات.
  ٨. تحقيقات حول تاريخ الشُّعائر  
الحُسينيَّة في (١٠) مجلدات.
  ٩. تحقيقات خُول مدينة كربلاء  
من زوايا وأبعاد مختلفة؛ تاريخيَّة،  
جغرافيَّة، سياسيَّة، علميَّة، ثقافيَّة،  
وغير ذلك، في (٢٣) مجلداً.
  ١٠. العومل السِّياسيَّة لنهضة  
الإمام الحسين عليه السلام في ثلاثة مجلدات.
  ١١. في نسبه عليه السلام ونسله، في  
مجلدين.
  ١٢. الإمام الحسين عليه السلام في القرآن،  
في ثلاثة مجلدات.
  ١٣. الإمام الحسين عليه السلام في  
الأحاديث والرِّوايات، في (١٢)  
مجلداً.
  ١٤. صحيفة الإمام الحسين عليه السلام،  
في مجلدين.
  ١٥. أحاديث الإمام الحسين عليه السلام،  
في ثلاثة مجلدات.
  ١٦. كرامات الإمام الحسين عليه السلام  
في مجلدين.
  ١٧. في المنامات المرتبطة به

وتأويلها، في ثلاثة مجلدات.

١٨. ديوان الأشعار الفارسيّة، في

(٥٥) مجلداً.

١٩. ديوان الأشعار بالأردو، في

(١١) مجلداً.

٢٠. ديوان الأشعار بالإنكليزيّة،

في ثلاثة مجلدات.

٢١. ديوان الأشعار باللغات

الأخرى المختلفة، في أربع مجلدات.

٢٢. زيارات الإمام الحسين عليه السلام،

(٦) مجلدات.

٢٣. موارد أخرى متفرقة.

علماً أنّ هذه المجموعة دُوّنت

باللغة العربيّة، وصدر منها إلى الآن

(٣٢) مجلداً، و(٣٠٠) منها تحت

الطبع. والعناوين التّالية من جملة

العناوين التي تمّ صدورها: الحسين

والتّشريع الإسلامي، السّيرة

الحسينيّة، الحسين الكريم في القرآن

العظيم، الرّؤيا، مشاهدات وتأويل،

معجم الشّعراء، معجم الخطباء،

معجم المصنّفات، ديوان الإمام

الحسين، المدخل إلى الشّعر الحسيني،

مجموعات مختلفة من الدّواوين.

(٢)

مؤتمرات عاشوراء لهذا العام

عُقد في هذا العام عدّة مؤتمرات

ترتبط بعاشوراء وثورة الإمام

الحسين عليه السلام، أهمّها اثنان:

الأوّل: عقد المجلس العلميّ في

البحرين مؤتمره العاشورائيّ الأوّل

تحت عنوان (الممارسات العاشوريّة

نقداً ومعالجة) بمشاركة نخبة من

العلماء والمفكرين. كما تضمّن ورشة

عملٍ متخصصةٍ حول الشّعائر

الحسينيّة، وقد استمر المؤتمر لثلاثة

أيام، ونظراً لأهميّة الموضوعات التي

عالجها المؤتمر نعرض هنا خلاصة

لأهمّ الدّراسات والكلمات وأوراق

العمل التي قدّمت في هذا المؤتمر،

وهي دراسات جادة تناولت

الموضوع بروح علميّة شفافة.

كلمة الافتتاح كانت للشّيخ محمّد

صنقور، والتي تناول فيها شخصيّة

الخطيب الحسيني مركّزاً على أهميّة

كون الخطيب مُميّزاً في السّوعي



الدِّني، وعارفاً بالتفسير والعقائد ومقاصد الشريعة. ونوّه صنقور بضرورة أن يكون الخطيب عاملاً بما يقول؛ ليكون له تأثيره في المجتمع، مشيراً إلى وعي المستمع، على اعتبار أن مُستمع اليوم على وعي كبير وباستطاعته أن يُناقش الخطيب في المسائل المطروحة. ولذلك على الخطيب التّثبت من المعلومة التي يُطلقها وألا يُلقّي الكلام على عواهنه.

وأضاف: أنّه لا ينبغي بالخطيب أن يكون همّه أن يتفاعل معه الجمهور حتى لو كان ذلك على حساب الحقيقة.

كما وألقى الشّيخ منير المعتوق كلمةً جاء فيها: لعلّ هناك تصورات وأفكاراً وأساليب في تطوير المنبر الحسيني والخطابة الحُسينيّة؛ إذ أنّ البعض يرى أنّ المنبر الحسيني لا بدّ أن يعيش الأصالة والهويّة الأصيلة ذات الطّابع القديم في طريقتة، وأنّ يعيش الحرّيّة التّجديدية للجماهير

الحُسينيّة. يُضاف إلى ذلك وجود المشكلات العالقة بين الخطباء أنفسهم، أو بينهم وبين المآتم - مثلاً - والتي تحتاج إلى حلول جذريّة وعمليّة، ولا سيما في ظلّ الخطابة الوافدة من الخارج التي أثّرت بشكلٍ أو بآخر على خطباء المنبر الحسيني تأثيراً سلبياً مع ما لها من الأمور الإيجابية.

ومن الدّراسات التي قُدّمت للمؤتمر دراسةٌ للشّيخ محمود العالي تحت عنوان (شرعيّة الممارسات العاشورائيّة)، وهي ورقة عمل لتأصيل وتعميق الممارسات والشّعائر الحُسينيّة، وتتناول جملةً من الممارسات كالبكاء، مُستعرضة الروايات الواردة في ذلك، ومُستدلةً عليه بصدور هذا الفعل من أئمة الهدى، مع تنويع في الأدلة من العقل والنقل. ثم يتعرّض الكاتب ثانيةً لمسألة إقامة المآتم ومجالس العزاء، وثالثةً لمسألة الجزع ولبس السّواد، فيما يجعل النّقطة الرّابعة حول الشّعائر والممارسات

المستجدة، كالأعمال المسرحية والتصوير والتمثيل، ويرى أنها ما دامت تحوز على الضابطة المعتبرة فهي مشروعة، وهذه الضابطة تتكوّن من أمرين: أن تكون تعبيراً عُرْفياً عن الحزن والأسى والتعظيم، وأن تكون ذات محتوى إنساني وفكري متناسب. وأما السيّد مجيد المشعل، فإن ورقة العمل التي قدّمها للمؤتمر تناولت عنواناً هو (الممارسات الخاطئة في عاشوراء وسبل معالجتها)، ويرى أن عملية النقد والتصحيح للمراسم الحسينية تُعتبر حالة ضرورية، من أجل تنزيه هذه المراسم مما يشينها والحفاظ على صفاتها ورسالتها. ويذكر الباحث أن الظواهر الخاطئة تارة تكون في نفس الممارسة، وأخرى في بعض السلوكيات والتصرّفات المقارنة عادة للممارسات العاشورائية، ومثال الأول: المشي على الجمر. ومثال القسم الثاني: حالة التفرّج على مواكب العزاء لاسيما عندما يكون المنفّرّجون من النساء، أو

الإنشاد الملحن بصورة لا تتناسب مع واقعة كربلاء ومضمونها الديني، أو خلع الملابس وإظهار النصف العلوي من البدن عند الرجال. وفي نفس العنوان السابق يكتب الشّيخ فاضل السّتري في ورقة العمل التي قدّمها عن الممارسات الخاطئة، مُركّزاً حديثه عن الموكب الحسيني والملاحظات المسجلة على هذه المواكب لتصل إلى حدود تسع ملاحظات. تناول فيها القصيدة العزائية بين ضعف المضمون وسلبية المحتوى؛ فتحدّث عن مشكلة فقر المضمون فيها أو مصادمته للفكر الإسلامي الصحيح. وكذلك عن مُشكلة التناول غير الناضج للقضايا - لاسيما الحساسة منها - كالقضايا السياسية أو الخلافات المذهبية أو الاجتماعية. مضافاً إلى استعراضه لبعض الملاحظات الإجرائية التطبيقية. وتحت عنوان (الإبداع والتطوير في الممارسات العاشورائية) قدّم السيّد

محبي الذين المشعل ورقة عمل تناول فيها المجال الذي يُمكن فيه التطوير والإبداع، وذلك بعد تقسيمه للممارسات العاشورائية إلى جانبين: جانبٌ ثابت، وهي العباديات الواردة في عاشوراء كالصَّيام والزَّيارات والأدعية والبكاء والحزن والجزع. وجانبٌ متغيّر، وهو عبارة عن الوسائل التي يُمكن من خلالها التعبير عن الأهداف التي حملتها رسالة عاشوراء. مُقترحاً مجال التطوير في المنبر الحسيني باعتماد آليات جديدة في هذا المنبر، أو في العمل المسرحي، أو التصوير الفني، وكذلك في افتتاح مؤسسات تخصّصية في الجوانب المختلفة.

ومن الأبحاث التي قدّمت في هذا المؤتمر ما تفضّلت به الأخت رقية الكنكوني مديرة حوزة الغريفي النسائية تحت عنوان (الحضور النسائي في الشّعائر الحسينية)، وهي دراسة مطوّلة تناولت فيها كلّ جوانب الوضع النسائي في الشّعائر

الحسينية، وطرحت فيها كلّ ما يشوب الحضور النسائي من مشاكل، والحلول المقترحة لذلك.

وأما كلمة الختام في المؤتمر فقد كانت للشَّيخ عيسى قاسم، وقد أشار فيها إلى أنّ هناك مظاهر غير أخلاقية وغير منضبطة صارت تتسلّل إلى الأجواء الطاهرة، وانتشار النزاع الدنيوي بين أهل بعض الحسينيات، والانحسار في التفاعل المطلوب مع المجلس الحسيني عند فئة من الشَّباب، والشُّعور الكاذب والمغالط بعدم الحاجة لمثل هذه المجالس. من أجل هذا كلّه، ومن أجل أمورٍ أخرى لا بدّ أن نقيم لعاشوراء مؤتمرات، ولا بدّ أن ندخل في دراسات ميدانية وفكرية لتطوير عاشوراء وثبيت قضيته في نفوس الجيل بعد الجيل.

وأضاف إنّ عاشوراء أعطت الكثير زخماً استمرّ به الإسلام على المستوى العاطفي، كما أعطت فكراً عملاقاً ثبّت الأجيال على طريق التوحيد، وعاشوراء هي مدرسة في

عالمنا الإسلامي، لها الفضل في تثبيت الفكر الإسلامي والدفع بالدفة الإسلامية إلى الأمام. ويبقى عطاء عاشوراء أكبر وأكثر من كُلِّ عطاء، ويبقى مكنون خزائن عاشوراء أكثر مما كشفتها كُلُّ السنين، عاشوراء تبقى دائماً ثورة من أجل الله، ومن أجل الإسلام والصَّلاح.

الثاني: عقد في مدينة قم المقدسة في الجمهورية الإسلامية الإيرانية مؤتمرًا حمل عنوان (عاشوراء والانتظار)، وذلك في قاعة المؤتمرات في المدرسة الفيضية بدعوة من مركز دراسات الخيمة، ومركز المهدوية للأبحاث التخصصية.

وقد أقيمت في المؤتمر العديد من الكلمات والدراسات المهمة. بداية تحدث الشيخ رضا أستاذي عضو جماعة المدرسين في الحوزة العلمية عن النهضة الحسينية التي قامت لتقويم الانحراف الذي وقع بعد وفاة النبي ﷺ، معتبراً أن إحياء عاشوراء هو المقرب للناس نحو الوعد الإلهي

بحكومة العدل، مذكراً بوجود علاقة بين الثورة الحسينية والانتظار.

كما وألقى السيد مهدي مير باقري رئيس مجمع العلوم الإسلامية كلمة تحدث فيها عن المجتمع المهدوي كمجتمع كان حليماً للأنبياء، وأن الأنبياء جميعاً قد مهدوا لظهور الإمام الحجة ﷺ، معتبراً أن من وظيفة الحوزة العلمية إحياء الفكر العاشورائي لأجل التمهيد للظهور.

وأما السيد رضي الموسوي الكيلاني، وهو من أساتذة الحوزة والجامعة فقد تحدث بدوره عن العلاقة العضوية بين عاشوراء والغيبة. وقال: إنَّ ترابطاً قائماً بين وقائع خمس: البعثة، الغدير، عاشوراء، الغيبة وقيام حكومة العدل الإلهي. وأشار أيضاً إلى أنَّ عاشوراء هي النتيجة المنطقية للانحراف والتحرّيف الذي وقع على حادثة الغدير. كما أنَّ الغيبة هي النتيجة الطبيعية للتقية والظلم الذي لحق بأئمة أهل البيت (عليهم السلام).

وكذلك ألقى السيّد معزّ الدين الحسيني أحد أساتذة الحوزة العلميّة كلمةً تحدّث فيها عن وحدة الهدف من النّهضة العاشوريّة والنّهضة المهدويّة. وهذا الهدف يتمثّل بالحرية والعدالة.

كما أُلقيت العديد من الدّراسات المقدّمة للمؤتمر، كالدراسة التي قدّمها الشّيخ رحيم كاركرك تحت عنوان: (دور عاشوراء في صراع الحقّ والباطل).

(٣)

### إحياء مراسم عاشوراء في العالم الإسلامي

شهد العالم الإسلامي في هذا العام إحياءً جماهيرياً حاشداً للمراسم المتعارفة في أيّام محرم الحرام وصفر، فإنّه بالإضافة إلى المشاركة الملاينيّة للشعب الإيراني المسلم، بجميع فئاته وطبقاته، وبشتّى أنواع المشاركات التي تُعبّر عن حالة الأسى والحزن الذي حلّ بفلذة كبد النّبّي المصطفى في مثل هذه الأيام، كذلك شهد العالم

الإسلامي مشاركة فعّالة، تُشير إلى بعض من الأنشطة والمشاركات التي كانت تحصل في بعض الدّول والأماكن المختلفة من العالم.

ففي أفريقيا الجنوبيّة اجتمع في المحلّ السّابق لسفارة الجمهورية الإسلاميّة الإيرانيّة جمعٌ من الإيرانيين المقيمين، وجمعٌ آخر من مسلمين البلد، وأقاموا مراسم العزاء في اليوم العاشر من محرم. وركّز الخطباء على أهميّة تعريف النّهضة الحسينيّة لشرائح الشّباب في المجتمعات المختلفة. كما وخُتمت هذه المراسم بإقامة صلاة الظّهر جماعةً على ذكرى تلك الصّلاة الأخيرة التي أقامها المولى أبو عبد الله الحسين عليه السلام في عرصة كربلاء.

كما وأقيمت بنفس المناسبة مراسم خاصّة في دولة ألبانيا، وكان الملفت للنّظر مشاركة جمعٍ من أئمّة الفرق الدّينيّة لشخصيّات محليّة، مضافاً إلى جمعٍ من محبّي أهل البيت عليه السلام، وشارك في هذه المراسم سفير الجمهوريّة

الإسلامية في ألبانيا. وُشّحت الكثير من الأماكن الدينية بالشعارات الكريلائية في سائر أنحاء العاصمة تيرانا والمدن الألبانية الأخرى.

وفي بداية شهر محرم الحرام اجتمع الآلاف من محبي أهل البيت (عليه السلام) في مناطق مختلفة من أمريكا الجنوبية؛ ففسي فنزويلا كسان المسلمون المهاجرون من لبنان والأردن وسوريا والعراق يجتمعون في حسينية الهادي الواقعة في مدينة كاراكاس، ويُقيمون الخطب الدينية ومجالس العزاء.

وفي واشنطن تزامناً مع أيام شهر محرم أُقيمت في مركز الآداب الإسلامية (IEC) برامج الخطب الدينية باللغة الفارسية مع الترجمة الإنكليزية، ابتداءً من الساعة السادسة مساءً إلى العاشرة، بالإضافة إلى قراءة زيارة عاشوراء والأدعية المناسبة.

كما وأقام المواطنون البلغاريون في عاصمتهم صوفيا مجالس العزاء بطريقتهم الخاصة ابتداءً من شروع

شهر محرم الحرام، وتُحتمت هذا المراسم في ظهر يوم عاشوراء بإقامة صلاة خاصة، انتهت بالأدعية والأنشيد الشعبية الخاصة عندهم بهذه المناسبة الأليمة.

وفي عاصمة تركيا بدعوة من جمعية التبليغ والتحقيق التابعة للمذهب الجعفري أُقيمت برامج خاصة بهذه المناسبة في إحدى ساحات العاصمة الكبيرة. وحضر في هذه المراسم شخصيات دينية، منها: صلاح الدين أوزكوندوز رئيس جمعية التبليغ والتحقيق المتقدمة، وبولنت ارينتش رئيس المجلس، واركان موجو قائد حزب الوطن، وعز الدين دوغان رئيس المؤسسة العلوية، ونهيات دوغان رئيس اتحادية المؤسسات العلوية التركية. كما وشهد في هذه المراسم الحضور الكثيف للمراسلين والصحفيين الأجانب.

ومن الملفت للنظر التغطية الواسعة لمراسم عاشوراء العالمية التي

قامت بها المحطة الفضائية الصّينيّة (CCTV)، فقد أعدت مجموعة كبيرة من التقارير حول إقامة مراسم العزاء في أنحاء مختلفة من العالم الإسلامي، كل ذلك بالصّور الحيّة والمباشرة.

وبنقل عن تلفزيون العربيّة حضر في يوم عاشوراء في كربلاء المقدّسة ما يُقارب مليون ونصف شخص من محبّي الإمام أبي عبد الله الحسين (عليه السلام).

ونقلًا عن مراسل (New York Times)، شارك في مراسم عزاء أبي عبد الله الحسين في المملكة العربيّة السعوديّة أكثر من نصف مليون مسلم. وهؤلاء بأجمعهم كانوا يحضرون في كلّ ليلة في المساجد والحسينيّات للاستماع إلى خطباء المنبر الحسيني. وكان الملفت للنظر مضافاً إلى الصّور والشّعارات المتعارفة في مثل هذه الأيام الوجود الفعّال لصور السيّد حسن نصر الله.

وفي حسينيّة الزّهراء في كندا أُقيمت مراسم العزاء مدّة (١٣) يوماً، شارك فيها المسلمون من

قوميّات متعدّدة. وتنوّعت فيها الخطابات باللّغة الإنكليزيّة والعربيّة من قبل الشّيخ جعفر الحائري.

وفي الكويت أُقيمت مجالس العزاء في جميع أنحاء البلاد بمشاركة عشرات الآلاف من خدام أهل البيت (عليهم السلام) وعشاقهم.

وتميّزت أيّام عاشوراء في هذه السّنة في لبنان بكونها أوّل عاشوراء بعد الانتصار السّاحق على العدو الصّهيوني في حرب تمّوز. وبتقرير وكالة الأنباء الفرنسيّة من بيروت، كتب الصّحفي الفرنسي (جويل باسول) ما ملخصه: تجمّع عشرات الآلاف من مسلمي لبنان في الضّاحية الجنوبيّة من بيروت، مقرّ حزب الله، تجمّعوا متظاهرين بين الأبنية التي دمرها الهجوم الإسرائيلي على لبنان، بشعارات الموت لإسرائيل، والموت لأمريكا. وقد حمل المتظاهرون رايات الحزن السّوداء، والأعلام الخضراء (رايات الإسلام)، والأعلام الصّفراء التي تُعبّر عن انتباههم السّياسي إلى

حزب الله، بضميمة الأعلام اللبنانية. تموز وهي في حالة الإصلاح والترميم  
ومشى المتظاهرون باتجاه المكان من قبل حزب الله. وبعد ساعتين على  
الذي سيخطب فيه السيد حسن نصر هذا المنوال وصل المعزّون إلى مكان  
الله، وكانت شعاراتهم المؤيدة لحزب التّجمع الحاشد، والذي ختم  
الله والمخالفة لحكومة فؤاد السنيورة بخطابٍ للسيد حسن نصر الله الأمين  
تدوّي بين البيوت التي دمرتها حرب العام لحزب الله.

\* \* \*



## لسانُ حالِ المولى

أبي عبد الله الحسين عليه السلام

□ حسن المرعي (\*)

يُجْمَعُ كُلُّ السُّيُوفِ عَلَيَا  
يَصِيحُ وداعاً وحيناً إِلَيَا  
وَأَنَّ هُنَالِكَ وَخِدي أَيَّيَا  
وعِنْدَ الوقوفِ سَيَقْتَاتُ يَيَا  
تَقَاسَمُ أَوْجَاعُهُ وَالِدَيَا  
جِياعُ النُّكَالِي وَلَسْتُ الرَّدِيَا  
حُوءاً تَوَّمُ وشُعْباً خَزَيَا  
قُبُورِ الصَّحَابِي وَيُسَعِّدُ حَيَا  
وَيُخَفِّضُ تَحْتَ السُّكُوتِ إِلَيَا<sup>(١)</sup>  
وَتَسْقِي الرِّوَاغِدُ ابنَ (سُمَيَّا)<sup>(٢)</sup>

أَتَيْتُ وَجُزْحي كَحَقِّي دَوِيَا  
أَتَيْتُ وَقَبْرُ الحَيِّبِ بظَهري  
وَأَعْلَمُ أَنَّ الرِّسَائِلَ جَبْرُ  
وَأَنَّ الغُرَابَ يُسَايرُ رُكْبِي  
وَأَنَّ الحَيَاةَ مَسِيرَةٌ جُزْجِي  
وَلَسْتُ المَهْيُضَ إِذَا اسْتَصْرَخْتَنِي  
وَكُنْتُ الصَّبُورَ إِلَى أَنْ رَأَيْتُ  
وَقَرْدُ الخَلِيفَةِ يُدْفَنُ بَيْنَ  
وَصَوْتُ المنابرِ يرفعُ حَرْباً<sup>(٣)</sup>  
وَتَسْجَنُ ابنَ البَتُولِ رِمَالُ

(\*) شاعرٌ مبدعٌ من سوريا.

(١) حَرْب: هو الجَدُّ الأكبرُ ليزيد بن معاوية.

(٢) إِلَيَا: هو أحدُ أسماءِ عليٍّ بن أبي طالب.

(٣) سُمَيَّة: هي جدَّةُ عبيدِ الله بن زياد.

فجئتُ والواخُ جدِّي بصدرِي  
أحملُ ثقلَ الأمانةِ رخلي  
فأتلُ العراقَ يؤمُّلُ منِّي  
وجنُّ الشامِ تريدُ انتقاماً  
فأحرمُ عذبَ صدّاقِ البتولِ  
أيعقلُ أنا نموتُ ظمأً  
وأطلبُ رشفةَ ماءٍ لابني  
فقمْتُ فُبيلَ النّزالِ خطيباً  
وضُبحاً حسبتُ كئائبَ جيثي  
ودارتِ رَحاهُ مُحطّطُ أهلي  
وعُريتُ حتّى بقيتُ وحيداً  
فصخْتُ أنا ابنُ المحمّدةِ  
ومرجانُ بحرٍ وريحانُ رضوى  
ألا تسمعونَ بأهلِ الكِسَاءِ  
عرفتمُ بأنّي الحسينُ هناك  
فلما علّمتُ بأنّي الفداءُ  
وقبلتُ جدِّي تُوسّعُ جُرحي  
وأنّ شريعةَ جدِّي ستحيّا  
صرختُ بجيشتي وبذو الشامِ

وَجَبْرُ العراقِ على كَتَفَيَا  
عَدَا الجَيْبَ منِّي خَفِيفاً بَلِيّاً  
وثيرَ القصورِ وعيشاً رَخِيّاً  
لشاراتِ بذرٍ وقتلِ (أُمَيّا)  
لألقى النّبيّ ذبيحاً صَدِيّاً  
ورجسُ البهائمِ ترجعُ رَيّاً؟  
فيسقى الوليدُ مُراشاً<sup>٤</sup> حَمِيّاً  
لأجلو حقّاً وأدحضَ غَيّاً  
فما كانَ حولي إلّا يَدَيّا  
فظهري قسيمٌ على جانحيّا  
أقابلُ جيشاً لِدَمِّي ظَمِيّاً  
ونجلُ الهلالِ ونورُ الثُّريّا  
وشبلُ عليٍّ وحسبي وصِيّا  
أما كانَ جدِّي النّبيّ حَفِيّاً؟  
وأنكرتموني هنا علويّاً؟  
ودمّي سَيْرٌ سَمٌ دَرْباً مَنِيّاً  
لأصبحَ كُليّ نحرّاً طَرِيّاً  
بظُلُمي إماماً وقسّلي نَجِيّاً  
وبيضِ البواترِ هَيّا عليّاً

\* \* \*

(٤) المُرّاش: السَّهْمُ الذي رَاشَهُ نَابِلُهُ.



## حُجَّةُ سيرة أهل البيت عليهم السلام في المسائل السياسيَّة والاجتماعيَّة

□ الشيخ حسين عبد المحمدي (\*)

تعتبر سُنَّةُ أهل البيت عليهم السلام <sup>(١)</sup> على مرَّ العصور إحدى أهمِّ المصادر الأساسيَّة للتعرُّف على الإسلام وفهمه فهماً صحيحاً. ومن هذا المنطلق كانت مورداً لاهتمام أتباع مذهب أهل البيت عليهم السلام، وكان فعل المعصومين وتقريرهم - كقولهم - حُجَّةً في جميع الأبعاد المختلفة عند العلماء، بما فيهم الفقهاء والمتكلِّمين وعلماء الأخلاق و...، بلا أن يكون هناك فرقٌ في ذلك بين سيرتهم العمليَّة في الجوانب العباديَّة والسياسيَّة والاجتماعيَّة.

إلَّا أنَّه في العصر الحاضر بدأت ترتفع من بعض المثقَّفين بعضُ الأصوات - وبأهداف مختلفة - التي تُشكِّك في حُجِّيَّة تلك السيرة في غير الأمور العباديَّة، كلُّ ذلك من دون إقامة دليلٍ أو برهانٍ يُمكن أن يُعوَّل عليه.

فبين منكرٍ لولاية المعصوم ووجوب إطاعته في الجانب السياسي فضلاً عن

---

(\*) عضو الهيئة العلميَّة للمركز العالمي للدراسات الإسلاميَّة، ورئيس قسم التَّاريخ في المدرسة العُليا للفقه والمعارف الإسلاميَّة.

الفقيه، وبين مدّع أن المعصوم وإن كان أسوء وقدوة، إلا أن الاقتداء به منحصر في زمانه، ولا يمكن التّجاوز عنه إلى زماننا، وأنّ التّمسك بقوله فضلاً عن فعله ظلمٌ وجورٌ يقبح القيام به<sup>(٢)</sup>.

والملفت للنّظر أنّ بعض هؤلاء المشكّكين في سعة حجّة سنّة المعصوم قد شكّك - أيضاً - في شموليّة الدّين لجميع أبعاد الحياة، وحصره في المسائل الفرديّة والعباديّة.

وسوف نستعرض في هذه المقالة جملةً من الأدلّة المثبتة لحجّة عمل المعصوم وسيرته، ونظرنا وإن كان إلى إثبات الحجّة للسيرة السياسيّة والاجتماعيّة، إلا أنّ الأدلّة المقامة تثبتها على وجه عام.

### أدلة حجّة سيرة أهل البيت في الحقلين السياسي والاجتماعي:

كما أنّ تعاليم الإسلام لا تنحصر بالحقل العبادي والأخلاق الفرديّة، بل كانت شاملةً لجميع الحقول التي تهتمّ حياة البشر، كذلك الحال بالنسبة لسيرة أهل البيت (عليهم السلام)؛ حيث إنّها التّجسّم العيني لتعاليم الإسلام في جميع ميادين حياة البشريّة<sup>(٣)</sup>. وذلك لأنّ الله تبارك وتعالى جعلهم أدلاءً على طريقه، وأسوةً بحق، في العبادة والتّقوى، والعلم والفكر، والإيثار والتّضحية، والشّجاعة والجهاد، والعفة والطّهارة، والمحبة والعطف، والتّواضع والخضوع لله، والحلم والصّبر، والزّهد والورع، والنّظم والانضباط، والإدارة والسّياسة،...

كما أنّ السيرة العباديّة للنبي الأكرم (صلى الله عليه وآله) وعلي (عليه السلام) ولأولاده المعصومين (عليهم السلام) تكون المثل الأعلى في الاتّباع والاقتداء، كذلك الحال في سيرهم السياسيّة والإداريّة والاجتماعيّة والتّربويّة والاقتصاديّة؛ فإنّها تكون قابلةً للاقتداء على مرّ التاريخ.

ونشير على وجه الاختصار إلى بعض ما يصلح دليلاً على ذلك:

أ. إطلاق أدلة حُجَّةِ السَّيرة.

إِنَّ الْأَدْلَةَ الدَّالَّةَ عَلَى حُجَّةِ سُنَّةِ أَهْلِ الْبَيْتِ عليه السلام وسيرتهم مطلقة، ولم يرد ما يقتضي التقييد والتحديد بحقل خاص.

ولتوضيح ذلك نستعرض جملةً من الآيات والروايات المرتبطة بالمطلب، ونردف ذلك ببعض الملاحظات الرَّاجعة إِلَى عصمة أهل البيت عليه السلام.

إِنَّ الْآيَاتِ الْمُرْتَبِطَةَ بِسُنَّةِ النَّبِيِّ الْأَكْرَمِ عليه السلام يمكن تصنيفها بتصنيفٍ أَوَّلِيٍّ إِلَى طائفتين:

الطَّائِفَةُ الْأَوَّلَى: الْآيَاتِ الَّتِي تُدَلِّلُ عَلَى أَنَّ النَّبِيَّ عليه السلام قدوةٌ كاملة، يجب اتِّباعه. وذلك من قبيل قوله تبارك وتعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَذِكْرٍ﴾ [الأحزاب: ٢١]، وقوله: ﴿قُلْ إِن كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾ [آل عمران: ٣١]، وفي آيةٍ ثالثةٍ يجعل الباري عز وجل اتِّباع النَّبِيِّ عليه السلام علامةً للإيمان الحقيقي، وذلك بقوله: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأَمِينُ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٦-١٥٧]. وفي رابعةٍ يتوعد على مخالفته بالعذاب والعقاب، كقوله: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَصْرِفَهُ اللَّهُ شَيْئًا وَسَيُحِطُّ أَعْمَلَهُمْ﴾ [مُحَمَّد: ٣٢]، إِلَى غير ذلك من الْآيَاتِ.

الطَّائِفَةُ الثَّانِيَّةُ: الْآيَاتِ الَّتِي تُدَلِّلُ عَلَى وَجوب مطلق الإطاعة، الشَّاملة للأقوال والأفعال، من قبيل قوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣٢]، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَلَا تَوَلَّوْا عَنهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٦٠﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا مَسَعَنَا وَهُمْ لَا

يَسْمَعُونَ ﴿[الأنفال: ٢٠-٢١]، وقوله: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَتَزَوَّجُوا فَفَشَلُوا وَمَنْ ذَهَبَ رِجْلُكُمْ وَأَصْبَرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦]، وقوله: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ﴾ [المائدة: ٩٢].

ولا يقتصر ذلك على النبي ﷺ بل يوجد ما يدل - أيضاً - على حجية سنة الأئمة عليهم السلام بشكل مطلق، ونُشير إلى بعض ما يمكن أن يُستفاد منه ذلك.  
- قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩].

- قوله: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَ الَّذِينَ يُسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣].  
في هاتين الآيتين جعل الباري ﷻ الإطاعة المطلقة لأولي الأمر قريناً لإطاعة الله ورسوله، ووردت الأخبار الكثيرة تُفسر «أولي الأمر» بالأئمة المعصومين عليهم السلام<sup>(٤)</sup>.

- وكذلك يقول في مقام ضرورة اتباع أهل البيت عليهم السلام: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]. فإنه مضافاً إلى الأخبار الواردة في تفسير الآية بالأئمة عليهم السلام يوجد في نفس الآية قرائن تدل على عصمة الصادقين الذي يجب اتباعهم؛ وذلك من خلال التوجُّه إلى النكات التالية:

الأولى: إنَّ المراد من الكون مع الصادقين ليس هو المعية الجسمية والمكانية، كما هو أوضح من أن يخفى، بل المقصود من المعية تلك المعية التي لازمها الإطاعة، وهي تكون بمعنى الاتِّباع الكامل وعدم الانفصال عنهم في مقام العمل والطاعة، كما وردت الإشارة إلى ذلك في الزيارة الجامعة: «معكم معكم، لا مع غيركم [عدوكم]»<sup>(٥)</sup>، وهذا يعني عدم الانفصال عنهم في جميع أبعاد الحياة؛ إذ مَنْ كان معهم في أمر دون أمر، لا يصدق في حقّه أنّه معهم على نحو كامل ومطلق، كما هو المستفاد من الآية.

الثانية: أَنَّ الباري عَزَّوَجَلَّ قد وَجَّه الأمر بالكون مع الصَّادقين إلى جميع المؤمنين، وهذا يقتضي أن يكون «الصَّادقون» أفراداً معيّنين من هذه الأُمَّة، لكي يصدق كون الأُمَّة بجمع أفرادها معهم.

الثالثة: أَنَّ هذه المعية والإطاعة مطلقة، وهذا يقتضي عصمة «الصَّادقين»، وصدقهم المطلق، وإلَّا لما أمر الله باتباعهم على وجه الإطلاق.

وإن شئت فقل: إِنَّ الصَّدق المذكور في الآية الشريفة إن أُريد منه الصَّدق النسبي، فهو أمر متوفّر في كُلِّ أحدٍ حتّى أكذب الكاذبين، فلا يعقل أن يأمر الله الإنسان باتباع من هو من أمثاله. وإن أُريد منه الصَّدق الحقيقي المقابل للنسبي فهو مساوٍ للالتزام بالعصمة.

الرابعة: لا يصحّ أن تكون «مع» في الآية الشريفة بمعنى «من»؛ وذلك لأنّ الكون من الصَّادقين يُستفاد من قوله: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾، فيكون تكراراً<sup>(٦)</sup>.

يقول العلامة الطُّباطبائي رحمه الله في هذا المضمار: «الصَّدق بحسب الأصل مطابقة القول والخبر للخارج، ويوصف به الإنسان إذا طابق خبره الخارج، ثُمَّ لما حُدَّ كُلُّ من الاعتقاد والعزم - الإرادة - قولاً تَوْسَع في معنى الصَّدق فعُدَّ الإنسان صادقاً إذا طابق خبره الخارج، وصادقاً إذا عمل بما اعتقده، وصادقاً إذا أتى بما يريده ويعزم عليه على الجِد. وما في الآية من إطلاق الأمر بالتَّقوى وإطلاق الصَّادقين وإطلاق الأمر بالكون معهم - والمعية هي المصاحبة في العمل وهو الاتِّباع - يدلُّ على أَنَّ المراد بالصَّدق هو معناه الواسع العام دون الخاص. فالآية تأمر المؤمنين بالتَّقوى واتباع الصَّادقين في أقوالهم وأفعالهم، وهو غير الأمر بالانضمام بصفاتهم، فإنَّه الكون منهم لا الكون معهم، وهو ظاهر»<sup>(٧)</sup>.

وقد نقل السيّد هاشم البحراني رحمه الله سبعة أحاديث من طرق السُنَّة، وعشرة أخرى عن طرق الشيعة، تُفيد أَنَّ المراد من «الصَّادقين» أهل بيت العصمة والطَّهارة عليهم السلام<sup>(٨)</sup>.

وأما الأخبار التي تدلُّ على لزوم الرجوع إلى أهل البيت عليهم السلام والتمسك بهم على وجه الإطلاق من دون انحصار بالأُمور الفردية والعبادية، فهي كثيرة أيضاً:

منها: حديث الثقلين، وهو قوله عليه السلام: «إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا أبداً»<sup>(٩)</sup>.

ومنها: قوله عليه السلام: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَحْيَى حَيَاتِي، وَيَمُوتَ مَمَاتِي، وَيَسْكُنَ جَنَّةَ عَدْنِ التي غرسها ربِّي، فليوالِ عليّاً من بعدي، وليوالِ وليَّه، وليقتدِ بأهل بيتي من بعدي؛ فإنَّهم عترتي، خلِّقوا من طينتي، ورزقوا فهمي وعلمي، فويلٌ للمكذِّبين بفضلهم من أمتي، القاطعين فيهم صِلتي، لا أنا لهم الله شفاعتي»<sup>(١٠)</sup>.

ومنها: ما ذكره علي عليه السلام بصورة الأمر: «... فتأسَّ نبيَّكَ الأطيب الأطهر عليه السلام؛ فإنَّ فيه أسوةً لمن تأسَّى وعزاءً لمن تعزَّى. وأحبُّ العبادِ إلى الله المتأسِّي بنبيِّه، والمقتصِّ لأثره... فتأسَّى متأسِّ بنبيِّه، واقتصَّ أثره، وولج مولجه، وإلا فلا يأمن الهلكة...»<sup>(١١)</sup>.

ومنها: قوله عليه السلام: «انظروا أهل بيت نبيِّكم فالزموا سمتهم، واتَّبِعُوا أثرهم، فلن يخرجوكم من هديّ، ولن يُعيدوكم في رديّ، فإنَّ لبدوا فالبدوا، وإنَّ نهضوا فانهضوا، ولا تسبقوهم فتضلُّوا، ولا تتأخروا عنهم فتهلكوا»<sup>(١٢)</sup>.

ومنها: ما كان يدعو به الإمام الباقر عليه السلام: «اللَّهُمَّ اجعل محيائي محيى مُحَمَّدٍ وآلِ مُحَمَّدٍ، ومماتي مماتِ مُحَمَّدٍ وآلِ مُحَمَّدٍ»<sup>(١٣)</sup>.

#### ب. مقتضى العصمة.

بعد الفراغ عن عصمة أهل البيت عليهم السلام الثابتة بالأدلة النقليَّة والعقليَّة<sup>(١٤)</sup>، لا محالة تكون التَّبعية له في جميع الأمور موصلةً لبرِّ الأمان.

وبعبارة أخرى: كما أنَّ أقوال أهل البيت عليهم السلام مصونةٌ عن الخطأ، كذلك الحال في أفعاله وتروكهم، وهي عصمةٌ غير منحصرة بالأُمور الفردية والعبادية،



فلا محالة تكون سيرتهم وسنتهم العملية غير منحصرة ببعيد خاص.

ج. سيرة المشرّعة.

كانت سيرة الرسول الأكرم ﷺ من الابتداء مورداً لعناية عامة المسلمين، وكانوا يستندون إليها بلا تكبر من أحد. وكذا الحال بالنسبة لسيرة الأئمة الأطهار ﷺ، وإن كانت سعة الاستناد إليها أقل من غيرها بين المسلمين، وقد يعود ذلك إلى اختلافات عقائدية ومذهبية ليس المقام محلاً لذكرها.

وهذه الطريقة قد تكررت من الأئمة ﷺ؛ حيث نجدهم في مواضع متعددة يتمسكون ويستشهدون لإثبات حكم من الأحكام بفعل النبي ﷺ وسيرته، ودأب المتأخر منهم على التمسك بفعل المتقدم وسيرته.

وعلى هذا المنوال مشى فقهاء مدرسة آل البيت ﷺ وعلمائهم، حتى أصبح فعل المعصوم وسيرته واحداً من مصادر التشريع المسلّمة لديهم.

ونظرة سريعة إلى كتاب الخلاف والمبسوط لشيخ الطائفة تكفي للإذعان بما نروم إليه. وهكذا الحال عند فقهاء الجمهور من أهل السنة، وأوضح شاهد على ذلك مسند أحمد بن حنبل.

واليك بعض النماذج على ذلك:

١. في الأمور العبادية:

أ. يستدل الإمام الباقر ﷺ على كفاية الإيلاء عند الخوف وقت المطاردة والمناوشة، بفعل علي ﷺ ليلة الهرب.

روى الكليني بسند حسن بل صحيح عن أبي جعفر ﷺ قال: «فِي صَلَاةِ الْخَوْفِ عِنْدَ الْمُطَارَدَةِ وَالْمُنَاوَشَةِ يُصَلِّي كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ بِالْإِيَّاءِ حَيْثُ كَانَ وَجْهُهُ، وَإِنْ كَانَتْ الْمُسَابِقَةُ وَالْمُعَانَقَةُ وَتَلَاخُمُ الْقِتَالِ فَإِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ﷺ صَلَّى لَيْلَةَ صَفَيْنَ وَهِيَ لَيْلَةُ الْهَرِيرِ لَمْ تَكُنْ صَلَاتُهُمْ الظُّهْرُ وَالْعَصْرُ وَالْمَغْرِبُ وَالْعِشَاءُ عِنْدَ وَقْتِ كُلِّ صَلَاةٍ إِلَّا التَّكْبِيرَ وَالتَّهْلِيلَ وَالتَّسْبِيحَ وَالتَّحْمِيدَ وَالِدُعَاءَ، فَكَانَتْ تِلْكَ

صَلَاتِهِمْ لَمْ يَأْمُرْهُمْ بِإِعَادَةِ الصَّلَاةِ»<sup>(١٥)</sup>.

ب. استناد الإمام الكاظم عليه السلام في حرمة استغلال المحرم بسيرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم.  
 روى الشيخ المفيد عن أبي زيد، عن عبد الحميد، قال: «سَأَلَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحُسَيْنِ أَبَا الْحَسَنِ مُوسَى عليه السلام بِمَخْضَرٍ مِنَ الرَّشِيدِ وَهُمْ بِمَكَّةَ، فَقَالَ لَهُ: أَيْجُوزُ لِلْمُحْرَمِ أَنْ يُظَلَّلَ عَلَيْهِ حِمْلُهُ؟ فَقَالَ لَهُ مُوسَى عليه السلام: لَا يَجُوزُ لَهُ ذَلِكَ مَعَ الْإِخْتِيَارِ. فَقَالَ لَهُ مُحَمَّدُ بْنُ الْحُسَيْنِ: أَفَيَجُوزُ أَنْ يَمْشِيَ تَحْتَ الظَّلَالِ مُحْتَارًا؟ فَقَالَ لَهُ: نَعَمْ. فَتَضَاكَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحُسَيْنِ مِنْ ذَلِكَ! فَقَالَ لَهُ أَبُو الْحَسَنِ عليه السلام: أَتَعْجَبُ مِنْ سُنَّةِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله وسلم وَتُسْتَهْرِئُ بِهَا! إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم كَشَفَ ظِلَالَهُ فِي إِخْرَامِهِ وَمَشَى تَحْتَ الظَّلَالِ وَهُوَ مُحْرَمٌ، إِنَّ أَحْكَامَ اللَّهِ - يَا مُحَمَّدُ - لَا تُقَاسُ! فَمَنْ قَاسَ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ. فَسَكَتَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحُسَيْنِ لَا يُرْجِعُ جَوَابًا»<sup>(١٦)</sup>.

ج. استناد الإمام الباقر عليه السلام في مسألة عدم جواز المسح على النعلين بسيرة علي عليه السلام.

عن المفيد - أيضاً - بإسناده إلى قيس بن الربيع، قال: «سَأَلْتُ أَبَا إِسْحَاقَ عَنِ الْمَسْحِ - يَعْنِي الْمَسْحَ عَلَى الْخُفَّيْنِ -؟ فَقَالَ: أَذَرَكْتُ النَّاسَ يَمَسْحُونَ حَتَّى لَقِيتُ رَجُلًا مِنْ بَنِي هَاشِمٍ لَمْ أَرْ مِثْلَهُ قَطُّ يُقَالُ لَهُ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ الْحُسَيْنِ عليه السلام، فَسَأَلْتُهُ عَنِ الْمَسْحِ فَتَهَانَى عَنْهُ، وَقَالَ لَمْ يَكُنْ عَلَيٌّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام يَمَسْحُ عَلَى الْخُفَّيْنِ، وَكَانَ يَقُولُ: سَبَقَ الْكِتَابُ الْمَسْحَ عَلَى الْخُفَّيْنِ. قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ: فَمَا مَسَحْتَ مِنْذُ تَهَانَى عَنْهُ. قَالَ قَيْسُ بْنُ الرَّبِيعِ: وَمَا مَسَحْتُ أَنَا مِنْذُ سَمِعْتُ أَبَا إِسْحَاقَ»<sup>(١٧)</sup>.

د. خروج الإمام الرضا عليه السلام في صلاة العيد مستنداً إلى فعل النبي صلى الله عليه وآله وسلم والوصي عليه السلام.

ففي الكافي بسنده إلى الريان بن الصلت، «... إِنَّ أَعْفَيْتَنِي مِنْ ذَلِكَ فَهُوَ أَحَبُّ إِلَيَّ، وَإِنْ لَمْ تُعْفِنِي خَرَجْتُ كَمَا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم وَأَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام»<sup>(١٨)</sup>.  
 ولا يخفى ما لهذا التأسي في المورد من بُعد سياسي واجتماعي أيضاً.

## ٢. في المسائل السياسية والاجتماعية:

أ. استناد علي عليه السلام في مقام الاحتجاج على أعمال الخوارج.

ورد في النهج الشريف قوله عليه السلام: «وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - رَجَمَ الزَّائِيَّ الْمُخَصَّنَ ثُمَّ صَلَّى عَلَيْهِ ثُمَّ وَرَّثَهُ أَهْلُهُ، وَقَتَلَ الْقَاتِلَ وَوَرَّثَ مِيرَاثَهُ أَهْلُهُ، وَقَطَعَ السَّارِقَ وَجَلَدَ الزَّائِيَّ غَيْرَ الْمُخَصَّنِ ثُمَّ قَسَمَ عَلَيْهِمَا مِنَ الْقَبِيِّ، وَنَكَحَا الْمُسْلِمَاتِ فَأَخَذَهُنَّ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - بِذُنُوبِهِمْ، وَأَقَامَ حَقَّ اللَّهِ فِيهِمْ، وَلَمْ يَمْنَعْهُمْ سَهْمَهُمْ مِنَ الْإِسْلَامِ، وَلَمْ يُخْرِجْ أَسْأَاءَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَهْلِهِ»<sup>(١١)</sup>.

ب. الاستناد إلى السيرة في مجال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

قال الإمام الحسين عليه السلام في ردّه على قول ابن عباس - لا تخرج إلى العراق، وكُنْ بِالْيَمَنِ؛ لحصانتها ورجالها -: «... إِنَّمَا خَرَجْتُ أَطْلُبُ الصَّلَاحَ فِي أُمَّةٍ جَدِّي مُحَمَّدٌ، أُرِيدُ أَنْ أَمَرَ بِالْمَعْرُوفِ، وَأَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ، أَسِيرُ بِسِيرَةِ جَدِّي وَسِيرَةِ أَبِي عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ...»<sup>(١٢)</sup>.

ج. في نهضة التوابين التي قادها سليمان بن صُرَد الخزازي، الذي هو من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام، نجده أنه سار على سيرة علي عليه السلام بلا تكبر من أحد.

فهذا الطبري ينقل في تاريخه أنَّ سليمان بن صُرَد عندما اجتمع جيشه مع جيش الشام، قام فيهم خطيباً، فقال في ضمن كلام له طويل: «لا تقتلوا مدبراً، ولا تجهزوا على جريح، ولا تقتلوا أسيراً من أهل دعوتكم إِلَّا أَنْ يُقَاتِلَكُمْ بَعْدَ أَنْ تَأْسُرُوهُ، أَوْ يَكُونَ مِنْ قَتْلَةِ إِخْوَانِنَا بِالطَّفِّ رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ؛ فَإِنَّ هَذِهِ كَانَتْ سِيرَةَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ فِي أَهْلِ هَذِهِ الدَّعْوَةِ»<sup>(١٣)</sup>.

يضاف إلى ذلك أنَّ ديدن فقهاء الإمامية - أعلى الله مقامهم - على التمسك بالسيرة السياسية والاجتماعية لأهل البيت عليهم السلام. ومن نماذج ذلك ما ذكره فقيه العالم الإسلامي الكبير، الإمام الخميني عليه السلام في مقام إثبات عدم انفصال الدين عن السياسة:

«إِنَّ الرَّسُولَ الْأَكْرَمَ ﷺ الَّذِي كَانَ عَلَى رَأْسِ النَّظَامِ الْإِدَارِيِّ وَالتَّنْفِيزِيِّ لِلْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ لَمْ تَكُنْ وَظِيفَتُهُ مَنْحَصَرَةً بِتَبْلِيغِ الْوَحْيِ، وَبَيَانِ الْأَحْكَامِ وَالْعَقَائِدِ وَتَفْسِيرِهَا لِلنَّاسِ، بَلْ كَانَ مِزْجاً إِلَى جَمِيعِ ذَلِكَ مِهْناً بِتَنْفِيزِ الْأَحْكَامِ وَإِرْسَاءِ نَظْمِ الْإِسْلَامِ حَتَّى ظَهَرَتْ دَوْلَتُهُ الْمُبَارَكَةُ وَامْتَدَّتْ ذَلِكَ الْإِمْتِدَادُ الْوَاسِعُ. وَلَمْ يَكْتَفِ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ بَيَانُ قَوَانِينِ الْمَجَازَاةِ وَالْعُقُوبَاتِ، بَلْ شَمَّرَ عَنْ سَاعِدِ إِجْرَائِهَا، فَكَانَ يَقْطَعُ يَدَ السَّارِقِ، وَيَرْجِمُ الزَّانِيَ، وَيَقِيمُ الْحُدُودَ» (٢٢).

وَقَالَ أَيْضاً: «أَنْتُمْ إِذَا نَظَرْتُمْ إِلَى صَدْرِ الْإِسْلَامِ لَوَجَدْتُمْ أَنَّ الْحُكُومَةَ تَشَكَّلَتْ بِأَمْرِ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ، وَكَانَ لِهَذِهِ الْحُكُومَةِ قُوَى عَسْكَرِيَّةٌ وَإِدَارِيَّةٌ مَنْظَّمَةٌ، وَكَانَ الْمَسْجِدُ النَّبَوِيُّ مَرْكَزاً لِإِدَارَةِ سِيَاسَةِ الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ آنَ ذَاكَ» (٢٣).

#### مستتنيات العمل بالسيرة:

لِكَوْنِ أَفْعَالِ أَهْلِ الْبَيْتِ ﷺ وَسِيرَتِهِمْ غَيْرَ قَابِلَةٍ لِلِإِقْتِدَاءِ وَالِاتِّبَاعِ فِي بَعْضِ الْمَوَارِدِ، عَمَّ الْبَعْضُ الْحُكْمَ وَجَعَلَ مَطْلُقَ اتِّبَاعِ السَّيْرِ مَحَلّاً لِلتَّشْكِيكِ، وَلَكِنَّهُ خَفِيَ عَلَيْهِ أَنَّ تِلْكَ الْمَوَارِدَ خَارِجَةٌ عَنْ حَيْزِ النَّاسِي وَالِاتِّبَاعِ تَخْصُصاً، فَلَا يَكُونُ عَدَمُ النَّاسِي فِيهَا مُوجِباً لِعَدَمِ النَّاسِي فِي غَيْرِهَا.

وَهَذِهِ الْمَوَارِدُ الْخَارِجَةُ يُمَكِّنُ حَصْرَهَا فِي أُمُورٍ أَرْبَعَةٍ:

١. مَا كَانَ مِنْ قَبِيلِ الطُّرُقِ وَالْأَسَالِيبِ.

الْأَهْدَافُ السِّيَاسِيَّةُ وَالْاجْتِمَاعِيَّةُ وَالِاِقْتِصَادِيَّةُ تَخْتَلِفُ بِحَسَبِ مَرُورِ الزَّمَنِ مِنْ نَاحِيَةِ الطُّرُقِ الْمَوْصِلَةِ إِلَيْهَا، وَعَلَيْهِ فَلَوْ كَانَتْ سِيرَتُهُمْ ﷺ قَائِمَةً عَلَى طَرِيقَةٍ مَعِيَّةٍ لِلْوُصُولِ إِلَى تِلْكَ الْأَهْدَافِ الْمَشَارِ إِلَيْهَا، فَلَيْسَ مِنَ الضَّرُورِيِّ أَنْ تَكُونَ تِلْكَ السَّيْرَةُ مُورِداً لِلنَّاسِي وَالِإِقْتِدَاءِ عَلَى مَرِّ الزَّمَنِ.

وَلِتَوْضِيحِ هَذِهِ الْفِكْرَةَ أَكْثَرَ نَطَبَّقُ ذَلِكَ عَلَى عِنَصَرِ الْأَمْنِ وَالسَّلَامِ الَّذِي هُوَ مِنَ الْقِيَمِ الضَّرُورِيَّةِ لِكُلِّ مَجْتَمَعٍ مِنَ الْمَجْتَمَعَاتِ، وَالَّذِي لَوْلَاهُ لَمَا قَامَ لِلْمَجْتَمَعِ

البشري قائمة، ولما بقي في الدنيا حجرٌ على حجر.

هذا، ولكنَّ الأساليب والطُّرق الموصلة إليه تختلف بين زماننا وزمان المعصومين عليه السلام؛ حيث إنَّه من الممكن أن تُدار الدَّولة من ناحية أمنيَّة بإمكاناتٍ محدودةٍ ومتواضعةٍ في تلك الأزمنة الغابرة، إلَّا أنَّ نفس هذه الإمكانيات لو صُرفت في عصرنا الحاضر ربما ما استطعنا بواسطتها أن نحفظ الأمن في بلدةٍ صغيرة، وليس ذلك إلَّا للتَّحدّيات الجديدة في حياة الإنسان المعاصر، والظُّروف الزَّمانيَّة والمكانيَّة الحاكمة.

٢. ما كان من قبيل الأدوات والوسائل.

والمقصود بها أدوات المعيشة المختلفة بلحاظ المسكن والمركب والملبس والمشرَب والمأكل. فلا نستطيع أن نُلزم القائد العسكري - مثلاً - في عصرنا الحاضر أن يذهب إلى ساحة القتال على فرسٍ أو جملٍ؛ لأجل أن من اتَّخذناه قدوةً كان يتَّخذ من هذه الأداة وسيلةً للوصول إلى هدفه. فإنَّ أدوات ووسائل كُلِّ زمنٍ يجب أن تتناسب مع ذلك الزَّمن وتحدّياته ومتطلَّباته.

٣. الأمور المختصَّة بالنبي الأكرم عليه السلام.

وذلك من قبيل التزامه بصلاة اللّيل، وحرمة الصَّدقة عليه وعلى أهل بيته عليهم السلام، وحليَّة أكثر من أربع زوجات بالعقد الدَّائم، وحرمة نسائه على أمَّته، وغير ذلك من الأمور التي دَلَّ الدَّلِيل على اختصاصه به صلوات الله عليه.

٤. الأفعال المجملّة.

إنَّ الكثير من أعمالهم عليهم السلام - كأقوالهم - لها أسرارٌ خاصّة قد يخفى علينا وجهها، فتكون من المشابهات، وغالباً ما لا تكون قد تکرَّر صدورها منهم، فلا يصحُّ - حينئذٍ - أن تكون مورداً للتَّأسي والافتداء؛ لخفاء وجهها، فتكون خارجةً عن البحث. وأمثلة ذلك كثيرةٌ تظهر بالتَّبَع.

\* \* \*

## الهوامش:

- (١) مصطلح «أهل البيت» إذا أطلق ولم يضاف إلى النبي ﷺ فيراد منه معنى يشملته ويشمل ابته وبعلمها والتسعة المعصومين من ذريتها. وإن أضيف إليه شملهم دونه.
- (٢) راجع: مجلة «كيان» العدد ٤٤-٤٥، من عام ١٣٧٧ هـ. ش.
- (٣) سوف يأتي عن قريب أن الأساليب والأدوات وما هو من مختصاتهم ﷺ خارج عن البحث تخصصاً.
- (٤) لاحظ في هذا المجال: ابن بابويه القمي، محمد بن علي، كمال الدين وتمام النعمة: ٢٤، ٢٥٣، تصحيح وتعليق علي أكبر غفاري، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم.
- (٥) لاحظ: ابن قولويه، جعفر بن محمد، كامل الزيارات: ٣٨٨، تحقيق الشيخ جواد القيومي، الطبعة الأولى ١٤١٧، مؤسسة نشر الفقاهة. الصدوق، محمد بن علي، من لا يحضره الفقيه ٢: ٦١٤، تصحيح علي أكبر الغفاري، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم.
- (٦) للاطلاع أكثر راجع في هذا المجال: البهبهاني، علي، مصباح الهداية في إثبات الولاية: ٩١ وما بعدها، تحقيق رضا أستاذي، نشر مدرسة دار العلم، أهواز.
- (٧) الميزان في تفسير القرآن ٩: ٤٠٢، نشر جماعة المدرسين، الطبعة الخامسة ١٤١٧، قم.
- (٨) البحراني، السيد هاشم، غاية المرام وحجة الخصام في تعيين الإمام من طريق الخاص والعام ٣: ٥٠-٥٢، تحقيق السيد علي عاشور.
- (٩) ومصادره من الفريقين فوق حد الإحصاء، وبألفاظ متقاربة، وهو من الأحاديث المعتمدة والتي لا يمكن التشكيك السليم في سندها. فقد رواه أحمد في مسنده، والدارمي في سنته، والنسائي في فضائل الصحابة، وعلي بن الجعد في مسنده، وابن أبي شيبة في مصنفه، والحاكم في مستدرکه معلقاً عليه بأنه: حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه بطوله، والبيهقي في سنته، وغيرهم الكثير.
- (١٠) راجع: الميثمي، علي بن أبي بكر، مجمع الزوائد ٩: ١٠٨، نشر دار الكتب العلمية ١٤٠٨، بيروت. المتقي الهندي، علاء الدين علي، كنز العمال ١٢: ١٠٣، ح: ٣٤١٩٨، ضبط وتفسير الشيخ بكري حياني، تصحيح وفهرسة الشيخ صفوة السقا، نشر مؤسسة الرسالة ١٤٠٩، بيروت. الطوسي، محمد بن الحسن، الأمالي: ٥٧٨، نشر دار الثقافة، الطبعة الأولى ١٤١٤، قم.
- (١١) نهج البلاغة، من الخطبة: (١٦٠).

- (١٢) المصدر نفسه، من الخطبة: (٩٧).
- (١٣) لاحظ: ابن قولويه، جعفر بن محمد، كامل الزيارات: ٣٣٠، باب: ثواب من زار الحسين عليه السلام، تحقيق الشيخ جواد القيومي، الطبعة الأولى ١٤١٧، مؤسسة نشر الفقاهة.
- (١٤) يُراجع في هذا المجال الكتب الكلامية عند الإمامية.
- (١٥) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي ٣: ٤٥٧، باب: صلاة المطاردة، الحديث: ٢، دار الكتب الإسلامية، الطبعة الرابعة ١٤٠٧، طهران.
- (١٦) المفيد، محمد بن محمد، الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد ٢: ٢٣٥، تحقيق مؤسسة آل البيت عليه السلام، الطبعة الثانية ١٤١٤، بيروت.
- (١٧) المصدر نفسه ٢: ١٦١.
- (١٨) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي ١: ٤٨٩، باب: مولد أبي الحسن الرضا عليه السلام، الحديث: ٧، دار الكتب الإسلامية، الطبعة الرابعة ١٤٠٧، طهران.
- (١٩) الخطبة: ١٢٧.
- (٢٠) ابن شهر آشوب، محمد بن علي، مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٤١، تحقيق لجنة من أساتذة النجف، المطبعة الحيدرية ١٣٧٦.
- (٢١) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك ٤: ٤٦٢، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.
- (٢٢) لاحظ: السيرة النبوية المنتخبة من كلام وفكر الإمام الخميني عليه السلام (سيرة نبوي): ١٨، نشر مؤسسة تنظيم آثار الإمام الخميني، ١٣٨٣ هـ.ش.
- (٢٣) المصدر نفسه.

## الجري والتطبيق عند مفسري الإمامية

قراءة في المفهوم والثمرات

□ الشيخ معين دقيق العاملي

تجيب

لا يخفى على المطالع للأخبار الواردة في مقام بيان المراد من الكثير من الآيات الشريفة أنها حملت اللفظ الدال بحسب ما يتحمّله من مدلول لغويٍّ على مصداقٍ معيّن، وقد حملت بعض الكتب التفسيرية هذه الطريقة على كونها من باب التفسير بالمصداق. وقد أكثر العلامة الطباطبائي رحمته الله من إطلاق اصطلاح خاصٍّ على ذلك، يلاحظه المطالع لتفسيره بوضوح، وهذا الاصطلاح هو (الجري والتطبيق).

إلا أنّ هذه النظرية التي أصبحت معروفة بهذا العنوان لما لم تكن - للوهلة الأولى - مذكورة صراحةً في كتب السلف الصالح من المفسرين، ولم تكن مبيّنة المعالم والحدود بشكلٍ مستقلٍّ حتّى في تفسير الميزان، ترتّب على ذلك اعتبارها نظريةً حادثة من جهة، ومن جهةٍ أخرى اختلفت المواقف منها بين مدافعٍ موافق، ومخالفٍ منتقد، ومتوقّفٍ متردّد. ولقد كان يمكن للباحث أن يُغمض النظر عن هذه النظرية والاختلاف الحاصل فيها لو لم يكن لها الأثر الكبير في فهم الأخبار الواردة في تفسير الكثير من الآيات، كما ستطّلع على ذلك من خلال المباحث الآتية.



كُلُّ ذَلِكَ أُلْزِمَ الْمُحَقِّقِينَ وَالْمُفَسِّرِينَ أَنْ يَضَعُوا هَذِهِ النَّظَرِيَّةَ تَحْتَ مِجْهَرِ الْبَحْثِ وَالتَّمَحِيصِ؛ لِيُظْهَرَ لَهُمْ صِحَّتُهَا مِنْ سَقَمِهَا، وَضَوَابِطُهَا وَحُدُودُهَا، وَمِنْ هَذَا الْمُنْطَلَقِ كَانَتْ هَذِهِ الْمَقَالَةُ، الَّتِي أَعْتَبَرْتُهَا إِثَارَةً فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ، وَلَيْسَ بَحْثًا تَفْصِيلِيًّا يَلُمُّ بِجَمِيعِ أبعادِهِ وَخِصَائِصِهِ.

### إِطْلَالَةٌ لُغَوِيَّةٌ عَلَى الْمَفْرَدَاتِ:

أَوَّلًا: الْجَرِي، وَهُوَ لُغَةٌ بِمَعْنَى انْسِيَابِ الشَّيْءِ وَانْسِيَاخِهِ، يُقَالُ: جَرَى الْمَاءُ، إِذَا انْسَابَ عَلَى الْأَرْضِ<sup>(١)</sup>، وَيُقَالُ: جَرَتْ السَّفِينَةُ، أَي: انْسَابَتْ فِي الْمَاءِ، وَهُوَ ضِدُّ الرُّسُو، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَسْرَأُ اللَّهُ يَجْرَبُهَا وَنُزْنَهَا﴾<sup>(٢)</sup>.

ثَانِيًا: التَّطْيِيقُ، وَهُوَ تَفْعِيلٌ مِنْ طَبَقَ، قَالَ ابْنُ فَارَسٍ: «الطَّاءُ وَالْبَاءُ وَالْقَافُ أَصْلٌ صَحِيحٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ يَدُلُّ عَلَى وَضْعِ شَيْءٍ مَبْسُوطٍ عَلَى مِثْلِهِ حَتَّى يَغْطِيَهُ، مِنْ ذَلِكَ الطَّبَقُ. تَقُولُ: أَطَبَقْتُ الشَّيْءَ عَلَى الشَّيْءِ، فَالْأَوَّلُ طَبَقٌ لِلثَّانِي، وَقَدْ تَطَابَقَا. وَمِنْ هَذَا قَوْلُهُمْ: أَطَبَقَ النَّاسُ عَلَى كَذَا، كَأَنَّ أَقْوَاهُمْ تَسَاوَتْ حَتَّى لَوْ صُيِّرَ أَحَدُهُمَا طَبَقًا لِلْآخَرِ لَصَلَحَ»<sup>(٣)</sup>.

وَنَسْتَتِجُ بِمَا تَقَدَّمَ أَنَّ هَذَا التَّرْكِيبَ النَّسْقِي يُرَادُ مِنْهُ فِي اللُّغَةِ الْانْسِيَابُ وَالتَّوَافُقُ، بِحَيْثُ يَكُونُ الْأَمْرُ الْمُنْسَابُ مُوَافِقًا لِلْمُنْسَابِ عَلَيْهِ.

### جَوْلَةٌ اصْطِلَاحِيَّةٌ:

لَا بَدَّ لَنَا قَبْلَ الاسْتِدْلَالِ عَلَى أَصْلِ الْقَاعِدَةِ وَذِكْرِ قِيُودِهَا وَحُدُودِهَا، وَمَا لَهَا وَمَا عَلَيْهَا مِنْ تَوْضِيحِ هَذَا الْمِصْطَلَحِ التَّرْكِيبِيِّ، وَبَيَانِ الْفَرْقِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مِصْطَلَحَاتٍ مُتَشَابِهَةٍ. وَعَلَيْهِ فَيَقَعُ الْبَحْثُ فِي هَذِهِ الْجَوْلَةِ فِي ضَمَنِ النُّقَاطِ التَّالِيَةِ:

النُّقْطَةُ الْأُولَى: فِي الْمُرَادِ مِنْ أَصْلِ الْمِصْطَلَحِ

اسْتَعْمَلَ مِصْطَلَحَ «الْجَرِي وَالتَّطْيِيقِ» فِي كَلِمَاتِ الْعَلَّامَةِ الطَّبَّاطِبَائِيِّ ﷺ فِي

موارد متعدّدة من تفسيره الجليل، وانحصر استعماله على وجه التّحديد في معنيين:

المعنى الأوّل: في الآية التي ترد روايةً في تفسيرها، ولا يكون بين الوارد في الرواية والوارد في الآية نوع ترادف.

وإن شئتَ فقل: استعمل هذا المصطلح في المورد الذي يوجد في آية من الآيات مفهومٌ كُليّ، لكنّه يُطبّق في الخبر على مصداقٍ معيّن، فيقول العلّامة عن ذلك: إنّ من باب الجري والتّطبيق، لا من باب التّفسير وشرح المفهوم.

فمن أمثلة ذلك ما ورد في البحث الرّوائي المرتبط بقوله تعالى: ﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً﴾<sup>(٤)</sup> «وفي الكافي عن أحدهما عليه السلام في قوله تعالى: ﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً﴾؟ قال: إذا جحدوا ولاية أمير المؤمنين ﴿فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. أقول: وروى قريباً من هذا المعنى الشّيخ في أماليه عن النّبي ﷺ، والرّوايتان من الجري والتّطبيق على المصداق»<sup>(٥)</sup>.

فتكون الآية بحسب مفهومها شاملةً لكلّ من ارتكب ذنباً ومعصيةً، ويكون المعنى المذكور في الخبر مصداقاً لهذا المفهوم. كما لو شُرح قول القائل: (أتاني إنسانٌ) بـ (جاءني زيدٌ)، فإنّ زيداً لا يُرادف الإنسان مفهوماً وإنّما هو من مصاديقه.

ومنها ما ذكره في سياق البحث الرّوائي المرتبط بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾<sup>(٦)</sup> بعد إirاده لرؤية عن الكافي تفسيرها بالأئمة عليهم السلام: «وهو من باب الجري والانطباق على المصداق الكامل»<sup>(٧)</sup>.

وهذا المعنى من حمل الكلام على مصداقه عبّر العلّامة عليه السلام عنه بقوله: «... الجري الَّذي اصطلح عليه الأخبار في انطباق الكلام بمعناه على المصداق...»<sup>(٨)</sup>.

نعم، ورد في بعض كلمات العلّامة عليه السلام تفسيره بأكمل المصداق، كما في قوله:

«وهو من الجري، بمعنى انطباق الآية على أكمل المصاديق»<sup>(١)</sup>، إلا أن التخصيص بالأكمليّة إنّما هو بلحاظ المورد المبحوث عنه، لا لأجل أنّ الجري يختص بالمصداق الأكمل. ويشهد لذلك أنّه ﷺ بعد أن أورد أخباراً ثلاثة فيما يرتبط بقوله تعالى: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾، تحمله على الوجه الحسن، والصّوت الجميل، والشعر الحسن، علّق على ذلك بقوله: «والروايات الثلاث الأخيرة من قبيل الجري والانطباق»<sup>(٢)</sup>، ولا معنى للقول أنّ هذه الثلاثة هي أكمل المصاديق، كما لا يخفى.

المعنى الثاني: إطلاقه على كلّ موردٍ أريد نفي اختصاص الآية بشأن النزول، قال العلامة الطّباطبائي ﷺ في هذا السياق:

«... ونعني بذلك لو نزلت في شخصٍ أو أشخاص معيّنين لا تكون الآية جامدة في ذلك الشخص أو أولئك الأشخاص، بل تسري في كلّ من يشترك مع أولئك في الصّفات التي كانت مورداً لتلك الآية. هذا هو الذي يُسمّى في السنة الأحاديث بالجري»<sup>(٣)</sup>.

وحيثُذ يكون الفرق بين الموردين أنّه في المورد السّابق يكون الجري والتّطبيق من أوصاف الخبر الوارد في تفسير الآية، بينما في هذا المورد يكون الجري والتّطبيق وصفاً لنفس الآية النّازلة في مورد خاص.

ويكون مصطلح الجري والتّطبيق في المورد الثاني مساوفاً لقولنا: شأن النزول لا يخصّص الآية، والمورد لا يخصّص الوارد، والكلام واردٌ في موردٍ وجارٍ في نظيره.

ثمّ إنّ الجري والتّطبيق بحسب كلا الموردين يُمكن تعريفه بأنّه: «حمل الكلام بما له من معنى عام على مصداقٍ من مصاديقه، الذي يكون للمتكلم مزيد عناية به».

وبناء على ذلك فالظاهر أنّ إطلاق الجري على ما ذكرنا من باب تشبيه صدق

المفهوم على الفرد والمصداق بانسياب الماء على الأرض بجامع اليسر والسهولة، وحُذِفَ المشبّه به وأُبقِيَ شَيْءٌ من لوازمه على سبيل الاستعارة بالكناية. هذا إن كانت كلمة الجري مَحْتَصَةً في اللّغة بالسّوائل كالماء، وأمّا إن كانت تطلق على مطلق الانسياب وإن لم يكن مادياً، فلا حاجة للتّجوّز، بل يكون الأمر من باب استعمال المشترك المعنوي في أحد معانيه على طريقة تعدّد الدّالّ والمدلول ولو بتوسّط القرينة الحاليّة.

وكذا الحال في إطلاق التّطبيق، فكأنّ المفهوم عندما يوضع على مصداقه يطابقه كما يطابق الثّوب البدن.

#### النّقطة الثّانية: في التّراكيب المشابهة

هناك تركيب آخر شاع إطلاقه بين الفقهاء، ويقصدون به نفس المعنى الذي يقصده المفسّرون من مصطلح «الجري والتّطبيق». وهذا المعنى عندهم تارة يدلّون عليه بقولهم: (باب التّمثيل لا الاشتراط)، أو: (باب التّمثيل لا الحصر).

فهذا الشّهيد الثّاني رحمته الله في المسالك في بحث الأجل في النّكاح عندما تعرّض لتقدير ابن حمزة له من جانب القلّة بما بين طلوع الشّمس ونصف النّهار، واعترض عليه بأنّه لا دليل على هذا التّحديد، اعتذر عنه بقوله: «ولعلّه أراد التّمثيل لا الحصر»<sup>(١٢)</sup>، ومثله حفيده في نهاية المرام<sup>(١٣)</sup>.

وعن الفاضل السّبزواري في معرض نقله لكلام الشّيخ في النّهاية الذي هو كالصرّيح في أنّ اشتراط الإذن في صلاة الجمعة إنّما هو للوجوب، فيستفي في زمان الغيبة، ولا يتحقّق بالفقيه: «وذكره الفقيه من باب التّمثيل لا الاشتراط»<sup>(١٤)</sup>.

وكذا الحال في قولهم: المورد لا يخصّص الوارد، والكلام وارد في موردٍ وجارٍ في نظيره، كما تقدّم الإشارة إليه آنفاً.

**النقطة الثالثة:** في الفرق بين الجري والتطبيق واصطلاحات مشابهة  
 إنَّ البحث عن أيِّ مفهومٍ أو مصطلحٍ من المصطلحات سوف لن يكون  
 كاملاً بمجرد بيان حدوده التي تناوله في حدِّ ذاته، وهو ما يُصطلح عليه باسم  
 الجامعة، بل لا بدَّ مضافاً إلى ذلك من بيان ما يميّزه عن غيره من المفاهيم التي  
 قد تشترك معه في بعض الخصائص القريبة، وهو ما يُطلق عليه عنوان المانعة.  
 وعموماً: تعريف المعنى الاصطلاحي إنّما يحدّد المفهوم على وجه الإجمال،  
 ولكنَّ معالمة تتّضح أكثر بعد التّفريق بينه وبين مفردات أخرى مشابهة له.  
 وعلى هذا الأساس، كان لا بدَّ بعد فراغنا عن التّوضيح الإجمالي لذات  
 اصطلاح الجري والتّطبيق أنْ نذكر بعض الاصطلاحات المشابهة له، ثمَّ نبيّن  
 جهات الاختلاف التي تميّزت بها، ومن جملة هذه الاصطلاحات مفردتي  
 البطون والتّفسير.

أمّا بالنسبة لاصطلاح (التّفسير)، فالأمر في مغايسته مع مصطلحنا سهل؛  
 لأنّ التّفسير له ارتباطٌ في تشرّيح المعنى والمفهوم، ولذا فُسِّر في بعض الكلمات  
 بأنّه عبارةٌ عن كشف القناع عن معنى اللفظ<sup>(١٥)</sup>، بينما مصطلح الجري والتّطبيق  
 ناظرٌ إلى صدق المفهوم بعد الفراغ عن تشرّحه.

نعم، ورد في كلمات بعض الأعظم<sup>عليه السلام</sup> إضافة المصداق إلى التّفسير<sup>(١٦)</sup>،  
 فيلتقي - حيثنّذ - مع الجري والتّطبيق، إلّا أنّ ذلك بمعونة ما أضيف إلى  
 التّفسير، لا من نفس الكلمة، كما لا يخفى.

وعليه، فيمكن القول بأنّ التّفسير ينقسم إلى قسمين: تفسير بالمفهوم، وهو  
 الشائع في السنة العلماء، وتفسير بالمصداق، ويكون مرادفاً للجري والتّطبيق  
 بحسب مورده الأوّل، وإنْ كان يمكن أنْ يصدق على المورد الثاني أيضاً؛ باعتبار  
 أنّ شأن التّزول لا يُعرف عادةً إلّا من الخبر، فيرجع إلى المعنى المذكور في المورد  
 الأوّل، فتدبر.

أما بالنسبة لاصطلاح البطون، فقد يبدو للوهلة الأولى وجود تهاوت في كلمات العلامة الطباطبائي رحمته الله؛ إذ صريح بعضها يُعطي أن مصطلح الجري والتطيق عبارة أخرى عن حمل الآية على بطونها، بينما البعض الآخر ظاهر في التغاير.

فمن الأوّل قوله في معرض الاستدلال على أن الجري على المصدق اصطلاح مأخوذ من أهل البيت عليهم السلام:

«واعلم أن الجري - وكثيراً ما نستعمله في هذا الكتاب - اصطلاح مأخوذ من قول أئمة أهل البيت عليهم السلام، ففي تفسير العياشي عن الفضيل بن يسار، قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن هذه الرواية: ما في القرآن آية إلا ولها ظهر وبطن، وما فيها حرف إلا وله حد، ولكل حد مطلع. ما يعني بقوله: (حد وبطن)؟ قال: ظهره تنزيله، وبطنه تأويله، منه ما مضى، ومنه ما لم يكن بعد، يجري كما يجري الشمس والقمر، كلما جاء منه شيء وقع، الحديث» <sup>(١٧)</sup>.

فإن هذا منه كالصريح في كون الجري والتطيق عبارة أخرى عن بطن القرآن الذي يجري مجرى الشمس والقمر في التجدد والانطباق على المصدق.

ومن الثاني، قوله في موضع من تفسيره الجليل:

«وفي عدة من الروايات أن الآيات السابقة نزلت في أعداء آل البيت عليهم السلام، والظاهر أنها من قبيل الجري والتطيق، أو الأخذ بباطن المعنى» <sup>(١٨)</sup>.

وقال في موضع آخر منه: «وهي من الجري والتطيق أو من البطن، وليست بمفسرة» <sup>(١٩)</sup>.

فإن كلامه في كلا الموضعين ظاهر في أن الجري والتطيق من قبيل الحمل على المصدق، وهو غير الأخذ بباطن المعنى؛ كما هو قضية العطف بأو. والموضع الثاني منهما صريح في كون الجري مغايراً للتفسير كما أسلفنا.

وأصرح منهما قوله في موضع آخر: «هو من البطن المقابل للظهر بالمعنى...»

ويمكن أن يكون من الجري والتطبيق على المصداق»<sup>(٢٠)</sup>.

وعلى أساس الصنف الأول من كلمات العلامة جزم البعض بأن الجري والتطبيق هو التأويل بواسطة البطون، وخصّ إعماله بالمعصوم<sup>(٢١)</sup>.

بينما جزم بعض آخر على أساس الصنف الثاني بأن ما يُسمّى العلامة الطباطبائي<sup>(٢٢)</sup> بالجري والتطبيق مغايرٌ للتفسير بالباطن؛ حيث قال:

«وربما يتصور الجاهل أن هذا النوع من التفسير تفسير بالرأي، أو تفسير بالباطن، غافلاً عن أنه تفسيرٌ بالمصداق والتطبيق»<sup>(٢٣)</sup>.

إلا أن هذا التهافت البدوي في كلماته<sup>(٢٤)</sup> يمكن دفعه بأن البطن الوارد في رواية الفضيل بن يسار المجهول من باب الجري والتطبيق غير البطن القسم للجري والتطبيق في سائر كلمات العلامة. فإن البطن في تلك الرواية جعل في مقابل الظاهر المحمول على التنزيل، فيكون المعنى أن المصداق الذي نزلت فيه الآية المعبر عنه بشأن النزول هو الظاهر، والمصداق المتجدد هو البطن.

بينما البطن في سائر كلماته ليس هو عبارة عن المصداق المتجدد للمفهوم ليلزم التهافت، بل هو المعنى البعيد عن الأفهام الذي لا يناله إلا الله والراسخون في العلم، وهو من المعاني الطولية المترتبة على الألفاظ إمّا كترتب اللوازم على المدلول المطابقي، وإمّا أنها ليست من قبيل المعاني المرادة باللفظ، بل من قبيل الحقائق العينية<sup>(٢٥)</sup>، فالبطون مصونة عند الله عز وجل، وتعتبر من الأسرار المكنونة التي يودعها الباري عند النبي وآل بيته صلوات الله عليهم أجمعين<sup>(٢٦)</sup>. وعليه فلا يكون منه باب حمل المفهوم على المصداق؛ لأن صدق المفهوم على المصداق بعد الالتفات إلى حقيقة المفهوم يكون قهرياً.

فتحصل أن باب الجري والتطبيق مغايرٌ لكُل من باب التفسير وباب الحمل على البطون.

وبهذا يتضح الخلط الذي وقع فيه بعض الكتاب في مقالة له حول هذا

الموضوع، بين مصطلح الجري والتطبيق ومصطلح الحمل على البطون والتأويل؛ حيث نجده قد جعل ما ذكره الذهبي من قوله: «وَأَمَّا الْبَاطِنُ الَّذِي يَقُولُ بِهِ الشَّيْعَةُ فَنُفْيٌ يَتَّفَقُ مَعَ أَذْوَاقِهِمْ وَمَشَارِبِهِمْ، وَلَيْسَ فِي اللَّفْظِ الْقِرَاءَتِيُّ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ وَلَوْ بِالْإِشَارَةِ»، مقابلاً لقول العلامة الطَّبَّاطبائي رحمته الله: «وهذه سليقة أئمة أهل البيت؛ فَإِنَّهُمْ عليهم السلام يَطْبُقُونَ الْآيَةَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلَى مَا يَقْبَلُ أَنْ يَنْطَبِقَ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوَارِدِ وَإِنْ كَانَ خَارِجاً عَنْ مَوْرِدِ النَّزُولِ». فكلامه واضح في أَنَّ الباطن الَّذِي يُشْنَعُ فِيهِ الذَّهَبِيُّ عَلَى الشَّيْعَةِ هُوَ نَفْسُ الْجَرِيِّ وَالتَّطْبِيقِ الَّذِي نَسَبَهُ الْعَلَّامَةُ إِلَى سَلِيْقَةِ أَهْلِ الْبَيْتِ عليهم السلام <sup>(١٥)</sup>، وَلَكِنَّكَ قَدْ عَرَفْتَ بَعْدَ ذَلِكَ عَنْ الصَّوَابِ. وَأَمَّا مَا ذَكَرَهُ الذَّهَبِيُّ، فَالَرَّدُ عَلَيْهِ يُجْرِي الْمَقَالَةَ عَنْ مَوْضُوعِهَا.

نعم، يُسْتَفَادُ مِنْ بَعْضِ كَلِمَاتِ الْعَلَّامَةِ الطَّبَّاطبَائِيِّ رحمته الله أَنَّ لِلْجَرِيِّ وَالتَّطْبِيقِ مَرَاتِبَ، أَدْقُهَا رِبَا يُصْطَلَحُ عَلَيْهِ بِالْحَمْلِ عَلَى الْبَطُونِ، وَهُوَ غَيْرُ التَّأْوِيلِ بِالْبَطْنِ الْمُتَقَدِّمِ. قَالَ رحمته الله:

«فِيَنْطَبِقُ فِي التَّنْزِيلِ عَلَى الْجَرِيِّ الَّذِي اصْطَلَحَ عَلَيْهِ الْأَخْبَارُ فِي انْطِبَاقِ الْكَلَامِ بِمَعْنَاهُ عَلَى الْمَصْدَاقِ، كَانْطِبَاقُ قَوْلِهِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]، عَلَى كُلِّ طَائِفَةٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الْمَوْجُودِينَ فِي الْأَعْصَارِ الْمُتَأَخِّرَةِ عَنْ زَمَانِ نَزُولِ الْآيَةِ، وَهَذَا نَوْعٌ مِنَ الْانْطِبَاقِ، وَكَانْطِبَاقُ آيَاتِ الْجِهَادِ عَلَى جِهَادِ النَّفْسِ، وَانْطِبَاقُ آيَاتِ الْمُنَافِقِينَ عَلَى الْفَاسِقِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَهَذَا نَوْعٌ آخَرٌ مِنَ الْانْطِبَاقِ أَدْقُ مِنَ الْأَوَّلِ، وَكَانْطِبَاقُهَا وَانْطِبَاقُ آيَاتِ الْمَذْنِبِينَ عَلَى أَهْلِ الْمُرَاقَبَةِ وَالذِّكْرِ وَالْحَضُورِ فِي تَقْصِيرِهِمْ وَمَسَاهَلَتِهِمْ فِي ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى، وَهَذَا نَوْعٌ آخَرٌ أَدْقُ مِنْ مَا تَقَدَّمَ، وَكَانْطِبَاقُهَا عَلَيْهِمْ فِي قُصُورِهِمُ الدَّائِي عَنْ أَدَاءِ حَقِّ الرُّبُوبِيَّةِ، وَهَذَا نَوْعٌ آخَرٌ أَدْقُ مِنَ الْجَمِيعِ. وَمِنْ هُنَا يَظْهَرُ أَوَّلًا: أَنَّ لِلْقُرْآنِ مَرَاتِبَ مِنَ الْمَعَانِي الْمُرَادَةِ بِحَسَبِ مَرَاتِبِ أَهْلِهِ وَمَقَامَاتِهِمْ، وَقَدْ صَوَّرَ الْبَاحِثُونَ عَنْ مَقَامَاتِ الْإِيْمَانِ وَالْوَلَايَةِ مِنْ مَعَانِيهِ مَا هُوَ أَدْقُ مِمَّا ذَكَرْنَاهُ. وَثَانِيًا: أَنَّ الظُّهْرَ



والبطن أمران نسيان، فكلُّ ظهرٍ بطنٌ بالنسبة إلى ظهره، وبالعكس...»<sup>(٣٦)</sup>. ولعلّه يُشير في قوله: (وقد صوّر الباحثون عن مقامات الإيوان والولاية) إلى محيي الدين ابن العربي من أعلام القرن السابع؛ حيث أكثر في التفسير المنسوب إليه من استعمال مصطلح التّطبيع على تلك المراتب الدّقيقة والمضامين اللّطيفة، وإليك مثلاً واضحاً على ذلك: قال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾<sup>(٣٧)</sup>: «وإن شئت التّطبيع على تفاصيل وجودك، فمعناه خلق سموات القوى الرّوحانيّة، وأرض الجسد في الأشهر الستة التي هي أقلّ مدّة الحمل، وكان عرشه الَّذي هو قلب المؤمن على ماء مادة الجسد مستولياً عليه متعلّقاً به تعلّق التّصوير والتّديب»<sup>(٣٨)</sup>.

### جولة في أنواع الجري والتّطبيع:

قد عرفت قريباً أنّ الجري والتّطبيع له مراتب بعضها أدق من بعض، ولكن لم يُبيّن امتيازات هذه المراتب وحدودها، فضلاً عمّا يترتّب عليها من نتائج وثمرات. ومن خلال تتبّعي لموارد استعمال هذا الاصطلاح، مع الأخذ بعين الاعتبار الأخبار الدّالة عليه والتي سيأتي الإشارة إلى بعضها عن قريب، نستطيع أن نذكر للجري والتّطبيع أنواعاً ثلاث:

النّوع الأوّل: أن يكون انطباق المفهوم على المصداق؛ لكون المصداق هو مورد نزول الآية من دون أن تكون الآية مختصّة بمورد نزولها، فيقال - حيثنذ - أنّ المفهوم من الآية جرى على مصداقٍ معيّن، وله قابليّة الانطباق على غيره من المصاديق الطّوليّة الحادثة بعد نزول الوحي، والممتدّة في عمود الزّمن. وأمثله كثيرة جدّاً، من قبيل الأخبار الواردة في حمل الفاسق في قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَ كُرْهُ فاسِقٌ يَنْبِئُ فَجَبَرْتُمْ أَنْ تَتَّبِعُوا قَوْمًا يَحْجَلُونَ فَتَصِيحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾<sup>(٣٩)</sup> على الوليد بن عُقبة بن أبي معيط<sup>(٤٠)</sup>.

وهذا النوع لا يحتاج إلى أكثر من معرفة المدلول اللغوي والعرفي للآية، ومعرفة أن الفرد الذي يُراد تسرية الآية إليه في عمود الزمن مما ينطبق عليه ذلك المفهوم اللغوي بوضوح. وعليه فلا يختص هذا النوع من الجري والتطبيق بالارتباط بالغيب عن طريق المعصوم.

النوع الثاني: نفس النوع السابق مع اختصاص المفهوم بذلك المصدق، وربما يصلح مثالا له ما ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَكُمْ إِذْ تُنْزِلُ السَّاعَةُ لَنْفَعَكُمُ اللَّهُ إِلَى الْكَافِرِينَ﴾<sup>(٣١)</sup>، من أن المراد من ﴿أَبْنَاءَنَا﴾: الحسن والحسين عليهما السلام، ومن ﴿وَنِسَاءَنَا﴾: فاطمة عليها السلام، ومن ﴿وَأَنْفُسَنَا﴾: علي بن أبي طالب عليه السلام<sup>(٣٢)</sup>.

وبوجود هذا النوع من الجري والتطبيق يندفع ما ذكره الشيخ محمد عبده على ما نُسب إليه - بعد اعترافه بأن الروايات متفقة على أن النبي صلى الله عليه وآله اختار للمباهلة من ذكرنا - من قوله: «ويحملون كلمة ﴿وَنِسَاءَنَا﴾ على فاطمة، وكلمة ﴿وَأَنْفُسَنَا﴾ على علي فقط. ومصادر هذه الروايات الشيعة، ومقصدهم منها معروف. وقد اجتهدوا في ترويحها ما استطاعوا حتى راجت على كثير من أهل السنة، ولكن واضعها لم يُحسنوا تطبيقها على الآية؛ فإن كلمة ﴿وَنِسَاءَنَا﴾ لا يقولها العربي ويُريد بها بنته...»<sup>(٣٣)</sup>.

وحاصل الدفع: أنه قد أساء الفهم؛ حيث توهم أن المراد من النصوص الواردة بيان معنى اللفظ، مع أنك قد عرفت أنها لبيان الفرد والمصدق.

فالتباس الأمر عليه، واختلاط المفهوم بالمصدق هو الذي دعاه إلى رمي الأخبار الذي اعترف باتفاقها على ما ذكرنا، من دون أن يأتي على ذلك ببرهان يذكر ودليل ينظر إلا صرف موافقتها لعقيدة الشيعة.

ثم إنه قد التزمت فيها بكونها من نوع اختصاص المفهوم بالمصدق باعتبار

أنها تنقل حادثة قد وقعت، وليست بصدد تشريع حكم، أو بيان مدح أو قذح لوصفٍ كُتِبَ، أو نحو ذلك مما يُستفاد منه التعميم، انحصر المفهوم منها بتلك المصاديق الخاصة.

نعم، يُستفاد من الآية مشروعية المباحلة مع أهل الكتاب، ومشروعية الإتيان بمن ينطبق عليهم المفاهيم الواردة فيه، إلا أن هذا شيءٌ وما تحكي عنه الآية شيءٌ آخر.

ومن هنا يتضح أن هذا النوع من الجري كسابقه في عدم توقُّف أصله على الارتباط بالوحي، نعم انحصار المفهوم بالمصدق كثيراً من يُحتاج إلى ذلك إذا لم يوجد ما يدلُّ عليه من الكلام.

النوع الثالث: ما كان الصِّدْق فيه على المورد الَّذِي يُراد تسرية الآية وانسيابها إليه ليس من باب الصِّدْق القهري للمفهوم على المصدق؛ كي يتأتَّى ذلك لكلِّ أحد، وإنما يكون ذلك إمَّا عن طريق التَّرابط بين المورد الَّذِي يُراد التَّسرية إليه وبين مفهوم الآية أو مصداقها بنوعٍ من العلة الالتزامية الدَّقيقة ونحوها، ليكون - حينئذٍ - هذا النوع من الصِّدْق هو الحمل على البطن الَّذِي أخرجناه - سابقاً - عن الجري والتَّطبيق الاصطلاحي. ولعلَّ هذا هو المعنى الشائع استعماله في تفسير ابن العربي.

وهذا النوع من الجري والحمل على البطن بحاجةً حتماً إلى الارتباط بالغيب عن طريق نبيٍّ أو وليٍّ معصوم؛ قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا يَكْمُ تَأْوِيلُهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَأَمَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (٣٤).

جولة في الأخبار الدالة على هذا الاصطلاح:

قد توهم البعض أن هذا الاصطلاح من مختصات العلامة الطَّبَّاطبائي رحمه الله في تفسيره الجليل، ممَّا سهَّل للبعض أن ينظر إليه على أساس أنه مصطلحٌ مبتدعٌ لم

يمشي عليه السلف الصالح من مفسري الإمامية، وتجاوز ذلك إلى كونه يؤدي إلى تضعيف النصوص الواردة في حل بعض الآيات على أهل البيت عليهم السلام أو أعدائهم. ولكن قد فات هذا البعض أن هذا الاصطلاح ليس أنه له وجود في كلمات بعض من تقدّم على العلامة أو عاصره فحسب، بل له جذور أساسية في كلمات أهل بيت العصمة صلوات الله وسلامه عليهم.

أمّا النصوص التي تدلّ على هذا الاصطلاح في الأخبار الواردة عن المعصومين عليهم السلام، فمنها:

١ - ما رواه البرقي بإسناده إلى معاذ بن مسلم، في حديث له عن أبي عبد الله عليه السلام، ورد فيه: «... قال: القرآن نزل في أقوام، وهي تجري في الناس إلى يوم القيامة...» <sup>(٣٥)</sup>.

٢ - ما رواه الصفار بإسناد صحيح إلى فضيل بن يسار، في حديث عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «... منه ما قد مضى، ومنه ما لم يكن، يجري كما يجري الشمس والقمر...» <sup>(٣٦)</sup>.

٣ - ما رواه التّعماني بإسناده إلى سماعة بن مهران، في حديث عن أبي عبد الله عليه السلام، جاء فيه: «للقرآن تأويل يجري كما يجري الشمس والقمر، فإذا جاء تأويل شيء منه وقع، فمنه ما قد جاء، ومنه ما لم يجر» <sup>(٣٧)</sup>.

٤ - ما رواه العياشي بإسناده إلى أبي جعفر عليه السلام: «... ولو أن الآية إذا نزلت في قوم ثم مات أولئك القوم ماتت الآية لما بقي من القرآن شيء، ولكن القرآن يجري أوله على آخره ما دامت السموات والأرض...» <sup>(٣٨)</sup>.

٥ - وعنه أيضاً، قال: أبو عبد الله عليه السلام: «إن القرآن حيّ لم يمّت، وإنّه يجري ما يجري الليل والنهار، وكما تجري الشمس والقمر، ويجري على آخرنا كما يجري على أولنا» <sup>(٣٩)</sup>.

وهذه الأخبار وإن كانت ظاهرة في إرادة المعنى الثاني من المعنيين المتقدمين

في الجري والتطبيق، إلا أنها قابلة لاستفادة المعنى الأول منها بعناية يسيرة، كما لا يخفى على المتمعن.

ثم إن هذه الأخبار نقلناها لأجل بيان أن هذا المصطلح بألفاظه متأثر بما ورد عن أهل بيت النبوة صلوات الله عليهم، ولم نورد لها لأجل الاستدلال على صحة أصل النظرية؛ وذلك لاعتقادي بعقلانية هذه النظرية التي تكون تلك الأخبار - في الحقيقة - بمثابة الإمضاء لها. فإن الإنسان من جهة تعلق وجوده بالطبيعة الجسمانية، وقطونه المعجل في الدنيا المادية ألف من كل معنى مصداقه، فصار الإدراك بواسطة المصداق أسرع من تعقل المفاهيم الكلية، ومن هنا صار إعطاء الضابط بالمثال أوقع في النفوس من نفس تلقين الكبرى. وقد شاعت هذه الطريقة عند علماء التربية - خصوصاً في مجال تعليم الناشئة - فأصبح إحضار المعاني الكلية عن طريق إحضار مصاديقها طريقة متبعة.

#### جولة مع المستعملين لهذا الاصطلاح:

أما الذين استفادوا من هذا الاصطلاح في فهم الآيات غير من أورد تلك الأخبار المتقدمة في كتبه كالعياشي وعلي بن إبراهيم، فهم كثيرون، سواء في كتب التفسير أم في غيرها، وسواء عبروا بنفس لفظ الجري والتطبيق أم بما يرادفها من التعبيرات.

فمنهم: الشيخ حسن الكركي الذي كان حياً إلى سنة (٩٧٢هـ)، حيث قال بعد إirاده لخبر عن أبي عبد الله عليه السلام في تفسير قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ - نزلت في رحم آل محمد عليه وعليهم السلام، وقد تكون في قرابتك، ثم قال: ولا تكونن ممن يقول للشئ إنه في شئ واحد -: «قلت لعله عليه السلام يشير بذلك إلى أنه لا عبرة بخصوص سبب النزول، وإنما العبرة بعموم اللفظ، وحيث لا يبعد الاستدلال بذلك على التّغيب في صلة مطلق القرابة

حتى النَّاتية بسبب الإيهان»<sup>(٤٠)</sup>.

فإنَّ هذا الكلام منه واضح الدلالة على أنَّه قد فهم من الخبر المذكور أنَّ الآية يصحُّ جزيها وتطبيقها على المصاديق المشتركة مع مورد التَّزول، وهذا عين ما يُراد من الجري والتَّطبيق.

ومنهم: الشَّيخ ملا محسن المعروف بالفيض الكاشاني (١٠٠٧ - ١٠٩١)، قال في ديباجة تفسيره في سياق المؤاخذه على التَّفاسير الرَّائجة:

«ومنه ما يشتمل على ما يوهم عليه التَّنَاقُض والتَّضَاد؛ لتخصيص المعنى تارةً ببعض الأفراد كأنَّه هو المراد، وتارةً بفردٍ آخر كأنَّ غيره لا يُراد، من غير تعرُّضٍ للجمع والتَّوفيق، ولا إتيانٍ بما هو التَّحقيق. وجلُّه يشتمل على ما يوهم اختصاص آيات الرَّحمة بأشخاصٍ بأعيانهم، كأنَّها لا يجاوزهم إلى الغير، واختصاص آيات العذاب بأشخاصٍ آخر كأنَّهم خُصُّوا بالبعد عن الخير من غير تعرُّضٍ منهم لبيان المراد، وأنَّ ليس المقصود بهما خصوص الآحاد والأفراد، كما يعرفه البصير في الدِّين والخبير بأسرار كلام المعصومين، كيف! ولو كان ذلك كذلك لكان القرآن قليل الفائدة، يسير الجدوى والعائدة، حاشاه عن ذلك، بل إنَّما ورد ذلك على سبيل المثال؛ لإزاحة الخفاء، أو ذكر الفرد الأكمل والأخفى، أو المنزل فيه، أو للإشارة إلى أحد بطون معانيه»<sup>(٤١)</sup>.

ثمَّ إنَّه في تعليقه على الكتاب ذكر مثلاً لما يوهم التَّنَاقُض والتَّضَاد يدلُّنا بوضوح على أنَّه يلتزم بمقولة الجري والتَّطبيق؛ حيث قال فيها: «وذلك كما ورد في قول الله ﷻ: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾، تارةً بأنَّ المراد بالغيب التَّوْحِيد، وأخرى أنَّ المراد به الأنبياء الماضون، وأخرى أنَّ المراد به القيامة، وأخرى أنَّ المراد به القائم عليه السلام، وأخرى أنَّ المراد به الرَّجعة، إلى غير ذلك. وهذه الأخبار توهم التَّنَاقُض، وليست بمتناقضة؛ لأنَّ المراد به الجميع دائماً، خرجت على ما اقتضاه الحال، وارتضاه السُّؤال»<sup>(٤٢)</sup>.

ومنهـم: الشَّيْخ مرتضى الأنصاري المعروف بالشَّيْخ الأعظم (١٢١٤ - ١٢٨١)، قال بعد ذكره لرواية عن النَّبِيِّ ﷺ طَبَّقَهَا على زمانه: «وَكأنَّ كلامه ﷺ - كالكتاب العزيز - واردٌ في موردٍ وجارٍ في نظيره»<sup>(٤٣)</sup>.

فالكتاب العزيز بنظره الشَّريف لا يختص بالمورد الَّذي يرد فيه، وهو ما يُسمَّى بشأن التُّزول، وإنَّما له قابليَّة الانطباق على المصاديق والموارد المتجدِّدة على مرِّ الدُّهور، كما تقدَّم استفادة ذلك من بعض النُّصوص الواردة عن أهل بيت العصمة صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

ومنهـم: ميرزا مُحَمَّد تقي الإصفهاني المتوفَّى سنة (١٣٤٨هـ) أي: قبل صدور الجزء الأوَّل من تفسير الميزان بسبع وعشرين سنة<sup>(٤٤)</sup>، قال في سياق الحديث عن آية المودة: «وقد تحصَّل من هذه المقدِّمة أنَّ القرية هم ذُرِّيَّة النَّبِيِّ ﷺ، وقد ورد في بعض رواياتنا ذلك أيضاً، وفي بعضها أنَّ المراد بالقريى الأئمة عليهم السلام، ويمكن الجمع بينهما بوجهين: أحدهما: أنَّ ذكر الأئمة من باب ذكر المصداق الكامل، كما ورد نظيره في كثير من التِّفاسير»<sup>(٤٥)</sup>. فإنَّه ﷺ وإن لم ينصَّ على لفظ الجري والتَّطبيق، إلَّا أنَّه ذكر عين معناه مدَّعيّاً ورود نظيره في كثير من التِّفاسير.

ومنهـم: الشَّيْخ مُحَمَّد جواد البلاغي (١٢٨٢ - ١٣٥٢)؛ فإنَّه بعد أن نقل عن صاحب مجمع البيان روايةً بحمل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُرُونَ أَنْفُسَهُمْ بِلِلَّهِ يَزْكِي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٤٩] على اليهود والنَّصارى؛ لقولهم: ﴿مَنْ أَبْنَوْا لِلَّهِ وَأَحْبَبُوهُ﴾، قال: «ولم أجد للرواية أثراً، وعليها فالتفسير بذلك من باب الانطباق وبعض المصاديق»<sup>(٤٦)</sup>.

ومنهـم: السيِّد أبو القاسم الخوئي ﷺ (١٣١٧ - ١٤١٣)، فإنَّه وإن كانت وفاته بعد وفاة العلامة الطَّبَّاطبائي بمُدَّة، إلَّا أنَّ ولادته قبل ولادة العلامة بثلاث سنوات. قال في مقام الجواب عن دعوى اختصاص آية الأكل بالباطل بأموال اليتامى والوديعة والمال المتنازع فيه: «نعم، قد فُسِّرَت الآية الشَّريفة بكُلِّ

واحد من الأمور المذكورة، إِلَّا أَنَّ هذه التَّفاسير من قبيل بيان المصداق، والقرآن لا يختصُّ بطائفة، ولا مصداق، بل يجري كجري الشمس والقمر، كما دلَّت عليه جملة من الروايات»<sup>(٤٧)</sup>.

ومنهم: معاصره السيّد عبد الأعلى السبزواري، حيث قال في سياق الحديث عن المغضوب عليهم والضالّين: «تفسير الأوّل باليهود، والثاني بالنصارى من باب التّطبيق لا التّخصيص»<sup>(٤٨)</sup>. وليس استعماله لهذا الاصطلاح منحصرٌ بهذا المورد، بل استفاد منه في تفسيره عشرات المرات.

وقد شاع هذا الاصطلاح في عصرنا كثيراً، فأورده جملةٌ ممن كتب في التفسير في كتبه، ومنها على سبيل المثال لا الحصر: بدائع الكلام في تفسير آيات الأحكام، تفسير من وحي القرآن، الأمل في تفسير كتاب الله المنزل، الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن.

### الثمرات المترتبة على القول بهذا الاصطلاح:

يُمْكِنُ أَنْ يَذْكُرَ لهذا الاصطلاح ثمرات ثلاث:

الثمرة الأولى: بقاء القرآن حيّاً متجدّداً، وهذا ما يُستفاد من قوله ﷺ المتقدّم: «... ولو أَنَّ الآية إذا نزلت في قومٍ ثُمَّ مات أولئك القوم ماتت الآية لما بقي من القرآن شيءٌ، ولكنَّ القرآن يجري أوّله على آخره ما دامت السّماوات والأرض...».

الثمرة الثانية: رفع التّنافي والتّعارض الَّذِي يُمَكِّنُ أَنْ يُتَوَهَّم بدوّاً في الأخبار الواردة في تفسير الآيات؛ حيث إنّها بحملها على الجري والتّطبيق والتّفسير بالمصداق لا يكون هناك مانعٌ من الأخذ بها بأجمعها بعد ثبوت مقتضي لكلٍّ واحدٍ منها. والأمثلة على ذلك كثيرة، قد أشار الفيض الكاشاني رحمه الله فيها نقلناه عنه سابقاً إلى بعضها.



وقد نصَّ على هذا الثمرة بعض الفقهاء أيضاً، قال في فقه الصادق (عليه السلام) بعد إيراد صاحب المستند على الاستدلال بآية ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾<sup>(٥٠)</sup> بأنَّ النصوص الواردة في تفسيرها بالغناء معارضة مع النصوص الأخر المفسرة إياها بتفسير آخر: «وفيه أنَّ الروايات الواردة في تفسير القرآن كُلِّها من قبيل تعيين المصدق، ولا تدلُّ على الانحصار، فلا تعارض بينها»<sup>(٥١)</sup>.

ونحن وإن كنَّا لا نوافقه على الكلِّية المذكورة في كلامه وليبان ذلك محلُّ آخر، إلَّا أنَّ الثمرة المستفادة من كلامه في محلِّها.

الثمرَّة الثالثة: رفع شبهة اختلاف الأخبار مع المفهوم اللغوي للآية، المستوجب لردِّ الأخبار، كما تقدَّم توضيحه في آية المباهلة.

### تطبيقات للجري والتطبيق في كتب جمهور السُّنَّة:

مصطلح الجري والتطبيق وإن لم يكن معروفاً بهذا العنوان عند العامة، إلَّا أنَّه يوجد في كتبهم التفسيرية وغيرها ما يدلُّ على واقع الاصطلاح، ونكتفي بالإشارة إلى نموذجين:

النموذج الأول: ما أورده الثعلبي (ت: ٤٢٧) في تفسيره بالإسناد التالي:

«وأخبرني أبو عبد الله الحسين بن مُحَمَّد الدينوري، قال: حَدَّثَنَا أَبُو زُرْعَةَ أَحْمَدُ بْنُ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ الرَّازِي، قال: حَدَّثَنَا أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ سَعِيدِ الْهَمْدَانِي بِالْكُوفَةِ، قال: حَدَّثَنَا الْمُنْذِرُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْقَابُوسِي، قال: حَدَّثَنِي الْحُسَيْنُ بْنُ سَعِيدٍ، قال: حَدَّثَنِي أَبِي عَنْ أَبَانَ بْنِ تَغْلِبٍ، عَنْ نَفِيعِ بْنِ الْحَرِثِ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، وَعَنْ بَرِيدَةَ، قَالَا: قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذَكَّرَ فِيهَا أَسْمُهُ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَالْأَبْصَنُ﴾، فَقَامَ رَجُلٌ فَقَالَ: أَيُّ بَيْتٍ هَذِهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: بَيْتُ الْأَنْبِيَاءِ. قَالَ: فَقَامَ إِلَيْهِ أَبُو بَكْرٍ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا الْبَيْتُ مِنْهَا - لَبِيتَ عَلِيٍّ وَفَاطِمَةَ -؟ قَالَ: نَعَمْ مِنْ أَفْضَلِهَا»<sup>(٥١)</sup>.

ورواه الحاكم الحسكاني (ت: القرن الخامس) بإسناد قريبٍ يمّا تقدّم<sup>(٥٢)</sup>.

ورواه السيوطي (ت: ٩١١ هـ) بإسناده عن ابن مردويه، عن أنس بن مالك وبريدة مثله<sup>(٥٣)</sup>.

وقد علّق على هذا الحديث العلامة الألوسي بقوله: «وهذا إن صحّ لا ينبغي العدول عنه»<sup>(٥٤)</sup>. ولم يبد وجهاً لعدم صحّته، يمّا يعني ارتضاؤه له.

النموذج الثاني: وما ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾<sup>(٥٥)</sup>، قال ابن حجر: «والمستغرب ما رواه الطبري بإسنادٍ حسنٍ من طريق سعيد ابن جبير، عن ابن عباس، قال: لما نزلت هذه الآية وضع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يده على صدره، وقال: أنا المنذر، وأوماً إلى عليّ، وقال: أنت الهادي، بك يهتدي المهتدون بعدي...»<sup>(٥٦)</sup>.

وقد نقل هذا الحديث جمعٌ من العلماء في كتبهم<sup>(٥٧)</sup>.

### الخاتمة:

يُمكن تلخيص النتائج التي تمّ التوصل إليها في هذه المقالة على الشكل التالي:

١ - الجري والتّطبيق لغةٌ يُعطي معنى الانسياب والتّوافق. واصطلاحاً يُطلق على معنيين يجمعهما: «حمل الكلام بما له من معنى عام على مصداقٍ من مصاديقه، الذي يكون للمتكلّم مزيد عناية به».

أ - حمل الخبر الوارد في تفسير الآية على مصداقٍ خاص.

ب - شأن نزول الآية هو مصداقها التي قد لا تختصّ به.

٢ - الجري والتّطبيق له اصطلاحات مشابهة عند العلماء، من قبيل: التّمثيل لا الاشتراط، والمورد لا يخصّص الوارد، ووارد في موردٍ وجارٍ في نظيره...

٣ - يختلف الجري والتّطبيق عن التّفسير أن الأوّل تفسيرٌ بالمصداق، والثاني

كشف للمدلول والمفهوم.

٤ - الجري يُغايِر الحمل على البطون في اصطلاح، وهو نوعٌ منه في اصطلاح آخر.

٥ - الجري على المصداق اصطلاحٌ مأخوذ من الأخبار، ومستعملٌ قبل العلامة الطَّبَّاطبائيؒ في كلمات كثيرٍ من العلماء، وإن كان يُعتبر العلامة - بحقٍ - هو المشيّد لمعالمه والمكثر من الاستفادة منه.

٦ - يترتّب على هذه النّظرية ثلاث ثمرات:

أ - بقاء القرآن حيّاً متجدّداً بزوال المورد الذي نزلت في شأنه الآية.

ب - ارتفاع التّنافي البدوي الذي قد يوجد بين الأخبار الواردة في تفسير الآيات بالمصداق.

ج - رفع شبهة اختلاف الأخبار مع المفهوم اللّغوي للآية.

\* \* \*

## الهوامش:

(١) انظر: الصّحاح للجوهري ٦: ٢٣٠١، تحقيق أحمد عبد الغفور، نشر دار العلم للملايين، الطّبعة الرَّابعة ١٤٠٧هـ. معجم مقاييس اللّغة لابن فارس ١: ٤٤٨، نشر مكتب الإعلام الإسلامي، جادى الآخرة ١٤٠٤هـ.

(٢) هود: ٤١.

(٣) معجم مقاييس اللّغة ٣: ٤٣٩.

(٤) البقرة: ٨١.

(٥) الميزان في تفسير القرآن ١: ٢١٥، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، الطّبعة الأولى ١٤١٧، بيروت.

(٦) البقرة: ١٢١.

- (٧) الميزان في تفسير القرآن ١: ٢٦٢.
- (٨) المصدر نفسه ٣: ٨٤.
- (٩) الميزان في تفسير القرآن ١٦: ١٤٨.
- (١٠) المصدر نفسه ١٧: ١٢.
- (١١) الطباطبائي، محمد حسين: القرآن في الإسلام: ٥١، تعريب: أحمد الحسيني.
- (١٢) مسالك الأفهام إلى تنقيح شرائع الإسلام ٧: ٤٩٩، نشر مؤسسة المعارف الإسلامية، الطبعة الأولى ١٤١٣، قم.
- (١٣) العاملي محمد بن علي الموسوي، نهاية المرام في شرح مختصر شرائع الإسلام ١: ٢٣٩، نشر مؤسسة النشر الإسلامي، الطبعة الأولى ١٤١٣، قم المقدسة.
- (١٤) ذخيرة المعاد ١: ٣١٠، نشر مؤسسة آل البيت لإحياء التراث.
- (١٥) راجع فرائد الأصول ١: ١٤٢، تحقيق لجنة تحقيق تراث الشيخ، نشر مجمع الفكر الإسلامي، الطبعة الأولى ١٤١٩ هـ.
- (١٦) راجع: المكاسب المحرمة: ١٥٠، روح الله الموسوي، نشر مؤسسة إسماعيليان، قم، ١٣٨١.
- (١٧) الميزان في تفسير القرآن ١: ٤٤.
- (١٨) المصدر نفسه ٧: ١١٣.
- (١٩) المصدر نفسه ١٩: ٢٦٧.
- (٢٠) المصدر نفسه ٥: ٢٢٢.
- (٢١) راجع: سيفي مازندراني، دروس تمهيدية في القواعد التفسيرية، الحلقة الأولى، مؤسسة النشر الإسلامي، الطبعة الأولى ١٤٢٨، قم.
- (٢٢) الشبكاني، جعفر، مفاهيم القرآن ١٠: ٣٢١، نشر مؤسسة الإمام الصادق، الطبعة الأولى، قم.
- (٢٣) انظر الميزان ٣: ٥٢، وهذا الكلام وإن أفاده في معنى التأويل، إلا أنه قد أرجع إليه في الجزء الخامس، صفحة: ٢٢٢، عندما أراد أن يُفسر المراد من البطن، فتدبر جيداً.
- (٢٤) راجع شرح أصول الكافي للمازندراني ٢: ٣٢٢، الطبعة الأولى بالأفست المطبوعة مع تعليقات الميرزا أبو الحسن الشعراني.
- (٢٥) انظر: شاکر، محمد كاظم: [الجرى والتطبيق القرآنيان]. مجلة المنهاج، العدد ٣٢، شتاء ١٤٢٤.
- (٢٦) الميزان في تفسير القرآن ٣: ٨٤.
- (٢٧) هود: ٧.
- (٢٨) تفسير ابن العربي ١: ٢٩٤، نشر دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى ١٤٢٢، بيروت.

- (٢٩) الحجرات: ٦.
- (٣٠) راجع: الطوسي، مُحَمَّد بن الحسن، التبيان في تفسير القرآن ٩: ٣٤٣، تحقيق الشَّيْخ أحمد قصير العاملي، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت. الواحدي، علي بن أحمد، أسباب نزول القرآن: ٤٠٧، تحقيق كمال بسيوني زغلول، نشر دار الكتب العلميَّة، الطَّبعة الأولى: ١٤١١، بيروت.
- (٣١) آل عمران: ٦١.
- (٣٢) المصادر التي ذكرت ذلك من العامة والخاصة فوق حدِّ الإحصاء.
- (٣٣) رضا، مُحَمَّد رشيد، تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار) ٣: ٢٦٦، تخريج إبراهيم شمس الدِّين، منشورات مُحَمَّد علي بيضون، دار الكتب العلميَّة.
- (٣٤) آل عمران: ٧.
- (٣٥) البرقي، أحمد بن مُحَمَّد، المحاسن ١: ٢٨٩، تصحيح وتعليق جلال الدِّين الحسيني، نشر دار الكتب الإسلاميَّة، تهران.
- (٣٦) الصَّفار، مُحَمَّد بن الحسن، بصائر الدَّرجات: ٢١٦، تصحيح وتعليق: ميرزا حسن كوجه باغي، مطبعة الأحدي، تهران ١٤٠٤.
- (٣٧) النعماني، مُحَمَّد بن إبراهيم، كتاب الغيبة: ١٣٣، تحقيق: فارس حشون، الطَّبعة الأولى ١٤٢٢، نشر أنوار الهدى.
- (٣٨) العياشي مُحَمَّد بن مسعود، تفسير العياشي ١: ١٠، تحقيق: السَّيِّد هاشم الرِّسولي المحلاتي، المكتبة العلميَّة الإسلاميَّة، تهران.
- (٣٩) المصدر نفسه: ٢: ٢٠٤.
- (٤٠) أطائب الكلم في بيان صلة الرَّحم: ٢٠، تحقيق: أحمد الحسيني، الطَّبعة الأولى ١٣٩٤، نشر مكتبة المرعشي العامَّة.
- (٤١) تفسير الصَّافي ١: ١٢، نشر دار المرتضى، الطَّبعة الأولى، تصحيح وتقديم الشَّيْخ حسن الأعلمي.
- (٤٢) المصدر نفسه.
- (٤٣) كتاب المكاسب ١: ٣١٢، نشر المؤتمر العالمي للذكرى المئويَّة الثَّانية لميلاد الشَّيْخ الأنصاري، الطَّبعة الأولى ١٤١٥، قم.
- (٤٤) حيث صدر الجزء الأوَّل منه في عام ١٣٧٥.
- (٤٥) مكيال المكارم في فوائد الدُّعاء للقاظم (عليه السلام) ١: ٣٤١، تحقيق علي عاشور، الطَّبعة الأولى ١٤٢١، نشر مؤسسة الأعلمي، بيروت.

- (٤٦) آلاء الرحمن في تفسير القرآن ٢: ١٣٨، نشر بنياد بعثت، الطبعة الأولى ١٤٢٠، قم.
- (٤٧) مصباح الفقاهة ١: ٤١٦، نشر مكتبة الدّاوري، الطبعة الأولى، قم.
- (٤٨) مواهب الرحمن ١: ٤٦، نشر مؤسسة أهل البيت، الطبعة الثانية ١٤٠٩، بيروت.
- (٤٩) المؤمنون: ٣.
- (٥٠) الرّوحاني، محمّد صادق، فقه الصادق عليه السلام ١٤: ٣٢٧، الطبعة الثالثة ١٤١٣، نشر مؤسسة دار الكتاب، قم.
- (٥١) الثعلبي النّشابوري، أحمد بن إبراهيم، الكشف والبيان عن تفسير القرآن ٧: ١٠٧، الطبعة الأولى ١٤٢٣، دار إحياء الثّراث العربي، بيروت.
- (٥٢) شواهد التّنزيل ١: ٥٣٤، تحقيق الشّيخ محمّد باقر المحمودي، الطبعة الأولى ١٤١١، نشر مجمع إحياء الثقافة الإسلامية.
- (٥٣) السيوطي، جلال الدّين، الدرّ المشور في التّفسير بالمأثور ٥: ٥٠، دار المعرفة للطباعة والنّشر، بيروت.
- (٥٤) الألوسي البغدادي، شهاب الدّين السّيّد محمود، روح المعاني ١٨: ١٧٤، الطبعة الرابعة ١٤٠٥، دار إحياء الثّراث العربي، بيروت.
- (٥٥) الرّعد: ٧.
- (٥٦) فتح الباري في شرح صحيح البخاري ٨: ٢٨٥، نشر دار المعرفة للطباعة والنّشر، بيروت.
- (٥٧) راجع: الثعلبي في الكشف والبيان عن تفسير القرآن ٥: ٢٧٢. الزّرندي الحنفي في نظم درر السّمطين: ٩٠، الطبعة الأولى ١٣٧٧. الحاكم الحسكاني في شواهد التّنزيل ١: ٣٨٣. الفخر الرّازي في تفسيره الكبير في ذيل الآية المشار إليها. وغيرهم الكثير.

## في الكلام المستأنف على مقولة الاستنهاض حين يولد السُّؤال من الحدث

□ الأستاذ محمود حيدر (\*)

ربما لم تملك أطروحة الأمن الثقافي في التاريخ العربي - الإسلامي المعاصر ما يجعلها أطروحةً منجّزة، مع صعود الحداثة في الغرب من القرن السابع عشر إلى بداية القرن العشرين، وقد ظهرت أسئلة الاستنهاض العربي في بلادنا لتشهد معها نمواً موازياً.

من الأسئلة ما انعقد على سيرة الحداثة، ساعياً إلى الأخذ بأنوارها، وتمثّل أحوالها وحوادثها... ومنها ما انعقد حيال طوافنها على حذرٍ وترثُّ وشك، فانبرى إلى مضارعة مقاصدها مستشعراً خطرهما من غير طائل.

الأسئلة في الحالتين جرت على نشأة سلبية؛ ففي الأولى كانت انسحاراً بما جاء به الغرب إلينا. وفي الثانية ستألف الأسئلة على أرض المواجهة لواقع حدائقيّ يتمدد كوحشٍ خرافيّ لتوطن قِيَمَه بالقوّة.

الحالتان تؤسسان منذ ذلك الوقت لأطروحة ثقافيّة يعاد إنتاجها على نصاب

---

(\*) باحث في الفكر الشّيعي والفلسفي، رئيس تحرير مدارات غربيّة.

الأسئلة السّالبة نفسها. أطروحةٌ تستعاد كلّما اشتدّت وطأة الصّدّامات الحضاريّة المتعاقبة بين الإسلام والغرب.

وبدا كما لو أنّ سؤال الإحياء الحضاري لا يُمسك به إلّا إذا رُدّت الحملة الحدائيّة الغربيّة على أعقابها. غير أنّ حاصل الاحتدام ظلّ على الدّوام ضمن سياقه البارد. فجدليّة التّقّدّم والتّأخّر أخذت سبيلها إلى الرّسوخ، وأسئلة النّهضة باتت أدنى إلى أوعية مثقوبة لا تصلح للمراكمة والتّوالد...

النّهضيّة العربيّة في بدايات القرن الحادي والعشرين بدت كأنّها تستعيد نشأتها على صورة اللّحظة التي حفرت فيه مقولة الاستعمار سيريتها الفعلية في الجغرافيا العربيّة - الإسلاميّة قبل نحو قرنٍ مضى.

لكنّ الصّورة نفسها سوف تستأنف رحلتها بوتيرة أشدّ عمقاً مع ظهور الأطروحة الإسرائيليّة في منتصف القرن العشرين المنصرم؛ إذ مع هذا الظّهور سينشأ زمنٌ تاريخيٌّ جديد لم يعد معه سؤال النّهوض الحضاري على نسقه التقليدي، أي: على نحو ما عرّفه نهضويّو آخر القرن التّاسع عشر.

كلّ شيءٍ مع التّوليد الاستعماري للأطروحة الإسرائيليّة عاد إلى حقل الاحتدام. وصار الكلام على الثّقافي، والمعرفي، والفكري، والتّنموي، والإحيائي، كلاماً غير ذي وزن، ما دام يتحرّك خارج الحقل الذي انفسح بقوة مع القيامة الإسرائيليّة في العام ١٩٤٨.

فابتداءً من الظّاهرة الإسرائيليّة هذه، سوف تُحتزّل جُلّ الأسئلة المتعلّقة بالنّهضة ضمن تساؤلٍ مركزيٍّ واحدٍ وكثيف: عمّا إذا كان بالإمكان استيلاد مسارٍ حضاريٍّ، عربيٍّ إسلاميٍّ، يصدّد الهيمنة الاستعماريّة للحدائنة الغربيّة الجديدة، ويتوازن معها.

ظلّ التّساؤل ساريّاً بين النّخب العربيّة من دون أن يتعيّن محلّ الإشكال الفعلي. فيما دلّت الوقائع التّاريخيّة المتعاقبة حقيقة كون الظّاهرة الإسرائيليّة هي



الظاهرة الأكثر تعبيراً عن امبريالية الحداثة وما بعدها، وعن فعاليات الغرب الثقافية والفكرية والسياسية.

ثمّة الآن طور آخر من الحراك حول الأطروحة الإسرائيلية! بقدر ما يتسم هذا الطور بالحد الأعلى من العداء لإسرائيل في المجتمعات العربية والإسلامية، فهو ينسب - أيضاً - على فرضية الالتقاء والمصالحة مع الحكومات والمجتمعات في آن. هذه الفرضية تُطرح اليوم على أكثر من نصاب: أكثرها حيوية ما يجري على قاعدة تبدأ من نهاية العداء لإسرائيل، عبوراً إلى نهاية الخصومة معها، ثمّ ليصّاعد الاقتراب والوصل إلى ضرب من «حسني جوار» يُفترض أن تتألف الأطروحة الإسرائيلية فيه مع العرب والمسلمين ضمن ما يُسمّى بالجغرافيا الاستراتيجية الكبرى للشرق الأوسط الجديد.

لقد وجدنا إثر التحوّل الذي استهلّه القرن الواحد والعشرين أن نتخذ من سيرة تشريع الأطروحة الإسرائيلية وفق «الأنصبة» المشار إليها، طريقاً للكلام المتجدّد على سؤال الاستنهاض. فقد ظهر بوضوح في خلال السنوات التي أعقبت انعقاد مؤتمر مدريد للسلام عام ١٩٩١، أنّ سلاماً حقيقياً لن يكون له متسع من الإعراب السياسي، والثبات التاريخي، ما لم يتعدّ عمل الحكومات، ليصل إلى عمق المجتمعات المدنية العربية.

ذلك ما يُضاعف من مجال الاحتدام الأشدّ ضراوة مع الأطروحة الإسرائيلية، ولا سيّما لجهة قبولها والتعامل معها كجزء من نظام القيم الذي يُعدّ للمنطقة.

لعلّ الشيء المفارق في هذا، أنّه كلّما اشتدّت فكرة جعل إسرائيل حالة طبيعية داخل الجغرافيا الثقافية العربية - الإسلامية كلّما قوبلت بالامتناع والمجانبة. حتّى أنّه يبدو للذين يُعانون طبقات الصورة، كأنّ فكرة الجعل المشار إليها هي فكرة افتراضية اتخذت من «التطبيع» سبيلاً لها لتصبح أمراً واقعاً.

أمرٌ جللٌ ظهر أخيراً في سوق الكلمات من دون أن يستقرَّ بعدُ في عالم المفاهيم: إنَّ إسرائيل باتت دولةً عاديةً، تُصنع لها الهزيمة مثلما صُنِع لها النصر.. قامت بحدائق الغرب الاستعماريَّة، وتتهاوى بتهاويها... ماذا لو كان لنا حظٌّ في نظام الكلمات كُلِّها اتَّسع الاحتدام في «جَنَّة المواجهة»؟

### بين ثقافتين

لكن لو جاز لنا اختزال النقاش الحار، الَّذي طالما حُمِلت عليه الثَّقافة السِّياسيّة العربيَّة؛ لبسطناه على تفارقٍ ملحوظٍ بين ثقافتين: ثقافة امتناع ومقاومة، وثقافة تماءٍ وتماثل.

غير أنَّ هاتين الثَّقافتين ستنهضان على نصابٍ غير متكافئٍ؛ إمَّا لكونها وليدتا تحوُّلاتٍ في معادلات القوى على امتداد نصف قرنٍ من الصُّراع العربي-الإسرائيلي، وإمَّا لانتسابهما في الغالب إلى بيئةٍ مشتركةٍ، شكَّل الكِفاح الوطني ضدَّ الاستعمار بصنوفه المختلفة محرِّكها العام.

ولسوف يغدو التَّفارق بين كُلٍّ منهما أكثر جلاءً واتِّساعاً في خلال الرُّبع الأخير من القرن المنصرم. هذه الحقبة اكتظَّت بتحوُّلاتٍ مدوِّيةٍ في العالم، ولن يكون العالم العربي الإسلامي بمنأى من آثارها ومؤثراتها وكوارثها، بل هو - على الحقيقة - كان في موضع القلب منها. وقبل أكثر من عشر سنوات ستجري على أرض المشرق العربي آخر حروب «الحروب الباردة» وأوَّل «حروب العولمة». وبعد ذلك بقليلٍ سيُفتح الباب على وسعه لإنهاء الصُّراع بين العرب وإسرائيل، عبر سلامٍ لا تنفكُّ شروطه الحقيقيَّة الغائبة، ولو تحقَّق ما تحقَّق منها بالقوَّة، أو على خلاف ما يُراد لها أن تكون بالفعل.

ضمن مساحة هذه التَّحوُّلات، التي ستختزل الزَّمن السِّياسي بسرعةٍ هائلةٍ،

أخذت الثقافة السياسية العربية بالاضطراب والحيرة. لم يعد لدى النخب متنسج من الوقت لكي تفكر، وتتأمل، وتصوغ الأفكار، والشعارات، والخطط، على نحو ما كان قد تيسر لها في الماضيين القريب والبعيد. كانت النتيجة أن حلّ اللايقين السياسي محلّ الشعور بالامتلاء والأمان. وراحت نخب الأمة تبحث عن أمكنة تمنحها القدرة على التفكير خارج حقول الضغط، إلا أنها لم تفلح. وبسبب من هذا نما لدى هذه النخب وعي سالب، وهو نفسه الوعي الذي غالباً ما رأى أحوال الأمة بوصفها أحوالاً ناشئة من أرض مهزومة، بينما لم ير أحوال العدو إلا أنها أحوال غلبة وتفوق، تتوالى آلياتها وتتراكم بلا هوادة.

لم تكن ثقافة التماهي سوى حصيلة هذا الوعي السالب نفسه، غير أن السجال الذي بدأ مبكراً في الثقافة السياسية العربية، حفز هذه النخب لتغادر كسلها وإحباطها. وكان عليها أن تخوض معاركها الثقافية في ظل خلل هائل في الموازين؛ بما دفع بيئات واسعة منها إلى الظن بأن «سلام الإكراه الإسرائيلي» قد أحكم على الأمة، وليس لها من خيار إلا المدافعة عن الحياض الثقافي والروحي كخط أخير من خطوط الصدام والمواجهة.

لم يمض وقت قصير على انعقاد مؤتمر السلام العربي - الإسرائيلي في مدريد، حتى راج الكلام على «التطبيع الثقافي» بقوة في أحياء مختلفة من الثقافة السياسية العربية. وبدا وكأن أخذ هذا المصطلح أخذ المسلمات. فانبرت شرائح واسعة إلى حمله كأمر واقع، فلم يجر التمييز بين الوجوه الكثيرة والممتنسة التي يضمهرها، سواء لجهة منشئه والقوى صاحبة المصلحة فيه، أم لجهة ما يقصد بهذا المصطلح في سياق الغايات الواضحة المتعلقة بالتطبيع السياسي والاقتصادي والأمني...

وأيّاً كان الأمر، فقد ذوى الخطاب العربي على العموم تحت سلطة المصطلح، فتعلقت به أوهام من كل لون. وسيزداد الحال سوءاً كلما تقدّمت وقائع «السلم

السّياسي» في المنطقة. لقد نظر هذا الخطاب إلى المفاوضات بما هي الوعاء الأخير لسلامٍ مقدّر بين العرب وإسرائيل. وترتّب على هذه الرّؤية يقينيّات عمّت ثقافتنا السّياسيّة، وراحت تُسلّم بأنّ ظاهرة التّطبيع الثّقافي حاصلةٌ ولا جدال فيها. أمّا الدّاعي إلى هذا فناجم من فكرة التّسليم بأنّ نسبة القوى التي انتزعت هذا النّوع من مفاوضات السّلام، سوف تنتزع وقائع وحقائق توازيها وتشبهها. وبما أنّ السّلام هو سلامٌ أميركي - إسرائيلي، فهو حُكماً سلامٌ غير متوازن، وغير عادل، وأنّ ترتيباته، وآليّاته، وغاياته القريبة والبعيدة، ستؤل إلى المصلحة الإسرائيليّة الصّافية. وهكذا سيدخل التّطبيع بأشكاله ومضامينه كافّة، كترجمة لتلك التّرتيبات والآليّات والغايات، وكتعبير عن حضورات نسبة القوى.

أصحاب هذا الخطاب لم يُحمّلوا أنفسهم مشقّة البحث عن مجالٍ لتفكيك مصطلح التّطبيع؛ ذلك أنّ بحثاً في عمق الظّاهر سيُتيح للثقافة السّياسيّة العربيّة هدنةً ذاتيّةً، قد تكون ضروريّة لفتح باب الاحتمالات لمفارقة أو هام الهزيمة التي لا تني تمكث في النّفس السّياسيّة العربيّة منذ حرب حزيران/ يونيو ١٩٦٧.

لعلّ استعادة النّقاش في معنى الهزيمة ومستوياتها، هي من أبرز المسائل التي يُثيرها الكلام على سِريّات قبول الأطروحة الإسرائيليّة والتّعايش معها كواقعٍ وحقيقة. والواضح من العناصر التي يتشكّل منها البيان الإجماليّ الشائع في المجتمع الثّقافي، أنّ القبول والتّعايش يؤلّفان معاً أحد مصادر لغة الهزيمة؛ على اعتبار أنّ الانكسار السّياسي العربيّ المزمن لا بدّ له من أن يستولد انكساراً ثقافياً يجد ترجماته في قبول فرضيّة التّسليم بالغزو الثّقافي لمجتمعاتنا. لقد كان واضحاً المدى الَّذي ذهبت إليه تلك الفرضيّة، وهي لم تدرك - ولو من باب حسن الظّنّ - سيّئاتها والأخطار التي تنطوي عليها. إنّ منطق فرضيّة كهذه سيؤدّي عملياً إلى نتيجةٍ دراميّة ومفارقة في آنٍ: فالتّسليم بإمكان الغزو الثّقافي، وقبول مجتمعاتنا للأطروحة الإسرائيليّة يُكمّل الغايات العُلّيا التي يسعى إليها سلام

الإكراه، أي: السعي لتعميم أيديولوجية الهزيمة، وجعلها مجالاً من مجالات التطبيع السيكولوجي، والثقافي، والأيديولوجي، والفكري. وهذه الغاية راحت «فعاليات سلام الإكراه» تستخدم تقنيات ثقافية ومعرفية وإعلامية لاحتواء البيئات المدنية والأهلية العربية، وإقناعها بضرورة التسليم بهزيمتها الكاملة، ودفعها من ثم إلى اليقين بأنَّ عصر الثورات التي تبدل من صورة الزمن أو تقلب موازين القوى قد ولى إلى غير رجعة، وأنَّ نهاية التاريخ قد حلت على أيديولوجيات التحرير، والثورة، والاستقلال، مثلما حلت حلول غيمة خرافية على السياسة والأمن والاقتصاد. سوى أنَّ أخطر ما نجم عن مثل هذه «السريّة الإقناعية» كان نشوء بيئات عربية على مستوى الحكومات وفي المجتمعين الثقافي والمدني راحت تقبل واقع الحال وتهاشى معه.

قامت الصورة السياسية العربية في زمن السّلام على مفارقة لافتة مؤداها: أنَّ العرب لا يستطيعون خوض الحرب من دون مصر والعراق، ولا هم قادرون على الذهاب بعيداً في سلام يُراد له أن يصبَّ ثمراته على الجملة في الوعاء الإسرائيلي.

إنَّ هذا الامتناع الموضوعي عن «سلام الإكراه» - يُضاف إليه استحالات التطوّر السلمي الإيجابي على الجبهة السوريّة اللبنانيّة مع إسرائيل - أدّى من جملة ما أدّى إلى نشوء مناخ عارم من السّلام السّلمي، امتنعت معه الإمكانيات العمليّة لإجراءات التطبيع بأحيازه المختلفة، وعلى الخصوص الحيز الثقافي منه. ومما نجم من مناخ السّلام السّلمي، أنَّ حقائق كانت حجبها أجواء الهزيمة برزت بقوة على صفحة النقاش بين النّخب العربيّة. من هذه الحقائق إعادة الاعتبار لمسلّمات وبديهيّات غالباً ما تعامل معها الحداثيون العرب المعاصرون على أنّها مقولات فائتة، أو هي تنتمي إلى الخطاب المهزوم للرؤمانسيّة العربيّة. مثل: أنَّ الثقافة الإسرائيليّة - الصّهيونيّة تفتقر إلى علّتها التاريخيّة والواقعيّة. وإنَّ

هي إلا ثقافة برّانية مكتظة بعناصر الشك، والالتباس، والتلفيق، وبالشعور الدائم بالخطر المقبل من الآخر. وبسبب من هذه الطبيعة التكوينية للثقافة الإسرائيلية برز إلى العلن ما استتر منها طيلة أكثر من نصف قرن من انضوائها وانعزالها داخل أسوارها المغلقة. لقد ظهر ما يُشبه «الهلع الوجودي» بإزاء هلال قاريّ عربيّ إسلاميّ، يأخذ سبيله إلى التوسّع والارتقاء. وهو في الواقع مجالّ جيو - استراتيجي لا تستطيع الثقافات البرّانية بإزائه سوى الانكفاء أو الذوبان ضمن محيط حضاريّ عميق الجذور.

وعندما يزعم المفكر اليهودي (إسحاق بارموشيه) أنّ التّطبيع يبدأ من القلب وعلى مستوى المجتمع المدني وبين المثقفين؛ فإنّه يُميط اللثام عن حقيقة غبوءة في الوعي الإسرائيلي، وهي استحالة قيام «مناقفة تاريخية» بين ثقافتين نهضتا أصلاً وجوهرأ على التّفي المتبادل. فلئن أخذت الثقافة العربيّة الإسلاميّة الحديثة من الإسلام الأوّل مفهوم التّسامح مع أهل الكتاب، والتّعامل مع اليهود كدين، ومع اليهودي كموحد؛ فإنّ الثقافة الصّهيونيّة لم تر في العالم المحيط - ولا سيّما العالم العربي الإسلامي - إلاّ جداراً أسطوريّاً من العداوات ينبغي تهديمه لتحقيق الأمان لدولة إسرائيل. يُضاف إلى ذلك أنّ نزعة الاستعلاء التي تنبني الثقافة الصّهيونيّة عليها ليست إلاّ الوجه الآخر للخوف من الغير؛ إذ كلّ «غير» أو «آخر» في اللاهوت الإسرائيلي يعود إلى عالم «الأغيار»، أولئك الذين سخرهم إله التلمود لخدمة «شعب الله المختار». وليس من قبيل المصادفة أن ينبري (نتنياهو) ليختم كتابه المعروف (مكان تحت الشّمس) بقصّة ذات دلالة صارخة على «البارانويا اليهوديّة المعاصرة». وذلك عندما طلب فردريك الأكبر من طبيبه أن يأتيه ببرهان على وجود الله، فاكتفى هذا بالقول: «إنّ وجود اليهود هو الدّليل على وجود الله...».

مفكرٌ يهودي آخر، هو (أ.ب. يهوشوع) راح يضع استراتيجياتٍ للتّطبيع

مع العرب، وهو مغرّق في مستنقع الشكّ من إمكان تطبيقها. لقد ركّز كما فعل  
سواه، على أهميّة الجانب الثقافي والميتافيزيقي للسلام، إلّا أنّه كان يُدرك في عمق  
نفسه أنّ ما يُقدّمه لا يتعدّى كونه مجرد أهواء إيديولوجيّة تترجم الفجوة المعنويّة  
التي يُقيم فيها الفكر الصهيوني الآن.

إنّه يبيّن «أنّ التّطبيع يتمّ قبل كلّ شيءٍ على المستويات الدّنيا، مثل السّياحة  
والتّجارة والمياه ورأس المال الخ...». لكنّ الخطأ - يُضيف يهوشواع - أن نترك  
هذا التّطبيع على خلفيّة العداء التّاريخي، بل يجب بذل مجهودات خاصّة من أجل  
تقويته عن طريق إجراء اتّصالات بين المثقّفين ورجال الفكر، بل حتّى بين  
رجال الدّين إذا أمكن..

#### احتلال المعنى

ينظر العقل الصهيوني إلى التّطبيع في ما يتعدّى المباشر السّياسي. إنّهُ نظرٌ يبدأ  
من اللاهوت المؤسس للأطروحة الإسرائيليّة، ثمّ يعود إليها بعد أن يقطع  
الأحقاب التّاريخيّة المفضية إلى إنجاز الدّولة اليهوديّة ومقومات استمرارها. فلا  
يفصل هذا العقل تبعاً لمنطق اللاهوت المؤسس بين أحيازه وعناصره، وإنّما  
يسعى إلى إجراء صلات تكامل في ما بينها.

إنّ أوّل ما يرمي العقل الإسرائيلي إليه هو جعل مصطلح التّطبيع مفردة ذات  
قابليّة للتّوليد المعرفي، معرفيّة تحتزن فاعليّة القبول والتّداول بين النّخب، كما  
تمتلك سحر التّأثير على اللّغة المكوّنة للنّصّ السّياسي والثقافي العربي. وحين  
يأخذ هذا المصطلح قسطه الوازن من التّداول في حقول التّفاعل المعرفي، فإنّه  
يتحوّل مع الزّمن إلى حقيقة لم يكن لها من قبل أيّ حضورٍ يُعتدّ به. ذلك أنّ  
التّطبيع الثقافي يأخذ صفته العمليّة في الحالة التي تصبح فيها محوراً للمساجلات  
بين النّخب العربيّة؛ إذ بهذا المعنى تكون سيريّات التّطبيع أشبه بـ «ورطة

ثقافيّة». من علاماتها: أن عبارتي «الغزو الثقافي» و «السّلام السّياسي» تؤدّيان مع الوقت إلى ترسيخ اصطلاح لا أساس له في الواقع. فهو - أي: الاصطلاح - يفترض حصول سلام لم يحصل بالفعل، لكنّه سوّدّي إلى حجب حقائق أخرى هي بمثابة خرائط طُرّق فعليّة للتطبيع الاقتصادي، والدبلوماسية، والأمني، تجري وقائعها خلف ستائر كثيفة من الصّمت.

في الثقافة السّياسيّة الإسرائيليّة يدخل الاصطلاح كقوّة حاسمة، لكن لا مريثيّة في رحلة السّيطرة على العقل السّياسي العربي والإسلامي. ولقد عبّر الكاتب الإسرائيلي (ديفيد غروسمان) عن ذلك في الجانب المتعلّق بمصطلح السّلام. لقد رأى أن على الإسرائيليين أن يتخيّلوا سلاماً ناجزاً مع أعدائهم؛ لأنّ مجرد الاستجابة للدّعوة - فلتتخيّل السّلام - يعني أولاً وقبل كلّ شيء أنّه سيكون لنا مستقبل. ثمّ يستدرك ليوضح أنّه لا يعني بهذه الدّعوة الكلام على مستقبل جيّد أو مستقبل سيّئ، بل يعني بمثل هذا الحديث الإشارة إلى احتمال ما يجب أن تكون عليه الأطروحة الإسرائيليّة في المستقبل. لعلّ جذر الأمر هنا هو أنّ كلمة «سلام» في وعينا نحن الإسرائيليين يتعلّق دائماً بأمنية وبأمل، وليس بوضع قائم. كأنّ السّلام في لغتنا كلمة فريدة من نوعها: اسمٌ يُخفي في داخله أمراً ما، مثل مسافرٍ كفيفٍ يعمل بميلٍ دائمٍ للمستقبل<sup>(١)</sup>.

### تسديدات اللاهوت الثقافي الإسرائيلي

إنّ سلطة المصطلح التي يُراد لها أن تكون قيداً علينا، إنّما تقع في أساس المنطقة المعرفيّة التي سبّغتني عليها الثقافة السّياسيّة الإسرائيليّة. فلئن كان لدى هذه الثقافة حيويّة الاستنتاج والابتكار على قاعدة زمنٍ مديد من الشّعور بالغلبة على الآخر، ففي اللاهوت الإيديولوجي لليهوديّة السّياسيّة المعاصرة من المفاهيم ما يفيض على الثقافة الإسرائيليّة ويسدّها ويمدّها بأسباب



الاستمرار. فإذا كان اليمين الديني الإسرائيلي - مثلاً - قد نشأ في أعقاب حرب حزيران/ يوليو ١٩٦٧ ونتيجة لها، فإنَّ لاهوته الإيديولوجي يسبقه تاريخياً بكثير؛ حيث بدأت نشأته - كما هو معروف - في الطائفة اليهودية في فلسطين على يد الحاخام اليهودي الأرثوذكسي للصهيونية، باعتبارها عقيدة مارقة تنكر مبدأ أساسياً في الديانة اليهودية، قوامه: أنَّ عودة المسيح المنتظر هي وحدها التي تُعيد توحيد اليهود في أرض إسرائيل، ويتنظر أن يكون اليهود سلبين طوال هذه العملية، ومن ثم تكون الصهيونية اغتصاباً لما دبره الله لليهود، ونقيضاً لعملية خلاص اليهود. فالحاخام (كوهين كوك) بهذا المعنى يُمارس فعلاً تأويلياً لليهودية. ثمَّ ليسهم في تأسيس اللاهوت السياسي لدولة إسرائيل. يرى (كوك) أنَّ الصهيونية بشرت ببداية عصر المسيح المنتظر، زاعماً أنَّ الصهاينة كانوا في الحقيقة أدوات استعملها الله بغير علمها لتعجيل عملية خلاص اليهود، بأنَّ يستوطنوا أرض إسرائيل مرةً أخرى. وبذلك نال (كوك) رضا الطائفة الأرثوذكسية المتطرفة من خلال توظيف محكم حيوية حركة قومية علمانية لا تتقيّد بتعاليم الدين. وعقب حرب حزيران/ يونيو ١٩٦٧ ترسّخ الاعتقاد بأنَّ إنشاء الدولة هو بشير أملٍ ببدء عملية الخلاص. فقد مثل الاستيلاء على الضفة الغربية والقدس الشرقية - وهي قلب أرض إسرائيل في الكتاب المقدس - تأكيداً لآراء (كوك)، بمعنى أنَّ انتصار إسرائيل العسكري وُضع في نطاق الارتقاء المتواصل لعصر المسيح المنتظر.

ولقد بات واضحاً أنَّ المحافظة على وحدة أرض إسرائيل هي الهدف الأسمى للقوميين الدينيين، وأنها تُشكّل الجزء الذي يكون قلب عقيدتهم اللاهوتية الأيديولوجية الناشئة. ومع استمرار الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة في إسباغ قيمة كبيرة على التحكّم اليهودي في الأراضي التي احتلت سنة ١٩٦٧، نشأت قوى مترابطة مع القومية الدينية، على الرّغم من استنادها إلى

أسس أمنية. وترتب على اعتبار أن الأرض شديدة الأهمية لعملية خلاص الشعب اليهودي، أن تبلورت فكرة مؤدّاها: أن أية محاولة لمبادلة الأرض بالسّلام إنّما تُعدّ اغتصاباً لإرادة الله، ويجب معارضتها.

ولأغراض هذا التشكيل الأيديولوجي استخدمت لغة ورموز دينية عديدة من الكتاب المقدّس، أبرزها العهد المبرم بين الله وإبراهيم بشأن الأرض، باعتبارها «مملكة ملكية دائمة». لكنّ تلك المواقف المؤكّدة لقدسيّة الأرض استندت أكثر إلى (الهالاخاه والتلمود)<sup>(٣)</sup> على الرّغم من أن (الهالاخاه) لا تملك إلّا القليل الذي تقوله (العماليق)، غير أن (كاهانا) استخدم هذا الوصف ليشمل جميع أعداء الشعب اليهودي، والفلسطينيين خصوصاً. ولذلك كان يقول: إنّ يجب على اليهود إذا أرادوا تقديس اسم الله أن يدمّروا العماليق، وبهذا يدخلون العصر الحقيقي لعودة المسيح. وهو الرّأي الذي روج له قسم التّعليم الديني الذي ترعاه وزارة التّعليم في إسرائيل. وطبقاً له لا يكون الحلّ الوسط بشأن الأرض مجرّد مأساة سياسية، وإنّما هو جرح كوني، وردّة إلى الاتجاه المضادّ في الخطّة الإلهية لانتصار اليهود على العماليق.

إنّ هذه القاعدة القبليّة التي يؤلّفها اللاهوت الأيديولوجي ستغذي المعارف البعدية، والقواعد الاستراتيجية والسياسية والأمنية لدولة إسرائيل.

لكنّ ما الذي يتبدّى من المشهد الإجمالي للحراك السياسي والأيديولوجي للأطروحة الإسرائيلية؟

### استعادة المعنى

لنتنبه إلى جملة حقائق أظهرتها التّحوّلات الأخيرة في المواجهة مع الأطروحة الإسرائيلية:

- إخفاقات متلاحقة في احتواء أو تصفية حركة المقاومة الفلسطينيّة على

المستويين العسكري والسياسي.

- الهزيمة الأولى لجيش الاحتلال الإسرائيلي في ربيع العام ٢٠٠٠.

- الهزيمة الثانية في حرب تموز/ يوليو ٢٠٠٦.

- بداية زمن جديد من الصراع العربي - الإسرائيلي، من علاماته الكبرى إمكان إلحاق الهزائم بإسرائيل بعد إيقاعها في هزيمتين محقتين بالفعل، وهزائم قيد الوقوع على جبهات أخرى.

- ذلك قد يُرسي مقدمات ضرورية لقيامه المقولة الأمنية الثقافية العربية، على نشأة الاقتدار. وهو ما يفترض النظر إلى مصطلحات الأحقاب المهزومة، وأخصها مصطلح التطبيع، بوصف كونها ظاهرة سلبية في الأمن الثقافي لمجتمعاتنا.

إنَّ مبدأ الزَّمن الجديد يمكث في تعامل النخب الثقافية العربية مع هذا المصطلح بوصفه رديفاً سياسياً وثقافياً وأيديولوجياً لسلام الإكراه. فلا يجوز - على هذا الفهم - أن يدخل معنى التَّمثُّل والهزيمة كواحد من العوامل المحركة للخطاب الثقافي العربي، وبالتالي فإنَّ مجرد القبول - مثلاً - بمصطلح التطبيع الثقافي فذلك يعني الإقرار الضمني بأنَّ حقيقة واقعية، أو بأنَّه إمكان قابل للتحقق.

كذلك فإنَّ من شروط الممانعة عدم الفصل بين أحياز التطبيع، من مثل عدم الفصل بين السياسي والثقافي والاقتصادي والأمني ... وبهذا المعنى يمكن الاستدلال على خطِّ التطبيع من وجهه السياسي الدبلوماسي بالذات، فمن شاء ممانعة الثقافي، عليه ممانعة السياسي. ولئن كان الكلام هنا يعني بالدرجة الأولى المثقفين؛ فلاَّنه يتوخى توليد حقول معرفية، تحدّد المسافة بين وظيفة المثقف ووظيفة السياسي، فما يراه السياسي ويعمل على وفق موجباته ليس بالضرورة ما يراه المثقف ويعمل عليه.

حين يرفض الثقافي مبدأ التطبيع فهو يرفضه بوجوهه وأحيازته كلها، فلئن كان الوجه السياسي والاقتصادي للتطبيع هو الذي يجري الآن مجرى الفعل اليومي، فإنَّ الخطر يكمن فيه بالدرجة الأولى.

ثمة من يرى أنَّ استعادة روح المقاومة ومفارقة أسباب العنف الأهلي، وتعميم مجالات التفاعل والتواصل بين المجتمعين السياسي والمدني، وإطلاق الحريات، هي الخطوات المؤسسة لمقاومة أيّ ضربٍ من ضروب التطبيع، وهي السبيل الذي يؤسس لقيام كتلة تاريخية تقاوم منطق الهزيمة وتداعياتها في الفضاء العربي بأجمعه.

إنَّ وعي الهزيمة وثقافتها ومصطلحاتها هو قبل أيّ شيءٍ مستهلٌ وعي الممانعة ووجوبها؛ لأنَّ إدراك الأمر في الحالين سوف يُسقط الأوهام، ويُضيء على أسئلة ظلت محتجبةً عنا زمناً طويلاً.

لكنَّ القول بوجوب وعي جدلية الهزيمة والممانعة في الآن، يرمي إلى إنشاء التحيز الضروري بين ثقافة الامتناع والمقاومة وثقافة القبول والتّمثيل، وهو الفصل الذي يمكن التّخبط الثقافيّة العربيّة والإسلاميّة من استعادة قضاياها الغائبة، أو تلك التي غيّبت في زحام الهزائم والتّراجعات.

على مقربة منّا اليوم شاهدٌ على واجبيّة وعي استعادة المعنى: الانهزام الإسرائيلي في لبنان، حدثٌ لم نستيقظ بعدُ على عمقه وأهميته وتاريخه. ربما لأنّه جاء في زمنٍ لا يزال اللّبنانيّون فيه يعيشون آثار نزاعهم وفرقتهم. ولأنّه جاء - أيضاً - في زمنٍ عربيٍّ مكتظٍّ بالتّراجعات ومشاعر الخيبة المزمّنة. وهذا وجهٌ مأساويٌّ لحدث التّحرير والصّمود. يجب أن نعتزّ بهذا الحيز من المشهد؛ لأنَّ الاعتراف سيجنّبنا إهمال أسئلة جرى السّكوت عنها ردحاً طويلاً من الزّمن، مثلما سيمنحنا ذلك الاعتراف بإمكانٍ نادر، هو مراكمة وعي النّصر بعدما تراكم علينا وعي الهزيمة.

كان يُقال: لكي تتوازنوا في لحظة الصّدام، ضعوا تفاؤلاً مقابل تشاؤم العقل. ذلك - أيضاً - حتّى لا تبلغ الهزيمة بكم مداها الأخير.

الآن يمكن الكلام عن مقالة ثقافيّة هي في طور التّأسيس: «إنّ تفاؤلاً الإرادة هو عين تفاؤلاً العقل لو هما قاما معا»...

لو عاينا حرب لبنان الأخيرة، بوصفها: «حرب المعنى» لظهر لنا كيف انقلبت مفاهيم كبرى فتحوّلت إلى الضّفة المعاكسة لأطروحة الغلبة الإسرائيليّة.

لكنّ تحويل السؤال حول نهاية الأطروحة الإسرائيليّة إلى قضيّة ثقافيّة ومعرفيّة وفكريّة هي المبتدأ والخبر بلا أدنى ريب.

\* \* \*

الهوامش:

- 
- (١) دايفيد غروسمان، فلنتخيّل السّلام، ملحق يدعوت أحرونوت، ٢٩ / ٢ / ١٩٩٣.
- (٢) راجع: كلايف جونغز، اللاهوت الإيديولوجي لليمين الإسرائيلي، مدارات غربية [العديد الخامس، شباط / فبراير ٢٠٠٥] ترجمة كريم عبد الرّحمن.

## أَخْلَاقِيَّةُ الدَّعْوَةِ

عِنْدَ النَّبِيِّ الْأَكْرَمِ ﷺ

□ الشَّيْخُ حَسِينُ الرَّاضِي (\*)

عَاشَ النَّبِيُّ ﷺ فِي وَسْطِ مُجْتَمَعٍ مَنَحْطٌ فِكْرِيًّا وَأَخْلَاقِيًّا.. مُجْتَمَعٌ يَحْتَمِلُ عَلَيْهِ الْجَهْلُ، وَغَارِقٌ فِي عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ؛ وَلِذَا، فَقَدْ سَمِيَ ذَلِكَ الْعَصْرُ بِالْعَصْرِ الْجَاهِلِيِّ، وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ تَصْدُرَ هَذِهِ التَّسْمِيَةُ إِلَّا مِنْ عَالَمٍ خَيْرٍ بِحَيْثِيَّاتِ الْعِلْمِ وَالْجَهْلِ وَالْعَقْلِ وَالْحَمَقِ.

وَلِهَذَا كَانَ - رُوحِي فِدَاهُ - يَحْتَاجُ إِلَى مَعَامَلَةٍ وَدَعْوَةٍ خَاصَّةٍ فِي هَذَا الْمَجْتَمَعِ لِإِيصَالِ دَعْوَتِهِ إِلَى النَّاسِ بِبُشْرٍ وَسَهُولَةٍ.

فَمَا هِيَ الْأَسَالِيبُ الَّتِي اسْتَعْدَمَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي دَعْوَتِهِ لِلْإِسْلَامِ؟  
لَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَكِيمًا فِي كُلِّ تَصَرُّفَاتِهِ قَبْلَ الْبَعْثَةِ وَبَعْدَهَا، وَذَلِكَ وَاضِحٌ لِمَنْ تَتَّبَعَ سِيرَتَهُ الْعَطْرَةَ، فَقَدْ كَانَتْ الْحِكْمَةُ وَالْمَوْعِظَةُ هِيَ الطَّرِيقَ الْأَنْجَعُ وَالْأَسْرَعَ لَهُ فِي تَبْلِيغِ تِلْكَ الرِّسَالَةِ الْعَظِيمَةِ. وَلِنَبْدَأُ هُنَا فِي دَرَاةِ الْأَسْلُوبِ التَّبْلِغِيِّ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْذُ بَعْثَتِهِ الشَّرِيفَةِ إِلَى يَوْمِ رَحِيلِهِ الْمَفْجَعِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ.

(\*) بَاحِثٌ فِي الْفِكْرِ الْإِسْلَامِيِّ، مِنَ الشُّعُودِيَّةِ.

ونقسم البحث في مقالتنا هذه إلى عدة نقاط، نتناول في جميعها الأساليب التبليغيّة لرسول الله ﷺ وأخلاقيّاته في ذلك، ويمكن تبويبها كما يلي:

١. طريقة تبليغه في الدّعوة السّريّة للإسلام.
  ٢. طريقة تبليغه في دعوته الجهرية للإسلام.
  ٣. طريقة تبليغه في غزواته.
  ٤. طريقة تبليغه وتوجيهاته السّامية في حياته الاجتماعيّة الكريمة.
- ثمّ في ختام البحث نتناول موضوع النّبي ﷺ القدوة في التبليغ.

#### تمهيد: في الهدف من بعثة النّبي ﷺ

بُعِثَ نبيّنا الكريم إلى النّاس كافّة، بُعث على حين فترة من الرّسل خاتماً لهم وناسخاً لشرائعهم، بعث لكافّة النّاس، الأسود والأبيض، العربيّ والعجمي، والحرّ والعبد، بُعث وقد ملئت الأرض من مشرقها إلى مغربها بالخرفات والبدع والقبائح وعبادة الأوثان.

فقام رسول الله ﷺ إلى النّاس كافّة، ودعا إلى الإيمان بالله واحداً خالقاً رازقاً مالِكاً لكلّ أمر، بيده النّفع والضّر، لم يكن له شريك في الملك، ولم يكن له وليّ من الدّل، ولم يتخذ صاحبة، ولم يلد ولم يكن له كفواً أحد.

بعثه الله متمّاً لمكارم الأخلاق (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)، حاثّاً على محاسن الصّفات، آمرّاً بكلّ حسن، ناهياً عن كلّ قبيح.

فلأجل ذلك، سلك النّبيّ ﷺ أساليب تبليغيّة رائعة في سبيل تلك الرّسالة العظيمة، التي تهدف فيما تهدف إلى تحسين ذلك المجتمع المنحرف والغارق في الجهل، وتربية الإنسان بما هو إنسان، تربيةً صالحةً زاكية تعتمد على محاسن الأخلاق والصّفات.

لهذا بعث نبيّنا الأكرم ﷺ، وهكذا تحمّل كلّ الأعباء والصّعاب من أجل نشر

الرّسالة العالميّة الكريمة.

ولقد مرّ تبليغ الرّسالة الإسلاميّة السّامية للنّاس بثلاث مراحل، حتّى تهيّأت الظروف لتأسيس دولة إسلاميّة مباركة، وهي كما يلي:

١ - مرحلة إعداد القاعدة الأولى للرّسالة الإسلاميّة. وقد اصطلاح البعض على هذه المرحلة بمرحلة الخفاء، أو دور الدّعوة الخاصّة.

٢ - مرحلة الدّعوة المحدودة بالأقربين، والصّراع المحدود مع الوثنيّة.

٣ - مرحلة الصّراع الشّامل.

#### المرحلة الأولى: مرحلة الدّعوة الخاصّة.

في هذه المرحلة سلك النّبي ﷺ أموراً عدّة لتبليغ النّاس دعوته، بحكمة رصينة وعقل رشيد، وقد تمثّل ذلك فيما يلي:

أ. لقد اقتصر النّبي ﷺ - في هذه المرحلة - على الدّعوة إلى الله تعالى فقط، فقد بدأ رسالته بهذه الكلمة الذهبيّة: (قولوا لا إله إلّا الله تُفلحوا)<sup>(١)</sup>، ولم يبدأ صلوات الله عليه بقوة أو بفرض رأي أو حتّى بجدال، بل اكتفى بهذه الكلمة الذهبيّة فقط.

ب. كما نوّع الاختيار في دعوته الخاصّة، من حيث الانتماء القبليّ لأتباعه وموقعهم الجغرافيّ ومختلف أعمارهم؛ ليوضّح شموليّة الرّسالة ويضمن لها الانتشار في المجتمع، فاستجاب له في هذه المرحلة المستضعفون والفقراء؛ إذ كانت الرّسالة الإسلاميّة منطلقاً نحو التّسامي والحياة الكريمة والأمان، كما استجاب له من الأشراف من كان ذا نفس طيّبة وعقلٍ منفتح.

ففي هذه المرحلة، وخلال السّنات الثلاث من عمر دعوته الخاصّة، لم يعمد إلى توجيه الخطاب للنّاس، بل لم يوجّه الدّعوة الخاصّة حتّى إلى أقاربه، وإنّما اكتفى بالانّصال الشّخصيّ بمن وجده مؤهّلاً للدّعوة ومستعدّاً لقبول الدّين.



وهكذا كان أسلوب دعوة النبي ﷺ وتبليغه للرسالة خلال الدعوة الخاصة، والتي استمرت ثلاث سنين.

### المرحلة الثانية: مرحلة الدعوة المحدودة بالأقربين.

تجلّت حكمة رسول الله ﷺ كقائده، وكفردٍ رساليّ، في دعوة الأقربين، لما في ذلك من محاولة لتأسيس قوّة دفاعيّة مكوّنة من العشيرة. لذا، فقد عمد رسول الله ﷺ، ولهدف تحصيل هذه القوّة الدفاعيّة، إلى دعوة أقربائه إلى دينه قبل أن يتوجّه بالدعوة إلى عامة الناس، فإنّ آمنّت به عشيرته كانت الذوّة المركزيّة للدفاع عنه، وإن لم تؤمن به، فلا يمكن لدعوته أن تؤثر في الأبعدين أبداً.

وعلى كلّ حال، فقد كانت طريقة رسول الله ﷺ في دعوته لعشيرته الأقربين طريقة جميلةً وذكيّة تنم عن عقلٍ ذكيٍّ ومدبّر، يحسب لكلّ قضية حساباً خاصاً، ويفكر بدقّة وحكمة.

وما يمكن أن يلاحظ من حكمة في هذه الدّعوة ما يلي:

١. أنّه دعا عشيرته إلى وليمةٍ أعدّ فيها الطّعام واللّبن، ولم يُخبرهم أنّه دعاهم لسببٍ ما، وهو توحيد الله والإيمان برسالته.
٢. لم يتمكّن النبي ﷺ من الحديث معهم وبيان دعوته في الجلسة الأولى، وذلك بسبب ما جرى من استهزاء - كما جاء في القصّة المعروفة - فلجأ إلى دعوتهم مرّةً أخرى.
٣. عرض عليهم دعوته بأسلوب ترغيب وتحبيب، وبيّن لهم أنّ دعوته إيّاهم إنّما هي لمصلحتهم، حيث قال: «يا بني عبد المطلب، إني - والله - ما أغلّم شاباً في العرب جاء قومه بأفضل ممّا جئتكم به، إني قد جئتكم بخير الدّنيا والآخرة»<sup>(١)</sup>.
٤. وفي هذه المرحلة، تجنّب رسول الرّحمة الدّخول في أيّة مواجهة مباشرة

له، أو لأحد من المسلمين، مع قوى الشُّرك والوثنية؛ إذ كان يتعرَّض خلالها للنقَد واللُّوم اللاذع، له ولبقية المسلمين.

ونلاحظ، في هذه المرحلة أيضاً، أنَّ النَّبيَّ رَغِمَ أَنَّهُ قد قُوبِلَ بالسُّخرية والاستهزاء بدعوته وبمطالبته بشخصٍ يكون خليفته ووصياً له، إلاَّ أَنَّهُ قابلٌ كُلَّ ذلك بإصرارٍ وعزيمة لإتمام ونشر دعوته المباركة<sup>(٣)</sup>.

### المرحلة الثالثة: مرحلة الصراع الشامل.

بدأت هذه المرحلة بأمرٍ من الله تعالى إلى النَّبيِّ ﷺ، بأنَّ يَصْدُعَ بالرسالة، ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾<sup>(٤)</sup>، وبأنَّ يُنْذِرَ النَّاسَ عَامَّةً، ليُخْرِجَ الأمرَ عن مُستوى الاتِّصال الفرديِّ الذي كان يتمُّ بعيداً عن الأنظار، ليدعو الجميع إلى رسالة الإسلام والإيمان بالله الواحد الأحد. وبدأت هذه المرحلة بعد مرور ثلاث سنواتٍ من الدَّعوة السَّريَّة، وقد واجه النَّبيُّ ﷺ خلالها الكثير من الصُّعاب والشَّدائد. فقبول بالسُّخرية والاستهزاء والإيذاء من جهة، والاعتداء عليه واتِّهامه بالجنون والسُّخر، واضطهاد أصحابه وصدِّهم عن اعتناق الإسلام من جهة أُخرى. وقد تحمَّل ﷺ كُلَّ هذه الصُّعاب والشَّدائد بحكمةٍ بالغة وهمةٍ عالية من أجل نشر الرِّسالة الإلهية الخالدة. وكان لهذا التَّحمُّل والصَّبْر الأثر الكبير في نجاح نشر هذه الرِّسالة.

وقد اتَّبَعَ صلوات الله وسلامه عليه عدَّة أساليب لذلك نستعرضها فيما يلي:

العوامل المساعدة على تثبيت الدَّعوة:

إنَّ نجاح أيِّ دعوةٍ ورسالةٍ من أيِّ شخصٍ مرهونٌ بأمرين:

١. الإيمان بالهدف.

٢. الاستقامة والثبات والسَّعي الدَّؤوب لتحقيق ذلك.

فالإيمان هو المحرِّك الباطني والقوَّة الخفية التي تجرُّ الإنسان وتدفعه نحو

تحقيق هدفه، وهو الذي يُسهّل على الإنسان الصُّعاب، ويدعوه إلى العمل  
الدُّؤوب لتحقيق هدفه، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه المسألة، فبين في جملة  
قصيرة أن رمز السَّعادة هو الإيمان بالهدف والثبات في طريقة تحقيقه، إذ قال:  
﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا  
تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾<sup>(٥)</sup>.

### أساليب التبليغ عند الرسول

كانت مكة المكرمة قلعةً للوثنية والشُّرك، ومركزاً للعادات والتقاليد  
الجاهلية التي لا تحمل أي بصيص من النور، ولم يكن لأهلها نصيبٌ من الوعي،  
بل انطوت نفوسهم على الجهل والتَّنكُّر للقيم والأعراف الإنسانية.  
وقد تميّزت الأساليب التي استخدمها النبي الأعظم ﷺ في دعوته وفي نشر  
رسالته بأساليب مهمة رائعة تدلُّ على وعيه وإرادته القوية، نستعرض فيما يلي  
بعضاً منها:

#### ١) الحكمة والموعظة الحسنة:

لما كان البارز في دعوته ﷺ أسلوب الحكمة والموعظة الحسنة، فقد وُجّه إلى  
النبي ﷺ كثيرٌ من الجدل والنقاش والتَّحدي، ومع ذلك كُلُّه، فقد كان يواجهها  
بحكمة وموعظة حسنة، وكان هدفه من ذلك إنقاذ ذلك المجتمع الجاهليّ بشتى  
الطُّرق والأساليب، ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجِدْ لَهُمُ  
بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾<sup>(٦)</sup>.

#### ٢) القول الحسن:

كانت دعوة الرسول ﷺ مشفوعةً بالقول الحسن الذي لا يُثير عاطفةً ولا  
يُخْذش في كرامة أحد، وقد أدبه الله تعالى بذلك كما قال هو: «أدبني ربي فأحسن  
تأديبي»<sup>(٧)</sup>.

ووضع الله له ذلك المنهج حيث قال تبارك وتعالى: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾<sup>(٨)</sup>. وقال تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾<sup>(٩)</sup>.

إنَّ من جملة الأمور التي ساعدت النبي في نشر دعوته قوله الحسن والمودب؛ حيث لم يُنقل عنه أي قولٍ غير حسن، لا قبل بعثته ولا بعدها، وهذا ما شكّل عاملاً مساعداً على إنجاح دعوته، ومدعاة لتألف قلوب الناس له وحوله.

### ٣) اللين والتسامح:

اعتمد النبي ﷺ في تبليغ الدين ونشر الدعوة على اللين والتسامح والابتعاد عن أساليب الغلظة والشدة، كما هو حال بعض من يدعي الإسلام وأحقيقته بنشره. والله تعالى هو مَنْ علّمه وأرشده إلى هذا الخلق الرفيع.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾<sup>(١٠)</sup>. ومع ذلك، وفي نفس الوقت، فقد كان ﷺ حازماً صارماً، لا يوجد لديه أي تردد، بل كان كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾<sup>(١١)</sup>.

نعم، كان النبي ﷺ المصداق الحقيقي لسمو الأخلاق ومحاسن الآداب، لقد كان رسولاً للأخلاق، يدعو إلى اللين والتسامح في المعاملة. وإليك البعض مما قاله ﷺ في هذا المجال:

أ. عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمنون هَيُّونَ لَيُّونَ كَالْحَمَلِ الْأَنْوَفِ، إِنْ اسْتَنْخَتْهُ أَنْأَخَ»<sup>(١٢)</sup>.

ب. أبو القاسم الكوفي في كتاب الأخلاق، أنَّ ذا القرنين قال لبغض الملائكة: «عَلَّمَنِي شَيْئاً أَزْدَادُ بِهِ إِيْمَاناً، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: لَا تَهْتَمَّ لِغَدٍ، وَاعْمَلْ فِي الْيَوْمِ لِغَدٍ.. إِلَى أَنْ قَالَ: وَكُنْ سَهْلاً لِلْقَرِيبِ وَالْبَعِيدِ وَلَا تَسْلُكْ سَبِيلَ الْجَبَّارِ الْعَنِيدِ»<sup>(١٣)</sup>.

ج. الطبرسي في المشكاة، نقلاً عن المحاسن، عن رسول الله ﷺ قال: «رَحِمَ اللَّهُ كُلَّ سَهْلٍ طَلَّقَ»<sup>(١٤)</sup>.

د. الحسن بن فضل في مكارم الأخلاق، عن رسول الله ﷺ أنه قال لِعَبْدِ اللَّهِ بن مسعود: «يا ابن مسعود، عليك بالسَّكينة والوقار، وكُنْ سَهْلًا لَيْتًا عَفِيفًا مُسْلِمًا...» الخبر (١٥).

(٤) الدَّفْعُ بالنبي هي أحسن:

رَكَّزَ النَّبِيُّ ﷺ في دعوته على الإحسان للآخرين، وهم أنفسهم الذين كان يعاني من أذاهم وقسوتهم، وذلك عَمَلًا بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (١٦).

ولنا في قصته مع الرَّجُل الذي كان يرمي القاذورات على باب داره مثال رائع في الإحسان؛ حيث مرض ذلك الرَّجُل يوماً من الأيام، فلما لم يجد النَّبِيَّ ﷺ تلك القاذورات اليوميَّة على باب داره، علم ﷺ بمرضه فبادر إلى زيارته، وكان نتيجة ذلك أن أسلم ذلك الرَّجُل.

وقد استطاع النَّبِيُّ ﷺ بهذا الخلق الرَّفيع أن ينشر كلمة التَّوْحِيد، وأن يغيِّر من طباع النَّاس ويقاوم الأحداث الرهيبة التي أحاطت به.

(٥) الصَّبْرُ:

قابل رسول الأخلاق ﷺ كُلَّ أنواع الأذى بصبر عظيم وثبات هائل، إيماناً منه بدعوته، وحرصاً على تبليغ رسالته، فقد أمره الله تعالى به في آياتٍ متعدِّدة:

منها: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرْنَا وَلَوْ أَلْعَزَمُوا مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَّعَنَّا﴾ (١٧).

ومنها: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ (١٨).

ومنها: ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَلٰٔتٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ (١٩).

ومنها: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ (٢٠).

ومنها: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ (٢١).

ومنها: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الثُّمُودِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ (٢٢).

لقد عانى النبي ﷺ من قريشٍ أشدَّ ألوان المحن والبلاء، إلا أنه لم يخفل بها واحتسبها عند الله تعالى، واستمرَّ على أداء رسالته حتى فتح الله تعالى له الفتح المبين ونصره على أعدائه، وقد أمره تعالى بالافتداء بالأنبياء أولي العزم الذين صبروا على المحن والشدائد الشاقة التي لا قوها من أمهم، كما جاء في الآية الأولى.

#### ٦) تحذير الكافرين من عذاب الله:

ومن أساليب دعوة الرسول ﷺ تحذير الكافرين خاصة والناس عامة من عذاب الله تعالى إن لم يستجيبوا له، وكان يتلو عليهم آيات من القرآن الكريم تنعى عليهم كفرهم وضلالهم.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾ (٢٣).

وقال تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ (٢٤).

وقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ (٢٥).

فالكافرون خالدون في نار جهنم لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينعثون. فأسلوب التهيب من عذاب جهنم كان موجوداً لمن لا يؤمن بالله ورسوله، ولم يكن ذلك بالقوة، أي: بقوة السلاح، وإنما كان بالتحذير والتنبيه.

#### ٧) البشارة بالجنة والنعيم الخالد:

في مقابل تحذير الكافرين من عذاب الله الدائم الخالد، كان رسول الأخلاق يبشّر المؤمنين به وبرسالته بالفوز بالجنة، والظفر بخيراتها ونعيمها، وهذا ما جاء في آيات عدة:

منها: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ (٢٦).

ومنها: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَهَّجَ ۖ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقَدَّرٍ ۖ﴾ (٢٧).

إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التي من خلالها وعد الله تعالى المتقين من

عباده بالفوز بالجنة.

وهذا أسلوب من الأساليب التي استخدمها النبي ﷺ في تبليغ رسالته ونشر قيمه وأهدافه.

النبي يدعو المسلمين للصمود

بالغت قريش في إيذاء المسلمين وتعذيبهم، بأقسى ألوان العذاب وأشدّه، وقد انهارت أعصاب بعضهم ففُتِنُوا عن دينهم، وبقي فريق منهم متمسكاً بدينه، وكان النبي ﷺ يدعو المؤمنين إلى الصمود والصبر على ما حلّ بهم من العذاب الأليم، وهذا ما ساعد أصحاب النبي على الاستمرار في رسالته السامية، وقد طلب الحباب بن الارت منه ﷺ أن يدعو قريشاً فقال له:

«قد كان مَنْ قَبْلَكُمْ لِيُشْطَبَ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ وَمَا دُونَ عِظَامِهِ مِنْ لَحْمٍ أَوْ عَصَبٍ، مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ.... وَلِيُثَمِّنَ اللَّهُ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّكَّابُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ وَمَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ»<sup>(٢٨)</sup>.

وهذا ما يدلُّ على العزم الجبار لاستمرار رسول الله ﷺ في الدَّعوة الإسلامية، وعدم خضوعه للأزمات الحادة التي واجهها أصحابه. ولنا - أيضاً - فيما جرى على آل ياسر عندما مرَّ بهم النبي وهم يُعَذَّبُونَ: «صبراً آل ياسر، فإن موعدكم الجنة»<sup>(٢٩)</sup> خير شاهد.

اختيار موسم الحج والعمرة للتبليغ

اختار الرسول ﷺ موسم الحج والعمرة ليعرض فيه رسالته على النَّاس، ويدعوهم إلى عبادة الله، ولقد لبث ﷺ عشر سنين يتبع الحجاج في منازلهم بمنى والموقف، ويأتيهم في أسواق الموسم، وهي عكاظ ومجنة وذو المجاز، ليبلغ رسالات ربّه، وقد تزايد نفوذ الإسلام وانتشاره، ودخل في الإسلام عددٌ كبير من النَّاس بسبب أحاديث النبي الجذابة، وكلماته البليغة، ودينه المحبَّب المؤثِّر في قلوبهم<sup>(٣٠)</sup>.

## تبليغ النبي في الغزوات

### غزوة بدر الكبرى

ولا نريد هنا أن نتناول تفاصيل هذه الغزوة، فالكتب التاريخية كفيلاً بهذا، وإنما نتناول الجوانب الأخلاقية في غزوات رسول الأمة والأخلاق. ففي غزوة بدر، مرّت له ﷺ مواقف أخلاقية كثيرة، نستعرض منها أهمّها، وهي كما يلي:

الهجوم العام بين المسلمين والمشركين:

عندما قُتل صناديد قريش الثلاثة - عتبة، وشيبة، والوليد بن عتبة - في المباراة الفردية، بدأ الهجوم العام بين الجيشين، والذي انتهى بانتصار المسلمين على المشركين.

وبعد هذا الانتصار للمسلمين في هذه الغزوة العظيمة، كان لا بدّ من رعاية بعض الحقوق في معسكر المشركين، فقد نظر رسول الله إلى أولئك الذين كانوا قد أحسنوا إلى المسلمين في مكة، ودافعوا عنهم، كأبي البختري، الذي كان ممن قام في نقض الصحيفة الظّالمة على بني هاشم وأتباع الرسول ﷺ.

كما نظر إلى أولئك الذين أكرّهم على الخروج من المشركين إلى بدر وكانوا يرغبون في قرارة أنفسهم في الإسلام، مثل مُعظم رجال بني هاشم، كالعبّاس بن عبد المطلب، عمّ النبي ﷺ، وذلك حسب القول الذي يقول بأنّه شارك مع المشركين ضدّ المسلمين.

وروي أنّ النبي ﷺ قال لأصحابه يوم التقى الجمعان في بدر: «قد عرفْتُ رجالاً من بني هاشم وغيرهم أخرجوا كُرْهاً، فمَنْ لَقِيَ مِنْكُمْ أحداً من بني هاشم فلا يقتله»<sup>(٣١)</sup>. ورُوِيَ - أيضاً - أنّه قال: «ومَنْ لَقِيَ العبّاس بن عبد المطلب فلا يقتله، فإنّه أخرج كُرْهاً»<sup>(٣٢)</sup>.

وعلق السيّد شرف الدّين على هذا بقوله:



«نهي عن قتل بني هاشم عموماً، وعن قتل العباس منهم بالخصوص حين كانوا في ساحة القتال، لكونهم مُكرهين على ذلك، فالعجب ممن اقترح بَعْدَها عليه - بأبي هو وأمي - أن يقتل العباس وعقبلاً بيدي أخوينها: حمزة وعلي<sup>(٣٣)</sup>، فهل هذا من مظاهر رفقه بالنبي وأهل بيته ﷺ!! أو من موارد تعبه بنصوصه المقدسة؟! كلا! بل هو من الشواهد على أنه كان يؤثر رأيه على التعبد بها، كما لا يخفى.

وقد استاء أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة من نهي النبي ﷺ عن قتل العباس وسائر بني هاشم، حتى قال - كما في تاريخي: ابن الأثير وابن جرير، وسيرتي: الحلبي والدخلاني وغيرهما -: «أَتَقْتُلُ آبَاءَنَا وَأَبْنَاءَنَا وَإِخْوَانَنَا وَنَتْرِكَ الْعَبَّاسَ؟ وَاللَّهِ لئن لَقِيتُهُ لأَجْمَعْتَهُ بِالسَّيْفِ فبلغ النبي ذلك، فقال لعمر رضي الله عنه: يا أبا حفص، أما تسمع قول أبي حذيفة؟ أَيَضْرِبُ وَجْهَ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ بِالسَّيْفِ؟<sup>(٣٤)</sup> فانظر كيف استنجد للذِّفَاعِ عن عمِّه واعجب من اقتراحه بعد ذلك عليه قتله. وقد ذكر المؤرخون كافة: أنه لما أَمْسَى الْعَبَّاسُ مأسوراً بات رسول الله بأبي هو وأمي ساهراً، فقال له الصحابة: يا رسول الله، ما لك لا تنام؟ فقال: سمعتُ تَضُورُ الْعَبَّاسَ فِي وَثَاقِهِ فَمَنْعَ مِنِّي النَّوْمَ، فقاموا إليه فأطلقوه، فنام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم<sup>(٣٥)</sup>.

وإن رحمته ﷺ للعالمين، ورأفته بالمؤمنين، وإشفاقه على عشيرته الأقربين، وخصوصاً على أبي الفضل صنو أبيه، والبقية من أهليه، لما هو غني عن البيان، ومن ذا ينهل جرّسه يومئذ على سلامتهم، ورغبته النامة في بقائهم، ليفوزوا بعد ذلك بخدمته، وكانوا في الواقع مؤمنين، لكنهم لم يتمكنوا من الهجرة إليه، فأكْرِهوا على الخروج، كما نصّ عليه النبي ﷺ، فاقترح قتلهم، والحال هذه، أكبر شاهد على أنهم كانوا يؤثرون إرادتهم في مثل هذا المقام على التعبد بإرادته وأوامره، عليه وآله الصلاة والسلام<sup>(٣٦)</sup>.

وهذا الموقف الذي ينتم عن الرِّحمة والعطف واللطف، لم يكن الدافع إليه الجانب العاطفي للأقارب، بل الدافع له الجانب الأخلاقي الإسلامي وأنهم كانوا مؤمنين.

### رعاية الأسرى ومصيرهم الأخير:

لقد خاطب نبي الأخلاق محمد ﷺ المسلمين في بدر في الأسرى الذين بأيديهم، وأوصاهم بهم خيراً قائلاً: «استوصوا بالأسرى خيراً»<sup>(٣٧)</sup>. وهنا ننقل قصة واحدة لأحد القرشيين في بدر، تبين كيفية معاملة أصحاب النبي ﷺ للأسرى، التابعة من وصاياه وتوجيهاته لهم:

يقول أبو عزيز - وكان صاحب لواء في جيش قريش -: «كُنْتُ أسيراً في أيدي رَهْطٍ من الأنصار حين أَقْبَلُوا بي مِنْ بَدْرٍ، فَكَانُوا إِذَا قَدَّمُوا غَدَاءَهُمْ وَعِشَاءَهُمْ خَصُونِي بِالْخُبْزِ وَأَكَلُوا التَّمْرَ، وَالْخُبْزَ عِنْدَهُمْ قَلِيلٌ، وَالتَّمْرُ زَادُهُمْ، وَذَلِكَ لَوْصِيَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِيَّاهُمْ بِنَاءٍ، مَا تَقَعُ فِي يَدِ رَجُلٍ مِنْهُمْ كَسْرَةُ خُبْزٍ إِلَّا نَفَعَنِي بِهَا، فَاسْتَحْيَ، فَأَرَدَهَا عَلَى أَحَدِهِمْ، فِيرَدَّهَا عَلَيَّ، وَكَانُوا يَحْمِلُونَنَا وَيَمْشُونَ»<sup>(٣٨)</sup>. هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى، لم يكن رسول الله ﷺ يَرْغَبُ في أَنْ يَقْتُلَ الأسرى أو يُذَلِّهِمْ أو يُعَذِّبَهُمْ أو يُدْخِلَهُمُ الْإِسْلَامَ بالقوة؛ وَلِذَا، فَإِنَّهُ اتَّخَذَ قَرَاراً تَارِيخِيّاً في شَأْنِ الْأَسْرَى، أَثْبَتَ مِنْ خِلَالِهِ الْحُرِّيَّةَ وَالْديمقراطية، لَا فَرْصَ الْقُوَّةَ وَالْإِجْبَارَ، وَقَدْ كَانَ ذَلِكَ كَالْتَّالِي:

١. مَنْ عَلِمَ مِنَ الْأَسْرَى عَشْرَةً مِنْ صَبِيَّانِ الْعِلْمَانِ، وَالصَّبِيَّانِ مِنْ أَوْلَادِ الْأَنْصَارِ، الْكِتَابَةِ وَالْقِرَاءَةِ، كَانَ ذَلِكَ فِدَاءَهُ وَخُلِّيَ سَبِيلُهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُؤْخَذَ مِنْهُ مَالٌ<sup>(٣٩)</sup>.

٢. وَمَنْ دَفَعَ فِذْيَةً قَدَرَهَا أَرْبَعَةُ آلَافِ دِرْهَمٍ إِلَى أَلْفِ دِرْهَمٍ خُلِّيَ سَبِيلُهُ، وَإِنْ كَانَ فَقِيراً لَا مَالَ لَهُ أُفْرِجَ عَنْهُ دُونَ فِدَاءٍ.

٣. وفي مقابل ذلك أنكر بعض الصحابة أخذ الفداء من الأسرى وإطلاق سراحهم، وكان من رأيه أن يعتمد حمزة إلى أخيه العباس فيقتله، ويأخذ عليّ أخاه عقيلاً فيقتله، وهكذا كلّ مسلمٍ له قرابة في أسرى المشركين، يقتله بيده، حتى لا يبقى منهم أحد، فأعرض رسول الله ﷺ عن هذا الرأي تعبدًا بالوحي الموافق للرحمة والحكمة، ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾<sup>(١)</sup>. وما هذه إلا نظرة إنسانية من نبي الإنسانية محمد ﷺ إلى الأسرى، كمثالٍ بارزٍ على أخلاقه العظيمة في المعارك.

### جرائم بني قينقاع

عندما دخل رسول الله ﷺ المدينة أجرى مع يهود المدينة معاهدة التعايش السلمي بينه وبينهم، إلا أن يهود بني قينقاع نقضوا هذه العهد السلميَّة، وذلك بما يلي:

١. تدبير المؤامرات وممارسة الأعمال الإيذاية ضد المسلمين .
٢. القيام بالحرب الباردة (الإعلامية) ضدهم، وذلك بنشر الأكاذيب وبث المعلومات الكاذبة، وإطلاق الشُّعارات القبيحة.
٣. إنشاد القصائد التي من شأنها الإساءة إلى المسلمين وتحقيرهم وتخريب معنوياتهم .

### موقف الرسول تجاه بني قينقاع

لم يكن من مصلحة الإسلام والمسلمين تفجير الموقف في عاصمة الإسلام يومئذ.. ولهذا وقف رسول الله ﷺ ذات يومٍ في سوقهم بعد أن جمعهم فيه، ثم قال:

«يا معشر اليهود، اخذوا من الله مثل ما نزل بقريش من النِّقمة، وأسلموا فإنكم قد عرفتم آتي رسول الله، (أو آتي نبيُّ مرسل)، تجدون ذلك في كتابكم

وعهد الله إليكم».

وكان هذا من باب النصيحة لهم. ولكن اليهود - يهود بني قينقاع - لم يشكروا النصيحة هذه، أو يسكتوا بل ردّوا عليه بعنادٍ ولجاجٍ وصلافة قائلين:

«يا محمد، إنك ترى أنا قومك، لا يغرّنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبّت منهم فرصة، إنا والله لئن حاربناك لتعلمنّ أننا نحن الناس»<sup>(٤١)</sup>.

وعندما لم يقنع اليهود بضرورة تغيير مواقفهم، والتّخلي عن مؤامراتهم وخططهم الإيدائية ضدّ النبي ﷺ والمسلمين، كان لا بدّ من استخدام القوة معهم، وإلا ازدادوا صلافةً وكثرت الاعتداءات.

ولا نريد أن نخوض في تفاصيل ما جرى بين المسلمين واليهود، إلا ما يهم موضوعنا، وهو أخلاق النبي التّبليغيّة في الغزوات.

بعد ما جرى من الاعتداء على المرأة المسلمة في سوق اليهود، وقتل المسلم، تحصّن اليهود في حصونهم ﴿وَوَلَّيْنَا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِّنَ اللَّهِ﴾<sup>(٤٢)</sup>، إعلاناً للحرب، فأمر الرسول ﷺ بمحاصرتهم، ومنع من دخول أيّ إمدادٍ إليهم، كما منع من اتّصالهم بأيّ أحدٍ خارج حصونهم. فحاصرهم في حصونهم خمس عشرة ليلةً أشدّ الحصار، حتّى قدّف الله في قلوبهم الرّعب، وفقدوا القدرة على المقاومة، ورَضُوا بأنّ ينزلوا عند حكم النبي ﷺ.

### غزوة ذي أمر

كان للمسلمين مع رسول الله موقفٌ عظيمٌ في هذه الغزوة. فعندما عسكر رسول الله ﷺ في «ذي أمر»<sup>(٤٣)</sup>، أصابهم مطرٌ كثير، فذهب النبي لحاجته فأصابه ذلك المطر قبل ثيابه، فترعها ونشرها لتجفّ، وألقاه على شجرة ثم اضطجّع تحتها، والأعراب ينظرون إلى كلّ ما يفعل. فقالت الأعراب لـ «دعثور»، وكان سيدها وأشجعها: قد أمكنك عمّد، وقد انفرد من بين أصحابه، حيث إن غوث

بأصحابه لم يُعْثَ حَتَّى تَقْتُلَهُ. فَاخْتَارَ سَيْفًا مِنْ سِوْفِهِمْ صَارِمًا، ثُمَّ أَقْبَلَ مُشْتَمِلًا عَلَى السَّيْفِ، حَتَّى قَامَ عَلَى رَأْسِ النَّبِيِّ ﷺ بِالسَّيْفِ مَشْهُورًا، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُسْتَلْقٍ عَلَى قَفَاهُ. فَقَالَ بَنْزَرَةٌ خَشَنَةٌ مَهْدُودَةٌ: مَا يَمْنَعُكَ مِنِّي الْيَوْمَ؟ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: اللَّهُ.

كَانَ لِهَذِهِ الْكَلِمَةِ أَثَرٌ عَجِيبٌ فِي نَفْسِ «دَعثُور» بِحَيْثُ أَرْعَبَ وَوَقَعَ السَّيْفُ مِنْ يَدِهِ، فَأَخَذَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَامَ بِهِ عَلَى رَأْسِهِ، فَقَالَ: وَمَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي الْيَوْمَ؟ فَقَالَ: لَا أَحَدٌ. ثُمَّ قَالَ: فَنَا أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَاللَّهُ لَا أَكْثَرَ عَلَيْكَ جَمْعًا أَبَدًا.

فَاعْطَاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَيْفَهُ، ثُمَّ أَدْبَرَ، ثُمَّ أَقْبَلَ بِوَجْهِهِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَقَالَ: أَمَا وَاللَّهِ لَا أَنْتَ خَيْرٌ مِنِّي. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَنَا أَحَقُّ بِذَلِكَ مِنْكَ. فَأَتَى قَوْمَهُ، وَقَصَّ عَلَيْهِمْ مَا جَرَى لَهُ مَعَ النَّبِيِّ، وَأَنَّهُ أَسْلَمَ، وَدَعَا قَوْمَهُ إِلَى الْإِسْلَامِ. وَلِهَذَا السَّبَبُ، وَلَيْسَ لِسَوَاهِ، أَسْلَمَ، وَقَبِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِسْلَامَهُ، وَبَعْدَ أَنْ مَشَى خَطَوَاتِ، رَدَّ إِلَى النَّبِيِّ سَيْفَهُ الَّذِي أَعَادَهُ إِلَيْهِ النَّبِيُّ قَبْلَ ذَلِكَ، وَاعْتَدَلَ إِلَيْهِ. وَقَالَ: أَنْتَ أَوَّلِي بِهَذَا السَّيْفِ لِأَنَّكَ قَائِدُ هَذِهِ السَّرِيَّةِ الْمُصْلِحَةِ.

هَكَذَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَتَعَامَلُ مَعَ أَعْدَائِهِ، وَهَكَذَا كَانَ يَدْخُلُ النَّاسُ فِي الْإِسْلَامِ بِسَبَبِ أَسْلُوبِهِ فِي التَّعَامُلِ مَعَهُمْ.

### غزوة أحد

هِيَ مِنَ الْغَزَوَاتِ الْقَوِيَّةِ وَالْعَظِيمَةِ فِي تَارِيخِ الْإِسْلَامِ، وَالتِّي لَعِبَتْ دَوْرًا كَبِيرًا فِي نَشْرِهِ. وَقَدْ جَرَى فِي هَذِهِ الْغَزْوَةِ أَحْدَاثٌ كَثِيرَةٌ وَكَبِيرَةٌ؛ إِذْ تَعَامَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي كُلِّ جَزْئِيَّاتِهَا بِحُكْمَةٍ بِالْغَةِ وَأَخْلَاقٍ عَالِيَةٍ، نَذَرَ مِنْهَا مَا يَلِي:

(١) صَبَرَ النَّبِيُّ ﷺ وَتَحَمَّلَهُ لِمَا جَرَى لَهُ:

تَحَالَفَ خَمْسَةٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ عَلَى قَتْلِ النَّبِيِّ ﷺ، فَمِنْهُمْ مَنْ جَرَحَ جَنْبَهُ، وَمِنْهُمْ

مَنْ كَسَرَ رِبَاعِيَّتَهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ رَمَى وَجْتَتِيَةَ فَجَرَحَهَا.

رَغِمَ كُلُّ مَا جَرَى لِنَبِيِّ الْإِسْلَامِ، فَإِنَّهُ بَقِيَ صَابِرًا مِنْ أَجْلِ رِسَالَتِهِ السَّمَاوِيَّةِ وَدِفَاعًا عَنْ حِيَاضِ عَقِيدَتِهِ التَّوْحِيدِيَّةِ الْعُظْمَى، وَصَمَدَ أَمَامِ أَعْدَائِهِ صَمُودَ الْجِبَالِ، لَا تَهْزُهُ الرِّيَّاحُ، وَلَا تُؤَثِّرُ فِيهِ الْمَيُولُ وَالْأَهْوَاءُ.

وَمَعَ كُلِّ مَا جَرَى لَهُ، لَمْ يُسْمَعْ مِنْهُ - رُوحِي فِدَاهُ - إِلَّا مَا قَالَهُ عِنْدَمَا كَانَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ الْمُبَارَكِ؛ إِذْ قَالَ:

«كَيْفَ يُفْلَحُ قَوْمٌ خَضَبُوا وَجْهَ نَبِيِّهِم بِالْدَمِّ وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ؟!»<sup>(٤٤)</sup>.

إِنَّ هَذِهِ الْعِبَارَةَ الْخَالِدَةَ تَكْشِفُ عَنْ عَمَقِ رَحْمَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَعَاطَفَتِهِ، حَتَّى بِالنِّسْبَةِ إِلَى أَعْدَائِهِ الْأَلْدَاءِ.

بَيْنَمَا تَكْشِفُ لَنَا كَلِمَةً قَالَهَا الْإِمَامُ عَلِيٌّ ﷺ حَوْلَ شَجَاعَتِهِ الْفَائِقَةِ ﷺ إِذْ قَالَ:

«كُنَّا إِذَا احْمَرَّ الْبَاسُ اتَّقَيْنَا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَلَمْ يَكُنْ مِنَّا أَقْرَبُ إِلَى الْعَدُوِّ مِنْهُ»<sup>(٤٥)</sup>.

هَذِهِ عَظْمَةُ النَّبِيِّ وَقُوَّتُهُ وَأَخْلَاقُهُ الْعَظِيمَةُ.

(٢) عَفْوُهُ عَنْ قَاتِلِ عَمِّهِ حَمْزَةَ:

اسْتَشْهَدْ فِي هَذِهِ الْغَزْوَةِ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمَطْلَبِ، فَكَيْفَ قُتِلَ؟ وَمَنْ قَتَلَهُ؟ وَمَاذَا كَانَتْ رَدَّةُ فِعْلِ النَّبِيِّ مَنْ قَتَلَهُ؟

لَقَدْ كَانَتْ هِنْدُ بِنْتُ عُثْبَةَ، زَوْجَةُ أَبِي سَفْيَانَ، تَحْقُدُ عَلَى الْحَمْزَةِ وَعَلَى أَشَدِّ الْحَقْدِ، وَقَدْ عَزَمَتْ عَلَى أَنْ تَنْتَقِمَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ لِأَيِّهَا مَهْمَا كَلَّفَ الْأَمْرَ. فَأَمَرَتْ «وَحْشِيًّا»، وَهُوَ غُلَامٌ حَبَشِيٌّ لِمَطْعَمِ بْنِ جُبَيْرٍ، الَّذِي قُتِلَ عَمُّهُ هُوَ الْآخِرُ فِي بَدْرٍ، أَمْرُهُ بِأَنْ يَحْقُقَ غَرَضَهَا وَأَمْلَهَا كَيْفَمَا اسْتَطَاعَ، وَقَالَتْ لَهُ: كَيْنَ قَتَلْتَ مُحَمَّدًا أَوْ عَلِيًّا أَوْ حَمْزَةَ لِأَعْطَيْتَكَ رِضَاكَ. فَقَالَ لَهَا وَحْشِيٌّ: أَمَّا مُحَمَّدٌ، فَلَا أَقْدِرُ عَلَيْهِ، وَأَمَّا عَلِيٌّ، فَوَجَدْتُهُ رَجُلًا كَثِيرَ الْإِلْتِفَاتِ، فَلَا أَطْمَعُ فِيهِ، وَأَمَّا حَمْزَةُ، فَلِإِنِّي أَطْمَعُ فِيهِ؛ لِأَنَّهُ إِذَا غَضِبَ لَمْ يُبْصِرْ بَيْنَ يَدَيْهِ.

لقد قتل وحشي الحمزة، وأعتق وهو بمكة، وبقي فيها حتى افتتحت، وعند فتحها هرب إلى الطائف ومكث بها، ولما ذهب وفد الطائف إلى رسول الله ﷺ ليُسَلِّموا ذهب وحشي معهم.

يقول وحشي: خرجت حتى قدمت على رسول الله ﷺ المدينة، فلم يرعه إلا بي قائماً على رأسه أتشهد بشهادة الحق، فلما رأي قال: أوحشي؟! قلت: نعم يا رسول الله. قال: أفعذ فحدثني كيف قتلت حمزة؟ فحدثته بما جرى له معي، فلما فرغت من حديثي قال: وَيْحَكَ!! غَيَّبَ عَنِّي وَجْهَكَ فَلَا أَرَيْتَكَ<sup>(٤٦)</sup>.

أجل، هذه هي الروح النبوية الكبرى. وتلك هي سعة الصدر التي وهبها الله تعالى نبيه ﷺ، قائد الإسلام الأعلى، ومعلم الأخلاق، فقد عفا عن قاتل عمه مع أنه كان في مقدوره أن يُعْذِمه بمائة حُجَّةٍ وَحُجَّةٍ!! وهكذا يعلمنا ﷺ كيف نَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمْنَا وَأَسَاءَ إِلَيْنَا مهما كانت الإساءة.

عفو النبي عن المثلة بحمزة

فبعد شهادة حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ في أحد، وتفجعه على عمه وما مثل به، قال رسول الله ﷺ: مَنْ لَهُ عِلْمٌ بَعَمِّي حمزة؟ فقال له الحارث بن الصمة: أنا أعرف موضعه. فجاء حتى وقف على حمزة فكره أن يرجع إلى رسول الله ﷺ فيخبره، فقال رسول الله ﷺ لأمير المؤمنين علي: يا علي أطلب عمك. فجاء علي عليه السلام فوقف على حمزة، فكره أن يرجع إلى رسول الله ﷺ، فجاء ﷺ بنفسه، حتى وقف عليه، فلما رأى ما فعل به بكى ثم قال: والله ما وقفتُ مَوْقِفًا قَطُّ أَغْيِظَ عَلَيَّ مِنْ هَذَا الْمَكَانِ، لَئِنْ أُمَكَّنَنِي اللَّهُ مِنْ قَرِيشٍ لَأَمْلَأَنَّ بِسَبْعِينَ رَجُلًا مِنْهُمْ. فنزل عليه جبريل عليه السلام بالقول: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾<sup>(٤٧)</sup>. فقال رسول الله ﷺ: بل أَصْبِرْ<sup>(٤٨)</sup>.

وعفا ﷺ فلم يمثل بأحد<sup>(٤٩)</sup> من قريش، ونهى عن المثلة<sup>(٥٠)</sup>.

## غزوة بني قريظة

ولنا مع رسول الله ﷺ وأصحابه عهدٌ في هذه الغزوة، ومعلومٌ أنه في كُلِّ حربٍ، ولكُلِّ طَرَفٍ من الأطراف أسرارٌ. وفي هذه الغزوة، حاصر رسول الله ﷺ بني قريظة في حصونهم، ولذا طَلَبَ يهود بني قريظة من رسول الله أن يَبْعَثَ إليهم «أبا لبابة الأوسي» ليتشاوروا معه في موقف الحصار، وقد كان أبو لبابة حليفاً لليهود قبل دخول الإسلام إلى المدينة، فَأَرْسَلَهُ رسول الله ﷺ إليهم، فلما رَأَوْه قام إليه الرِّجال وأَجْهَشَ إليه النساء والصِّبيان يَبْكُونَ في وجهه وقالوا: يا أبا لبابة، أَتَرَى أن نُنْزَلَ على حُكْمِ مُحَمَّدٍ؟ قال: نعم، وأشار بيده إلى حَلْقِهِ، يُريدُ أنه سَوْفَ يَقْتُلُهُمْ ولن يَحْفَظَ دماءهم لو أَسْلَمُوا.

لقد كان أبو لبابة يَعْلَمُ أن رسول الله لن يُوافق على بقاء هذه الزُّمرة الشِّريرة الخائنة، الخطرة على دين التَّوحيد، إِلَّا أن أبا لبابة قد خان بفعله هذا المسلمين ومصالح الإسلام العُلَيَّا، وأَفْشَى سِرّاً كان عليه أن يَكْتُمَهُ قَبْلَ وقوعه، ولهذا نَدِمَ على فِعْلِهِ نَدَمًا شَدِيدًا، فَخَرَجَ من حِصْنِ بني قريظة وهو يَرْتَجِفُ ويقول: إِنِّي خَنْتُ الله ورسوله، وانطلق على وجهه، ولم يَأْتِ رسول الله والمسلمين وهُمْ يَنْتَظِرُونَ رجوعه إليهم، وَرَبَطَ نَفْسَهُ في المسجد بعمودٍ من أَعْمَدَتِهِ، وقال: لا أَبْرَحُ مكاني هذا حَتَّى يَتُوبَ اللهُ عَلَيَّ مِمَّا صَنَعْتُ!!

ويقول المفسرون: فنزل في خيانة أبي لبابة قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾<sup>(٥١)</sup>. وما يشد الانتباه هنا قول رسول الله حينما علم بخبره، وكان قد استبطأه: أما لو أنه جاءني لاستغفرتُ له<sup>(٥٢)</sup>.

وإذا لاحظنا قول النَّبِيِّ، وجدنا قلبه الواسع ورحمته على أُمَّته وعطفه وحنانه عليهم.



## غزوة بني المصطلق

في هذه الغزوة، يتجلى خلق النبي الكريم أيضاً، في واحد من المواقف القوية، فقد حدثت فتنة بين رجال من الأوس والخزرج، واستطاع النبي أن يُحمدها، ولكن المنافق «عبد الله بن أبي» حاول أن يُشعلها مرة أخرى، وعندما علم النبي وأصحابه بمحاولة هذا المنافق، أراد بغض الصحابة قتله، إلا أن النبي ﷺ رَفَضَ ذلك وقال بأن الناس سيقولون إن محمداً يَقْتُل أصحابه.

وفي هذه الأثناء، قرّر «عبد الله»، وكذ هذا المنافق المذكور - وهو ذلك المسلم الشجاع -، وبَعْدَمَا سَمِعَ أن أباه تكلّم على النبي، وظن أن النبي سيقتل أباه، قرّر قتله هو بنفسه، حيث قال: يا رسول الله، إنّه قد بلغني أنك تريد قتل «عبد الله بن أبي» فيما بلغك عنه، فإن كنت لا بدّ فاعلاً، فمُرني به، فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علّمت الخزرج ما كان لها من رجل أبرّ بوالده مني، وإني خَشِيتُ أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبي يمسي في الناس فأقتله، فأقتل رجلاً مؤمناً بكافراً، فأدخُل النار.

ومع أن هذا العمل كان شاقاً ومؤلماً، إلا أن قوّة الإيمان بالله والتسليم لأمره سبحانه كانت تُفِيضُ عليه قدراً كبيراً من الطمأنينة والسكون. ولكن النبي الرحيم ﷺ قال - ردّاً على سؤال واقترح عبد الله ابن المنافق «عبد الله بن أبي»: «بل نترقّ به ونُحسن صُحبته ما بقي معنا»<sup>(٥٢)</sup>.

وهذا الكلام الذي يكشف عن سمو أخلاق النبي ﷺ ومبلغ رحمته أذهش المسلمين جميعاً، فتوجّهوا باللّوم والعتاب الحاد إلى المنافق «عبد الله بن أبي»، ولحقّه بسبب ذلك ذلٌّ شديد بين الناس، ما وراء ذلّ وهوان، واختقره الناس، حتى أنه لم يعد أحدٌ يعبأ به ويُقيم له وزناً.

الصلاة على المنافق عبد الله بن أبي:

لقد أنكر عمر بن الخطّاب على رسول الله ﷺ يوم مات المنافق ابن أبي، حيث

جاء ابنه فقال: يا رسول الله، أعطني قميصك أكفنه فيه، وصل عليه، واستغفر له، فأعطاه قميصه وقال: إذا قرغت منه فأذنا.

ولم يكن ﷺ حينئذ قد نهى عن الصلاة على المنافقين، وكانت الحكمة فيما فعله ﷺ بالغة، وقد قيل له ﷺ: لم وجهت قميصك إليه يكفن فيه؟ فقال: إن قميصي لن تغني عنه من الله شيئاً، وإني أؤمل أن يدخل بهذا السبب في الإسلام خلق كثير. فزوي أنه أسلم بهذا السبب ألف من الخزرج.

ولكن عمراً لم يذكرك الحكمة فيما فعله رسول الله ﷺ فأنكر عليه فعله، حتى جذبته بردائه وهو واقف للصلاة عليه، والقضية ثابتة أخرجه البخاري في الصفحة الثانية من كتاب اللباس من صحيحه، ورواها كافة محدثي السنة ومؤرخيهم<sup>(٥٤)</sup>.

### قصة الحديبية

في السنة السادسة من الهجرة، قرّر رسول الله ﷺ أداء العمرة المفردة، فتوجه معه ١٤٠٠ إلى ١٦٠٠ رجل من المسلمين، واغترضهم جيش الشّرك، فلجأوا إلى طريق الحديبية، وأرسل جيش الشّرك إلى النّبي رسلاً ليتعرفوا على هدفه من مجيئه إلى مكة، فأخبر جميع السفراء بأنّه قاصد للعمرة ولم يتغيّر أمر قريش.

وعند ذلك، أرسل رسول الله مندوباً إلى قريش على بعير فقتل البعير وأرادوا قتل السّفير (المبعوث) لولا تدخل بعض جماعة من قادة العرب.

ولم تلبث قريش أن كلّفت تخسين رجلاً من فتيانها بالطّواف بعسكر رسول الله ﷺ بهدف أخذ شيء من أمواله، أو أسر بعض أصحابه، إرهاباً للمسلمين وتخويفاً لهم، ولكن هذه الخطة فشلت فشلاً ذريعاً؛ فإنّ هؤلاء لم يصبوا شيئاً، بل أسرهم المسلمون جميعاً وأتى بهم رسول الله، فعفا عنهم وخلّى سبيلهم، مع أنّهم كانوا قد رَمَوْا عسكر رسول الله ﷺ بالحجارة والنّبل.

وبهذا أثبت رسول الرّحمة والأخلاق أنّه يُحِبّ السّلام ويسعى إليه، وآتاه جاء مُعْتَمِراً لا مُعْتَدِياً ولا محارباً<sup>(٥٥)</sup>.

ومع ذلك لم يدخل النّبي، بل أرسل سفيراً آخر ليُدخلها، فلم يتمكن، فأجرى معهم صلحاً على أن يدخلها من قابل بناءً على رغبتهم، وكتبوا بينهم كتاباً في الصّلح رفضوا أن تُكتب فيه كلمتان الأولى: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»، والثانية: «رسول الله»، نزولاً عند رغبة المفاوض من قريش.

إنّ هذا التسامح الذي أبداه رسول الله مع المفاوض، أثبت أنّه لم يأتٍ للحزب والإغارة، وإنّما جاء مُعْتَمِراً، كما أنّه أظهر بجلاء، ومن خلال المعاهدة، رغبته في الصّلح، والتي تُعتبر وثيقة قلّ نظيرها في تاريخ العالم كلّه.

ولنا وقفة مع أحد بنود الصّلح التي كُتبت بين رسول الله ﷺ وقريش، وهذا البند كالتّالي: «مَنْ أَتَى مُحَمَّدًا مِنْ قُرَيْشٍ بِغَيْرِ إِذْنٍ وَلِيّه رَدّه عليهم، وَمَنْ جَاءَ قُرَيْشًا مَعَ مُحَمَّدٍ لَمْ يَرْدُوهُ عَلَيْهِ».

وهذا البند، في الحقيقة، يَعمّكس نظرة رسول الإسلام والأخلاق، وتفكيره حول كيفية تبليغ الإسلام وإشاعته ونشره، فإنّه يظهر منها - وبوضوح - مدى احترامه ﷺ لمبدأ الحرّية، مع ما جرى من اعتراض بعض الصّحابة عليه. لكنّ رسول الله ردّ على المُعْتَرِضِينَ من المُسْلِمِينَ على قبوله لهذا البند، حيثُ قال: «مَنْ جَاءَهُمْ مِنَّا فَاتَّبَعُوهُ اللَّهَ، وَمَنْ جَاءَنَا مِنْهُمْ رَدَدْنَاهُ إِلَيْهِمْ، فَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ الْإِسْلَامَ مِنْ قَلْبِهِ جَعَلَ لَهُ مَخْرَجًا»<sup>(٥٦)</sup>.

### غزوة خيبر

كانت خيبر عبارةً عن حصون، ومن أجل أن يفتح المسلمون فلا بدّ أن يفتحوا هذه الحصون والقلاع. ولنا هنا وقفةٌ خُلُقِيَّةٌ مع رسول الأخلاق في

حصني من حصونها، وهو حصن «القموس».

فقد سُبِّتَ «صفية بنت حيي بن أخطب» وامرأة أخرى، فمَرَّ بهما بلال على القتلى، فصاحت صفية صياحاً شديداً، وجزعت مما رأت، فكَرِهَ رسول الله ﷺ ما صَنَعَ بلالٌ وقال: «أَذْهَبْتُ مِنْكَ الرَّحْمَةُ؟ تَمَرَّ بِجَارِيَةٍ حَدِيثَةَ السِّنِّ عَلَى الْقَتْلِ؟».

قال بلال: يا رسول الله، ما ظَنَنْتُ أَنَّكَ تَكْرَهُ ذَلِكَ، وَأَخْبَيْتُ أَنْ تَرَى مَصَارِعَ أَهْلِهَا»<sup>(٥٧)</sup>.

ولم يَكْتَفِ رسول الله بهذا الْقَدْرَ مِنْ تَطْيِيبِ خَاطِرِ صَفِيَّةَ، بَلْ اخْتَرَمَهَا، وَعَيَّنَ لَهَا مَكَاناً خَاصّاً لِلِاسْتِرَاحَةِ فِي الْمَعْسَكِ، وَاخْتَارَهَا زَوْجَةً لِنَفْسِهِ، وَبِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ أَزَالَ آثَارَ ذَلِكَ الصَّنِيعِ النَّجَسِ الَّذِي قَامَ بِهِ بِلَالٌ. وَلَقَدْ تَرَكْتَ أَخْلَاقَهُ الْعَالِيَةَ مَعَ صَفِيَّةَ أَثَرًا حَسَنًا، فَقَدْ صَارَتْ مِنْ زَوَاجَاتِهِ الْوَفِيَّاتِ الْمُخْلِصَاتِ، وَحَزَنْتَ عِنْدَ وَفَاتِهِ حُزْنًا شَدِيدًا.

عَفْوُ النَّبِيِّ عَنْ أَعْدَائِهِ مِنْ يَهُودِ خَيْبَرَ:

انتصر المسلمون على اليهود - يهود خيبر - ولكن رسول الله ﷺ عاملهم بعد الانتصار معاملةً حسنة، وَشَمِلَهُمْ بِعَفْوِهِ وَلُطْفِهِ رَغْمَ كُلِّ مَا ارْتَكَبُوهُ فِي حَقِّهِ ﷺ مِنْ ظُلْمٍ وَجَنَائَةٍ وَتَأْلِيلٍ لِلْعَرَبِ الْوَثْنِيِّينَ ضِدَّ الْإِسْلَامِ، وَاشْعَالِ حُرُوبٍ كَادَتْ أَنْ تُؤْدِيَ بِالْحُكُومَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَتُسْتَأْصَلَ الْمُسْلِمِينَ، وَتَقْضَى عَلَى جُهُودِ رَسُولِ الْأَخْلَاقِ.

وعلى الرَّغْمِ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ، فَإِنَّ رَسُولَ الْأَخْلَاقِ مُحَمَّدًا ﷺ عَفَا عَنْ كَثِيرٍ مِنَ الْيَهُودِ وَقِيلَ مِنْهُمْ أَنْ يُسْكَنَهُمْ خَيْبَرًا، وَأَنْ يَتْرَكَ أَرْضِيهِمْ وَيَسَاتِينَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ، عَلَى أَنْ يَكُونَ لَهُ نَصْفُ مَحَاصِيلِهَا سَنَوِيًّا.

ومع كُلِّ مَا قَدَّمَهُ ﷺ إِلَى يَهُودِ خَيْبَرَ مِنَ الْحَرْبِ، إِلَّا أَنَّهُمْ مَا زَالُوا يَخُونُونَهُ وَيَكِيدُونَ لَهُ وَيَخْطِطُونَ لِلْإِقْاعِ بِهِ ﷺ، وَلَا يَذَانَهُ وَأَصْحَابَهُ، وَلَنَا أَنْ نَقِفَ هُنَا مَعَ

رسول الله موقفين من عفو السامي والكريم:

١. لما اطمأن رسول الله، قرّرت جماعة من اليهود في الخفاء أن تقضي عليه بدسّ سمٍّ إليه، فأهدت له زينب بنت الحارث، زوجة سلام بن مشكم اليهودي شاةً مشويةً، وقد سألت: أيّ عضوٍ من الشاة أحبّ إلى رسول الله؟ فقبل لها: الذراع، فأكثرَتْ فيها من السمِّ، ثم سَمَّت سائر الشاة، ثم جاءت بها، فلما وضعتها بين يدي رسول الله ﷺ، تناول الذراع، فلاك منها مضغَةً فلم يسفها، ومعه بشر بن البراء بن معرور قد أخذ منها كما أخذ رسول الله، فأما بشر، فقد ابتلعها، وأما رسول الله، فقد لفظها وعرفَ بأنّها مسمومةٌ، ومات بشر من أكلته التي أكل، ثم دعا زينباً وقال لها: سَمَمْتَ الذراع؟ فاعترفت، فقال لها: ما حَمَلَكَ على ذلك؟ قالت: قَتَلْتُ أَبِي وَعَمِّي وَزَوْجِي وَنَلْتُ مِنْ قَوْمِي مَا نِلْتُ، فَقُلْتُ: إِنْ كَانَ مَلِكًا اسْتَرَحْتُ مِنْهُ، وَإِنْ كَانَ نَبِيًّا فسيُخْبَر. فعفا عنها رسول الله ﷺ ولم يلاحقْ مَنْ تواطأوا معها<sup>(٥٨)</sup>.

فَعَفُو رسول الله ﷺ لم يقتصر على المسلمين، بل شَمِلَ غيرهم من أعدائه، وفي هذه الرواية، المعفو عنها هي امرأةٌ يهوديةٌ حاولت اغتياله ﷺ، ولكن، بكلّ رحابة صدر، فقد عفا عنها نبيّ الرّحمة وشفيع الأمة. فهل لرؤساء الدّول هذا الاستعداد للعفو عمّن يُحاول اغتيالهم؟! وهل تأسّى رؤساء الدّول الإسلامية برسول الله في العفو عمّن يُحاول اغتيالهم أو ينتقدهم؟!.

وتبيّن هذه الحادثة أنّ المرأة لها مكانةٌ خاصّةٌ من التقدير والاحترام والعطف والعفو عنها في الإسلام أكثر من الرّجل، وحتى في الحزب لها معاملةٌ متميّزة، خلافاً لما يروّجه أعداء الإسلام حول حقوق المرأة في الإسلام.

٢. والنّمودج الثّاني من جفاء اليهود وكيدهم، حتّى بغد عفو النّبيّ عنهم وتلطّفه بهم، أنّ «عبد الله بن سهل»، الذي كُلف من جانب النّبيّ ﷺ في إخذى السنين، بخرص محاصيل خيبر وتقديرها وحمل نصيب المسلمين منها إلى المدينة،

فَقَاتَلَتْهُ جَمَاعَةٌ مَجْهُولَةٌ مِنَ الْيَهُودِ أَثْنَاءَ قِيَامِهِ بِوَاجِبِهِ فِي خَيْبَرَ، وَقَدْ كَسَرُوا عُنُقَهُ وَأَلْقَوْهُ فِي بئرٍ، فَقَدِمَ جَمَاعَةٌ مِنْ زُعَمَاءِ الْيَهُودِ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَدَخَلُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَخْبَرُوهُ بِهَذِهِ الْعَمَلِيَةِ الْغَادِرَةِ الْمَجْهُولِ فَاعِلُهَا، وَتَقَدَّمَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَيْضاً «عَبْدُ الرَّحْمَنِ»، أَخُو عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَهْلٍ وَابْنِ أُمِّهِ، وَكَانَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ مِنْ أَخْذِثِهِمْ سَنًا، وَكَانَ صَاحِبَ الدَّمِ، فَلَمَّا تَكَلَّمَ قَبْلَ ابْنِي أُمِّهِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: الْكُبْرُ الْكُبْرُ، أَي: (قَدِّمُوا الْأَكْبَرَ لِلْكَلَامِ، إِرْشَادًا إِلَى الْأَدَبِ فِي تَقْدِيمِ الْأَسْنِ، وَهُوَ خُلِقَ يَدْعُو إِلَيْهِ الْإِسْلَامَ).

فَذَكَرُوا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَتْلَ صَاحِبِهِمْ، وَطَلَبُوا الْقصاصَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَتَسْمُونَ قَاتِلَكُمْ ثُمَّ تَخْلِفُونَ عَلَيْهِ خَمْسِينَ يَمِينًا فَتَسَلِّمُهُ لَكُمْ؟»! وَقَدْ حَمَلَ هَذَا التَّعْلِيمَ النَّبِيُّ ﷺ أَوْلِيَاءَ الدَّمِ عَلَى أَنْ يَجْعَلُوا التَّقْوَى وَالْوَرَعَ نُصْبَ أَعْيُنِهِمْ، وَلَمْ يَسْتَسْلِمُوا لثَوْرَةِ الْعَاطِفَةِ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا كُنَّا لِنَخْلِفَ عَلَى مَا لَا نَعْلَمُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَفَيَخْلِفُونَ (أَي: الْيَهُودُ) بِاللَّهِ خَمْسِينَ يَمِينًا مَا قَتَلُوهُ وَلَا يَعْلَمُونَ لَهُ قَاتِلًا ثُمَّ يَبْرَأُونَ مِنْ دَمِهِ؟». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا كُنَّا لِنَقْبَلَ آيَانَ الْيَهُودِ، مَا فِيهِمْ مِنَ الْكُفْرِ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ يَخْلِفُوا عَلَى إِيْمٍ!! فَكَتَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى يَهُودِ خَيْبَرَ كِتَابًا جَاءَ فِيهِ: إِنَّهُ وَجَدَ قَتِيلَ بَيْنَ أَيْيَاتِكُمْ فَدَوَّهُ (أَي: أَعْطَوْا دَيْتَهُ). فَكَتَبُوا إِلَيْهِ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَتَلُوهُ وَلَا يَعْلَمُونَ لَهُ قَاتِلًا. فَلَمَّا رَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنَّ الْمَشْكَلَةَ قَدْ وَصَلَتْ إِلَى طَرِيقِ مَسْدُودٍ، وَدَاهَ بِنَفْسِهِ مِنْ عِنْدِهِ مِائَةُ نَاقَةٍ<sup>(٥٩)</sup>.

وَهَكَذَا أَثْبَتَ النَّبِيُّ ﷺ لِلْيَهُودِ مَرَّةً أُخْرَى أَنَّهُ لَيْسَ دَاعِيَةَ حَرْبٍ وَلَا طَالِبَ قِتَالٍ وَسَفْكَ دِمَاءٍ، وَلَوْ كَانَ كَغَيْرِهِ مِنَ الزُّعَمَاءِ السِّيَاسِيِّينَ، لَا تَأْخُذُ مِنْ قِصَّةِ مَقْتَلِ عَبْدِ اللَّهِ ذَرِيعَةً لِلْقَضَاءِ عَلَى حَيَاةِ تِلْكَ الزُّمَرِ الْمُعْتَدِيَةِ الْمَشَاغِبَةِ وَالْمُخَلَّةِ بِالْأَمْنِ. إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ - كَمَا يَصْرَحُ بِذَلِكَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ وَيَصِفُهُ - نَبِيُّ الرِّحْمَةِ<sup>(٦٠)</sup>، فَهُوَ لَا يَخْتَكِمُ إِلَى السَّيْفِ مَا لَمْ يَبْلُغِ الْأَمْرَ مَدَاهُ.

## معركة مؤتة

ولنا مع رسول الله ﷺ في هذه الغزوة، وفي وصاياه قبل الغزوة، أعظم تجليات الأخلاق والسمو الروحاني، فقد خطب ﷺ في جيشه البالغ عدده ثلاثة آلاف بعد الأذان بالجهاد وقال:

«أغزوا باسم الله، فقاتلوا عدو الله وعدوكم بالشام، وستجدون رجالاً في الصوامع مُغترلين الناس، فلا تعرضوا لهم، وستجدون آخرين للشيطان في رؤوسهم مفاخص فاقلموها بالسيف، ولا تقتلن امرأة، ولا صغيراً ضرعاً، ولا كبيراً فانياً، ولا تقطعن نخلاً ولا شجراً ولا تهدمن بناءً»<sup>(١)</sup>.

فلاحظوا أخلاق النبي العظيمة في عدم تعرض جيشه إلى الصغير والكبير والمرأة، بينما نجد في الطرف المقابل أنه لا يرى ذلك إطلاقاً، وكذلك الحال في الوقت الحاضر في جيش الشرك المتمثل بأمريكا وإسرائيل، فهي لا تنظر إلى الصغير ولا الكبير ولا إلى المرأة، ومجازر لبنان في الحرب الأخيرة، والإبادة الجماعية في العراق خير شاهد على ذلك.

## فتح مكة

ولنا في فتح مكة ودخول الرسول إليها العديد من المواقف التي تبيّن خلقه الكريم ورحمته الواسعة لأمته، ونستعرض لذلك عدة أمثلة:

(١) عفو النبي ﷺ عن حاطب بن أبي بلتعة:

لما أراد النبي ﷺ فتح مكة، سأل الله جل اسمه أن يُعفي أخباره على قريش ليُدخلها بغتة، وكان ﷺ قد بنى الأمر في مسيره إليها على الإسرار بذلك.

فكتب حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكة يُخبرهم بعزيمة رسول الله ﷺ على فتحها، وأعطى الكتاب امرأة سوداء كانت وُردت المدينة تستميع الناس وتستبرهم، وجعل لها جعلاً أن تُوصِله إلى قوم سبأهم لها من أهل مكة، وأمرها

أَنْ تَأْخُذَ عَلَى غَيْرِ الطَّرِيقِ.

فَنَزَلَ الْوَحْيُ بِذَلِكَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَاسْتَدْعَى أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيًّا وَقَالَ لَهُ: إِنَّ بَعْضَ أَصْحَابِي قَدْ كَتَبَ إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ يُخْبِرُهُمْ بِخَبَرِنَا، وَقَدْ كُنْتُ سَأَلْتُ اللَّهَ أَنْ يُعْمِيَ أَخْبَارَنَا عَلَيْهِمْ، وَالْكِتَابُ مَعَ امْرَأَةٍ سُودَاءَ قَدْ أَخَذَتْ عَلَى غَيْرِ الطَّرِيقِ، فَخُذْ سَيْفَكَ وَالْحَقِّهَا وَانْتَرِعِ الْكِتَابَ مِنْهَا، وَخَلِّهَا، وَصِرْ بِهِ إِلَيَّ، ثُمَّ اسْتَدْعَى الزَّيْرَ بْنَ الْعَوَّامِ وَقَالَ لَهُ: امْضِ مَعَ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ فِي هَذَا الْوَجْهِ، فَمَضَى وَأَخَذَا عَلَى غَيْرِ الطَّرِيقِ، فَأَذْرَكَ الْمَرْأَةَ، فَسَبَقَ إِلَيْهَا الزَّيْرُ، فَسَأَلَهَا عَنِ الْكِتَابِ الَّذِي مَعَهَا فَأَنْكَرَتْ وَحَلَفَتْ أَنَّهُ لَا شَيْءَ مَعَهَا وَبَكَتْ، فَقَالَ الزَّيْرُ: مَا أَرَى يَا أَبَا الْحَسَنِ مَعَهَا كِتَابًا، فَازْجِعْ بِنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ نُخْرِجْهُ بِرَاءةٍ سَاحَتْهَا.

فَقَالَ لَهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيٌّ: يُخْبِرُنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنَّ مَعَهَا كِتَابًا وَيَأْمُرُنِي بِأَخْذِهِ مِنْهَا، وَتَقُولُ أَنْتَ إِنَّهُ لَا كِتَابَ مَعَهَا، ثُمَّ اخْتَرَطَ السَّيْفَ، وَتَقَدَّمَ إِلَيْهَا فَقَالَ: أَمَّا وَاللَّهِ، لَئِنْ لَمْ تُخْرِجِي الْكِتَابَ لَا نُكْشِفَنَّكَ، ثُمَّ لَأَضْرِبَنَّ عُنُقَكَ.

فَقَالَتْ: إِذَا كَانَ لَا بَدَّ مِنْ ذَلِكَ، فَأَعْرِضْ يَا ابْنَ أَبِي طَالِبٍ بَوْجْهَكَ عَنِّي، فَأَعْرِضْ بَوْجْهَهُ عَنْهَا، فَكَشَفَتْ قَنَاعَهَا وَأَخْرَجَتْ الْكِتَابَ مِنْ عَقِيصَتِهَا، فَأَخَذَهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَصَارَ بِهِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَأَمَرَ أَنْ ينادي: الصَّلَاةُ جَامِعَةٌ، فَتَوَدَّى فِي النَّاسِ، فَاجْتَمَعُوا إِلَى الْمَسْجِدِ حَتَّى امْتَلَأَ بِهِمْ، ثُمَّ صَعَدَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى الْمَنْبَرِ، وَأَخَذَ الْكِتَابَ بِيَدِهِ وَقَالَ:

أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي كُنْتُ سَأَلْتُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُخْفِيَ أَخْبَارَنَا عَنْ قَرِيشٍ، وَإِنَّ رَجُلًا مِنْكُمْ كَتَبَ إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ يُخْبِرُهُمْ بِخَبَرِنَا، فَلْيَقُمْ صَاحِبُ الْكِتَابِ، وَلَا فَضْصَةُ الْوَحْيِ، فَلَمْ يَقُمْ أَحَدٌ، فَأَعَادَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَقَالَتَهُ ثَانِيَةً وَقَالَ: لِيَقُمْ صَاحِبُ الْكِتَابِ وَلَا فَضْصَةُ الْوَحْيِ.

فَقَامَ حَاطِبُ بْنُ أَبِي بَلْتَعَةَ، وَهُوَ يَزْعُدُ كَالسَّعْفَةِ فِي يَوْمِ الرِّيحِ الْعَاصِفِ، فَقَالَ: أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ صَاحِبُ الْكِتَابِ، وَمَا أَخَذْتُ نِفَاقًا بَعْدَ إِسْلَامِي، وَلَا



شكاً بعدَ يقيني، فقال له النَّبِيُّ ﷺ: فما الذي حَمَلَكَ على أن كَتَبْتَ هذا الكتاب؟ قال: يا رسول الله، إنَّ لي أهلاً بمَكَّة، وليس لي بها عشيرة، فأشَفَقْتُ أن تكون دائرةٌ لهم علينا فيكون كتابي هذا كفاً لهم عن أهلي، وبدأ لي عندهم، ولم أفعل ذلك للشُّكِّ في الدين.

فقام عمر بن الخطاب وقال: يا رسول الله، مُرني بِقَتْلِهِ، فإنه منافقٌ. فقال ﷺ: إنه من أهل بَذْر، ولعلَّ الله تعالى اطلع عليهم ففَقَرَهم، أخرجوه من المسجد. قال: فَجَعَلَ النَّاسُ يَدْفَعُونَ في ظَهْرِهِ حَتَّى أخرجوه، وهو يَلْتَفِت إلى النَّبِيِّ ﷺ ليرقَّ عليه، فأمر رسول الله ﷺ برده، وقال له: قد عَفَوْتُ عَنْكَ وَعَنْ جُرْمِكَ، فاستَغْفِر رَبَّكَ، ولا تَعُدْ بِمِثْلٍ ما جَنَيْتَ<sup>(٦٢)</sup>.

إنَّ ما قام به حاطب بن أبي بلتعة من الأمور الخطيرة؛ لأنه كَشَفَ الخطط العسكرية وأخبار الحزب، ومع هذا، فقد عفا عنه رسول الله ﷺ، وقِيلَ عُذْرُهُ، بل وَعفا عن المرأة غير المسلمة التي تَحْمِلُ الكتاب ولم يُصِبْها أي أذى.

(٢) عفو النَّبِيِّ وَالطَّافِه على أبي سفيان:

وَسِعَتْ رَحْمَةُ النَّبِيِّ ﷺ أبا سفيان الذي هو من الدَّ أعدائه وخصومه، والذي قاد الأحزاب والجيش لحربه، فقَبِلَ إسلامه غير الحقيقي، وأعطاه بذلك مثلاً لرحمة الإسلام وعِظَمَ قِيَمِهِ ومبادئه.

ولقد التَفَتَ العباس إلى النَّبِيِّ ﷺ طالباً منه أن يُسَدِّي يداً على أبي سفيان قائلاً: «يا رسول الله، إنَّ أبا سفيان رجلٌ يُحِبُّ الفَخْرَ، فلو خصصته بمعروف»، فاستجاب النَّبِيُّ ﷺ لدعوة عمِّه وقال: «مَنْ دَخَلَ دار أبي سفيان فهو آمِنٌ، وَمَنْ أَغْلَقَ بابه فهو آمِنٌ، وَمَنْ دَخَلَ المسجد فهو آمِنٌ»<sup>(٦٣)</sup>.

وهكذا أصدر النَّبِيُّ ﷺ عفواً عامّاً عن قريش، والذي لم يُجَدِّثْ له مثيلٌ في جميع تاريخ الحروب، فقد غمِرَ ﷺ أعداءه بلُطْفِهِ، وهم الذين جرَّعوه ألواناً قاسيةً من المِحنِ والخطوب.

### ٣) العفو العام لأهل مكة:

وعندما استقرت أمور النبي في مكة، قام خطيباً في الناس، وكان أهالي مكة ينتظرون بفارغ الصبر ما يواجهونه منه، فهل يُنزل النبي بهم العقاب الصّارم ويُقابلهم بمزيد من الانتقام جرّاء ما صبّوه عليه وعلى أتباعه المُستضعفين من صنوف الخطوب والكوارث؟! أو أنّه سيَعفو عنهم ويُقابلهم بالعفو والصفح الجميل؟! <sup>(٦٦)</sup>

واعلى النبي ﷺ منصّة الخطابة، واستمال الجميع إلى أذنيه صاغية، مُفتّحين خطابه بتوحيد الله تعالى والثناء عليه. ومن ضمن ما قال:

«لا إله إلا الله، وخده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وخده، ألا كل مأثرة أو مال يُدعى فهو تحت قدسيّ هاتين، إلا سدانة البيت وسقاية الحاج». ثم أضاف - بعد كلام له في شأن دية الخطأ - قائلاً: «يا معشر قريش، إنّ الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية، وتعتظّمها بالآباء، الناس من آدم، وآدم من تراب». ثم تلا قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ﴾ <sup>(٦٧)</sup>. ثم قال ﷺ: «يا معشر قريش، ما ترون آتي فاعل فيكم؟»، فهتفوا جميعاً بلسان واحد: «خيراً، أخ كريم، وابن أخ كريم» <sup>(٦٨)</sup>.

فقام رسول السلام ونبي الرحمة ﷺ وقال: «فلاني أقول لكم كما قال أخي يوسف: ﴿قَالَ لَا تَخْزِبْ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَقُورُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾» <sup>(٦٩)</sup>. وكان النبي قد سمع أحد قادة جيشه عندما أخذ ينادي حين دخول مجموعته العسكرية مكة من إحدى مداخلها: «اليوم يوم الملحمة، اليوم تُسبى الحرمة». فغضب رسول الله ﷺ لهذا الشعار، وقال راداً عليه: «اليوم يوم المرحمة» <sup>(٧٠)</sup>. ومن هذه، بقي أهالي مكة ينتظرون العفو العام من النبي. وقد أصدر رسول الرحمة هذا العفو العام عن أولئك الذين ما تركوا لونا

من ألوان الاعتداء إِلَّا صَبَّوْهُ عَلَيْهِ، قَائِلًا لَهُمْ: «أَلَا لِبَشِّ جِيرَانِ النَّبِيِّ كُنْتُمْ، لَقَدْ كَذَبْتُمْ وَطَرَدْتُمْ وَأَخْرَجْتُمْ وَفَلَلْتُمْ، ثُمَّ مَا رَضِيتُمْ حَتَّى جَشُمُونِي فِي بِلَادِي تَقَاتِلُونِي، اذْهَبُوا فَأَنْتُمْ الطَّلَاقُ». فَخَرَجَ الْقَوْمُ كَأَنَّمَا أَنْشَرُوا مِنَ الْقُبُورِ، وَدَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ<sup>(٦٩)</sup>.

وَتَمَثَّلَتِ الرَّحْمَةُ وَالْكَرَامَةُ وَالشَّرَفُ، بِجَمِيعِ مَا تَحْمِلُ هَذِهِ الْكَلِمَاتُ مِنْ مَعْنَى، فِي هَذَا الْعَفْوِ، فَلَمْ يُقَابَلْ أُولَئِكَ الْجَفَاءَ بِالْمَثَلِ، وَلَمْ يَأْخُذْهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَيُعْذِرَ رِجَالَهُمْ وَيَسْتَصْفِي أَمْوَالَهُمْ وَلَا يَتْرَكَ لَهُمْ أَيَّ أَثَرٍ يُذَكِّرُ، إِنَّمَا رَحْمَةُ النَّبَوَّةِ الَّتِي لَا تَخْضَعُ لِلْعَوَاطِفِ وَالْأَهْوَاءِ، وَلَا تَعْرِفُ إِلَّا الرَّحْمَةَ وَالرَّأْفَةَ، وَالْإِحْسَانَ لِلْمَسِيءِ، وَالْبِرَّ بِالْمُعْتَدِينَ.

#### ٤) عدالة النبي مع أقاربه قبل الآخرين:

خَطَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي أَقَارِبِهِ، وَضَمَّ رِجَالَ بَنِي هَاشِمٍ وَبَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَأَلْفَى كُلَّ تَمَيِّزٍ وَتَفْضِيلٍ غَيْرِ صَحِيحٍ، وَدَعَا إِلَى لُزُومِ الْعَدْلِ وَمِرَاعَاةِ الْمَسَاوَاةِ بَيْنَ جَمِيعِ الطَّبَقَاتِ، إِذْ قَالَ: «يَا بَنِي هَاشِمٍ، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ، وَإِنِّي شَفِيقٌ عَلَيْكُمْ، لَا تَقُولُوا: إِنَّ مُحَمَّدًا مِنَّا، فَوَاللَّهِ مَا أَوْلِيَانِي مِنْكُمْ، وَلَا مِنْ غَيْرِكُمْ، إِلَّا الْمُتَّقُونَ، أَلَا فَلَا أَغْرِفُكُمْ تَأْتُونِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَحْمِلُونَ الدُّنْيَا عَلَى رِقَابِكُمْ، وَيَأْتِي النَّاسُ يَحْمِلُونَ الْآخِرَةَ. أَلَا وَإِنِّي قَدْ أَعْدَزْتُ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، وَفِيمَا بَيْنَ اللَّهِ ﷻ وَبَيْنَكُمْ وَإِنِّي لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ»<sup>(٧٠)</sup>.

وَهَذَا الْخُطَابُ يَدُلُّ عَلَى عَدَالَةِ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ لَجَمِيعِ النَّاسِ، وَأَنَّهُ لَا فَرْقَ لِأَحَدٍ مِنْ أَقَارِبِهِ عَلَى أَحَدٍ إِلَّا بِالتَّقْوَى؛ فَإِنَّ التَّقْوَى هِيَ الْحُدُّ الْفَاصِلُ بَيْنَ النَّاسِ فِي التَّفْضِيلِ.

#### ٥) عفو النبي عن صفوان بن أمية:

«صفوان» هذا، هُوَ ابْنُ «أُمَيَّةَ بْنِ خَلْفٍ»، الْعَدُوُّ الدَّوْدُ لِلرَّسُولِ ﷺ، وَقَدْ قَامَ ابْنُهُ صَفْوَانُ بِقَتْلِ مُسْلِمٍ ائْتِمَاماً لِأَبِيهِ «أُمَيَّةَ» الَّذِي قُتِلَ عَلَى أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ فِي

بدر، وكان قتله صلباً أمام الناس، ولهذا أهدر رسول الله ﷺ دمه ضمن عشرة من رجال المشركين.

ومع ذلك، فقد طلب «عُمير بن وهب» من رسول الله ﷺ أن يغفر عنه، فقبل رسول الله ﷺ شفاعته وأعطاه عمامته ليَدْخُلَ بها مكة، كعلامة أمانٍ منه ﷺ، ويصطحب معه إلى مكة «صفوان بن أمية»، فذهبَ عُميرٌ إلى صفوان، وأخبره بذلك، وقَدِمَ مِنْ مكة على رسول الله ﷺ، فلَمَّا وَقَعَتْ عينا النبي على كبير المُجرمين، بل أكبرهم يؤمئذٍ، قال له - ردّاً عليه لما سأله قائلاً: إن عُميراً يزعم أنك قد أمتنتني ١٩ - : «صَدَقْتَ، أنزل أبا وهب». ثم دعاه ﷺ إلى الإسلام فقال: اجعلني بالخيار شهرين، فقال ﷺ: «أنت بالخيار فيه أربعة أشهر»<sup>(٧١)</sup>.

وبهذا أمهله رسول الله ﷺ أربعة أشهر كفرصة يُفَكِّرُ فيها في الإسلام وفي دعوته.

فالنبي عفا عنه، فَمِنْ ناحية لم يقتله ولم يؤذِهِ، ومن ناحية أخرى أثبت الديمقراطية والحرية في اعتناق العقيدة الإسلامية عن اختيارٍ وتفكيرٍ، لا عن إكراهٍ وإجبارٍ ولا إرغامٍ أو تخويفٍ.

### معركة حُنين

في هذه المعركة، باعَتِ العدوُّ المسلمون في وادي حُنين، ورموهم بالحجارة والتبَل، فارتعب المسلمون من هذا الموقف، وتراجعوا عن رجال ثقيف وهوازن الذين استطاعوا أن يُزْعِبُوا ذلك الجيش الكبير والقوي، ولقد أزعج رسول الله هذا القرار من المسلمين.

ومع ما جرى من فرار بعض المسلمين، إلّا أننا لا ننسى ولا يغيب عن ذهننا قصتان تدلان على سمو الأخلاق النبوية وعمق الرّخمة الإسلامية:

(١) حَتَّى الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ فِي هَذِهِ الْوَقْعَةِ، حَتَّى أَخَذُوا فِي قَتْلِ الذَّرِّيَةِ، فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَا بَالُ أَقْوَامٍ ذَهَبَ بِهِمُ الْقَتْلُ حَتَّى بَلَغَ

الذرية؟ ألا لا تقتل الذرية». فقال أسيد بن الحضير: يا رسول الله، أليس إنما هم أولاد المشركين؟ فقال: «أوليس خياركم أولاد المشركين؟ كل نسمة تؤلّد على الفطرة، حتى يُعرب عنها لسانها، وأبواها يهودانها أو يُنصرانها»<sup>(٧٢)</sup>.

(٢) بعد أن أعاد النبيّ المسلمون الهاريين إلى ساحة المعركة، كروا على هوازن، وهزموهم هزيمةً مُنكرة، فقالت أمّ سليم بنت ملحان للنبيّ ﷺ: يا رسول الله، ما رأيت هؤلاء الذين أسلموا وقروا عنك وخذلوك؟ لا تغف عنهم إذا أمكنك الله منهم، تقتلهم كما تقتل هؤلاء المشركين. فقال ﷺ: «يا أمّ سليم، قد كفى الله، عافية الله أوسع»<sup>(٧٣)</sup>.

وهكذا نجد رسول الله يغفو عن أصحابه الهاريين الذين خذلوه في تلك الغزوة. ولم ينته الحدّ عند ذلك، فرغم ما جرى، انتصر المسلمون وحصلوا على الغنائم، ووزّع النبيّ تلك الغنائم على المسلمين، فلمزّ البعض النبيّ في ذلك، وقد كان ذلك كما يلي:

لقد لمز بعض الصحابة النبيّ في الصدقات، قال الله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَاهُمْ يَسْتَخْطُونَ﴾<sup>(٧٤)</sup>. وأخرج البخاريّ عن عبد الله بن مسعود قال: قسّم النبيّ ﷺ قسمةً كبغض ما كان يُقسّم، فقال رجلٌ من الأنصار: والله إنّها لقسمةٌ ما أريد بها وجه الله. قلتُ: أمّا أنا، لأقولنّ للنبيّ ﷺ، فأنيتّه، وهو في أصحابه، فسارزته، فشقّ ذلك على النبيّ ﷺ وتغيّر وجهه وغضب، حتى ودّدت أنّي لم أكن أخبرته. ثم قال: «قد أودّي موسى ﷺ بأكثر من ذلك فصبر»<sup>(٧٥)</sup>.

وأخرج البخاريّ أيضاً، عن عبد الله قال: لما كان يوم حنين أثار النبيّ ﷺ أناساً في القسمة، فأعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل، وأعطى عيينة مثل ذلك، وأعطى أناساً من أشراف العرب فأثرهم يومئذٍ في القسمة (تأليفاً لقلوبهم وقلوب عشائهم وترغيباً لهم في الإسلام)، قال رجلٌ: والله إنّ هذه القسمة ما

عُدِلَ فيها وما أريدَ بها وجه الله. فقلتُ: والله لأخبرنَّ النَّبيَّ ﷺ، فأتيتُه فأخبرته، فقال: «فَمَنْ يَعدِلُ إذا لَمْ يَعدِلِ اللهُ<sup>(٧٦)</sup> ورسوله؟! رَحِمَ اللهُ موسى، قد أُوذِيَ بأكثر من هذا فصَبَرَ»<sup>(٧٧)</sup>.

وأخرج الإمام أحمد من حديث عُمَر، عن الأعمش عن شقيق سَلْمَانَ بن ربيعة، بسند صحيح، قال: سَمِعْتُ عُمَرَ يقول: قَسَمَ رسول الله قِسْمَةً فقلتُ: يا رسول الله، لَغَيْرِ هؤلاء أَحَقُّ مِنْهُمْ أَهْلُ الصَّفَةِ، قال: فقال رسول الله: «إِنَّكُمْ تُخْبِرُونِي أَنْكُمْ تَسْأَلُونِي بِالْفُحْشِ... الحديث»<sup>(٧٨)</sup>.

### غزوة الطائف

عفو النَّبيِّ عن مالك بن عوف بعد إسلامه:

كان مالك بن عوف مُثير حَرْبٍ حُنَيْنٍ فِي الطَّائِفِ حينما أسْلَمَ قَوْمُهُ، فقرر رسول الله، وعن طريق وفد بني سَعْدٍ، بترغيبه بالإسلام، وعزله عن حليفه ثقيف. ولهذا سألهم عن مالك ما فَعَلَ؟ فقالوا: يا رسول الله، هو بالطائف مع ثقيف. فقال ﷺ: «أخبروا مالِكاً أَنَّهُ إِنْ أَتَانِي مُسْلِماً رَدَدْتُ عَلَيْهِ أَهْلَهُ وَمَالَهُ، وَأَعْطَيْتُهُ مِائَةَ مِنَ الْإِبِلِ». فبلغ وفد هوازن مالِكاً كلام رسول الله ﷺ وأمانه المشروط، فقرر مالك - الذي كان يرى بآم عَيْنَيْهِ تَعَاظُمَ أَمْرِ الْإِسْلَامِ واشتداد أزره، كما رأى رَحْمَةَ النَّبِيِّ وَلُطْفَهُ - أَنْ يَخْرُجَ مِنَ الطَّائِفِ وَيَلْتَحِقَ بِالْمُسْلِمِينَ، وَلَكِنَّهُ كَانَ يَخْشَى أَنْ تَعْرِفَ «ثَقِيفٌ» بَنِيته فتحسبه في الحصن، ولهذا عَمَدَ إِلَى خَطَةِ خَاصَةِ الْفِرَارِ، فَقَدْ أَمَرَ بِإِعْدَادِ رَاحِلَتِهِ، فَهَيَّئَتْ لَهُ، وَأَمَرَ بِقَرَسٍ لَهُ فَأَتَى بِهِ إِلَى الطَّائِفِ، فَرَكِبَ قَرَسَهُ، وَرَكَّضَهُ حَتَّى أَتَى رَاحِلَتَهُ حِينَئِذٍ أَمَرَ بِهَا أَنْ تُجْبَسَ، فَرَكِبَهَا، وَلَحِقَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَذْرَكَهَا بِالْجَعْرَانَةِ أَوْ بِمَكَّةَ، فَرَدَّ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَهْلَهُ وَمَالَهُ، وَأَعْطَاهُ مِائَةَ مِنَ الْإِبِلِ كَمَا وَعَدَ مِنْ قَبْلُ، وَأَسْلَمَ فَحَسُنَ إِسْلَامُهُ، ثُمَّ اسْتَعْمَلَهُ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى مَنْ أَسْلَمَ مِنْ قَوْمِهِ وَقِبَائِلِ «ثِمَالَةَ» و«سَلَمَةَ» و«فَهْمَ».

وقد أَشَدَّ (مالك بن عَوْف) آيَاتاً عندما أَسْلَمَ يَصِفُ فيها أَخْلَاقَ النَّبِيِّ  
الكَرِيمَةِ ﷺ وَيَمْدَحُهُ أَجْمَلَ مَدِيحٍ إِذْ يَقُولُ:

مَا إِنْ رَأَيْتُ وَلَا سَمِعْتُ بِمِثْلِهِ      فِي النَّاسِ كُلِّهِمْ بِمِثْلِ مُحَمَّدٍ  
أَوْفَى وَأَعْطَى لِلْجَزِيلِ إِذَا اجْتَدِي      وَمَتَى تَشَأْ تُخْرِجَكَ عَمَّا فِي عَدِي  
وَإِذَا الْكَتِيبَةُ عَرَّدَتْ أَنْيَابَهَا      بِالسَّمْهَرِيِّ وَضَرْبِ كُلِّ مُهَنَّدٍ  
فَكَأَنَّهُ لَيْثٌ عَلَى أَشْبَالِهِ      وَسَطَ الْمَبَاءَةِ خَادِرٌ فِي مَرْصِدٍ  
وَصَارَ يُقَاتِلُ بِتِلْكَ الْقَبَائِلِ ثَقِيفًا، لَا يُخْرِجُ هُكْمَ سَرْحٍ إِلَّا أَغَارَ عَلَيْهِ، حَتَّى  
ضَيَّقَ عَلَيْهِمْ لِمَا حَصَلَ عَلَيْهِ مِنْ مَكَانَةٍ وَعِزَّةٍ فِي الْإِسْلَامِ، وَيَعُدُّ أَنْ أَدْرَكَ قُبْحَ  
مَوْقِفِ «ثَقِيف»<sup>(٧٩)</sup>.

#### غزوة تبوك

المنافقون يخططون لاغتيال النبي:

أقام رسول الله ﷺ مدة بضع عشرة يوماً في تبوك<sup>(٨٠)</sup>، وبعد أن بعث خالداً  
إلى «دومة الجندل» توجّه بالمسلمين إلى المدينة. ولدى العودة، تأمر اثنا عشرة  
منافقاً - ثمانية منهم من قُرَيْشٍ والباقي من أهل المدينة - لاغتيال النبي ﷺ في  
عقبة، بين المدينة والشَّام، لِيَطْرَحُوهُ فِي وَادٍ كَانَ هُنَاكَ، وعندما وَصَلَ الْجَيْشُ  
الْإِسْلَامِيَّ إِلَى بَدَايَةِ تِلْكَ الْمَنْطِقَةِ «العقبة»، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ شَاءَ مِنْكُمْ  
أَنْ يَأْخُذَ بَطْنَ الْوَادِي فَإِنَّهُ أَوْسَعُ لَكُمْ».

فَأَخَذَ النَّاسُ بَطْنَ الْوَادِي، وَلَكِنَّهُ ﷺ أَخَذَ طَرِيقَ الْعُقْبَةِ، فِيمَا يَسُوقُ «حُدَيْفَةَ  
بْنِ الْيَمَانِ» نَاقَتَهُ، وَيَقُودُهَا «عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ»، فَبَيْنَمَا هُمَا يَسِيرُونَ، إِذْ التَفَتَ ﷺ  
خَلْفَهُ، فَرَأَى فِي ضَوْءِ لَيْلَةٍ مُقَمَّرَةٍ فُرْسَانًا مَلْتَمِينَ لِحِقْوَاهُ مِنْ وَرَائِهِ، لِيَنْفِرُوا بِهِ  
نَاقَتَهُ، وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ، فَغَضِبَ ﷺ وَصَاحَ بِهِمْ، وَأَمَرَ حُدَيْفَةَ أَنْ يَضْرِبَ وَجْهَهُ  
رَوَاحِلَهُمْ. فَارْتَعَبُوا لَصِيَاحِهِ ﷺ ارْتِعَابًا شَدِيدًا، وَعَرَفُوا أَنَّهُ ﷺ عَلِمَ بِمَكْرِهُمْ

ومؤامراتهم، فأشروعوا تاركين العَقْبَةَ حتَّى خالطوا النَّاسَ.

يقولُ حُذَيْفَةُ: فَعَرَفْتُهُمْ بِرِوَاحِلِهِمْ، وَذَكَرْتُهُمْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَا تَبْعَثُ إِلَيْهِمْ لِيَقْتُلَهُمْ؟ فَجَابَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي لَحْنٍ مَلُوءٍ الْخَنَانَ وَالْعَاطِفَةَ: «إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أُغْرِضَ عَنْهُمْ، وَأَكْرَهُ أَنْ يَقُولَ النَّاسُ: إِنَّهُ دَعَا أَنَا سَاءَ مِنْ قَوْمِهِ وَأَصْحَابِهِ إِلَى دِينِهِ، فَاسْتَجَابُوا لَهُ، فَقَاتَلَ بَيْنَهُمْ حَتَّى ظَهَرَ عَلَى عَدُوِّهِ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْهِمْ فَقَتَلَهُمْ، وَلَكِنْ دَعَيْتُهُمْ يَا حُذَيْفَةُ، فَإِنَّ اللَّهَ هُمْ بِالْمِرْصَادِ»<sup>(٨١)</sup>.

وقد أنزل الله تعالى<sup>(٨٢)</sup> على إثر هذه الحادثة قوله: ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِإِلَهِهِمْ وَإِيَّاهُ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾<sup>(٨٣)</sup>.

### وأخيراً..

إنَّ هذا الرَّسُولَ الْعَظِيمَ الَّذِي يَنْعِجُزُ الْفَكْرُ عَنْ إِدْرَاكِ عَظَمَتِهِ، وَيَقِفُ الْقَلَمُ عاجزاً عن تَسْطِيرِ فضائله ومآثره، نعم، إِنَّهُ الْإِنْسَانُ الْكَامِلُ بِمَا لِلْكَلِمَةِ مِنْ معنًى، فهو صاحبُ المَقَامِ الْمَحْمُودِ وَالْحَوْضِ الْمُزْرُودِ، صَاحِبُ مَقَامِ قَابِ قَوْسَيْنِ. قال تعالى: ﴿كَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾<sup>(٨٤)</sup>.

فهذا المَقَامُ لم يَبْلُغْهُ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ وَلَا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، لَا قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ، فهو الَّذِي لَا يُدَانِيهِ أَحَدٌ مِمَّا كَانَ ذَلِكَ الْبَشَرُ.

\* \* \*

### الهوامش:

(١) المجلسي، المولى محمد باقر، بحار الأنوار ١٨: ٢٠٢، ط مؤسسة الوفاء، بيروت، الطبعة الثالثة،

١٩٨٣م.

(٢) المجلسي، المولى محمد باقر، بحار الأنوار ١٨: ١٩٢.



(٣) انظر مثلاً: الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك ٢: ١٥١، ط مؤسسة الأعلمي، بيروت.

(٤) الحجر: ٩٤.

(٥) فصلت: ٣٠.

(٦) النحل: ١٢٥.

(٧) المجلي، المولى محمد باقر، بحار الأنوار ٦٨: ٣٨٢.

(٨) الإسراء: ٥٣.

(٩) البقرة: ٨٣.

(١٠) آل عمران: ١٥٩.

(١١) آل عمران: ١٥٩.

(١٢) الميرزا التوري، مستدرك الوسائل ٨: ٤٥١، ط مؤسسة أهل البيت، قم، الطبعة الثانية، ١٩٨٨م.

(١٣) الميرزا التوري، مستدرك الوسائل ٨: ٤٥١ - ٤٥٢.

(١٤) الميرزا التوري، مستدرك الوسائل ٨: ٤٥٢.

(١٥) الميرزا التوري، مستدرك الوسائل ٨: ٤٥٢.

(١٦) فصلت: ٣٤.

(١٧) الأحقاف: ٣٥.

(١٨) يونس: ١٠٩.

(١٩) النحل: ١٢٧.

(٢٠) الإنسان: ٢٤.

(٢١) الكهف: ٢٨.

(٢٢) القلم: ٤٨.

(٢٣) الفتح: ١٣.

(٢٤) النساء: ٣٧.

(٢٥) النساء: ١٥١.

(٢٦) الحج: ١٤.

(٢٧) القمر: ٥٤، ٥٥.

(٢٨) ابن كثير، السيرة النبوية ١: ٤٩٦، ط دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٦م.

(٢٩) العيني، عمدة القاري في شرح صحيح البخاري ١: ١٩٧، و ١٢: ٢٩، ط دار إحياء التراث العربي، بيروت؛ والمتقي الهندي، كتر العمال ١٣: ٥٢٨، ح ٣٧٣٦٦، (فإن مصيركم إلى الجنة)، ط مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٩م؛ والمهيتمي، مجمع الزوائد ٩: ٢٩٣، ط دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٨م.

(٣٠) انظر: الحميري، ابن هشام، السيرة النبوية ٢: ٦٤، نشر مطبعة المدني، القاهرة، ١٩٦٣م.

(٣١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ ٢: ١٢٨، ط دار صادر ودار بيروت، بيروت، ١٩٦٦م؛ والطبري، تاريخ الطبري ٢: ١٥١، ط مؤسسة الأعلمي، بيروت؛ والحميري، ابن هشام، السيرة النبوية ٢: ٤٥٨-٤٥٩، نشر مطبعة المدني، القاهرة، ١٩٦٣م؛ والحلي، السيرة الحلبية ٢: ٤١٣، ط دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٠هـ؛ والمعتزلي، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة ١٤: ١٨٣، ط مؤسسة اسماعيليان، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم؛ والمتقي الهندي، كتر العمال ١٠: ٤٠٩، ح ٢٩٩٨٦، و ١٠: ٤١٨، ح ٣٠٠٠١، ط مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٩م.

(٣٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ ٢: ١٢٨-١٢٩؛ المدني، السيد علي خان، الدرجات الرفيعة في طبقات الشيعة: ٨٠، ط مكتبة بصري، قم المقدسة، ١٣٩٧هـ؛ والطبري، تاريخ الطبري ٢: ١٥١؛ والحميري، ابن هشام، السيرة النبوية ٢: ٤٥٨-٤٥٩؛ والحلي، السيرة الحلبية ٢: ٤١٣؛ والمعتزلي، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة ١٤: ١٨٣.

(٣٣) المدني، السيد علي خان، الدرجات الرفيعة في طبقات الشيعة: ٨٢، ط مكتبة بصري، قم المقدسة، ١٣٩٧هـ؛ النيسابوري، أبو الحسين مسلم بن الحجاج ابن مسلم القشيري، الجامع الصحيح (صحيح مسلم) ٥: ١٥٧، ط دار الجليل، بيروت؛ والمتقي الهندي، كتر العمال ١٠: ٣٩٢-٣٩٣، ح ٢٩٩٣٩، ط مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٩م.

(٣٤) ابن الأثير، الكامل في التاريخ ٢: ١٢٩، ط دار صادر ودار بيروت، بيروت، ١٩٦٦م؛ والطبري، الإمام أبو جعفر محمد بن جرير، تاريخ الطبري ٢: ١٥١؛ والحميري، ابن هشام، السيرة النبوية ٢: ٤٥٩؛ والحلي، السيرة الحلبية ٢: ٤١٤؛ والمعتزلي، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة ١٤: ١٨٣؛ وابن كثير، البداية والنهاية ٣: ٣٤٨، ط دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٨م.

(٣٥) ابن الأثير، الكامل في التاريخ ٢: ١٢٨، ط دار صادر ودار بيروت، بيروت، ١٩٦٦م؛ والمدني، السيد علي خان، الدرجات الرفيعة في طبقات الشيعة: ٨٠؛ والطبرسي، أمين الإسلام، أبو علي الفضل بن الحسن، تفسير مجمع البيان ٤: ٤٩٤، ط مؤسسة الأعلمي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٥م؛ والمعتزلي، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة ١٤: ١٨٢؛ والمتقي الهندي، كتر العمال

- ١٠: ٤١٩، ح ٣٠٠٦، ط مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٩ م.
- (٣٦) انظر: شرف الدين، السيد عبد الحسين، الفصول المهمة في تأليف الأئمة: ١١٤، الطبعة الأولى، نشر الإعلام الخارجي لمؤسسة البعثة.
- (٣٧) انظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ ٢: ١٣١، ط دار صادر ودار بيروت، بيروت، ١٩٦٦ م.
- (٣٨) الحميري، ابن هشام، السيرة النبوية: ٢: ٤٧٣، نشر مطبعة المدني، القاهرة، ١٩٦٣ م؛ وابن كثير، البداية والنهاية ٣: ٣٧٤، ط دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٨ م.
- (٣٩) الحلبي، السيرة الحلبية ٢: ٤٥١، ط دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٠ هـ.
- (٤٠) النجم: ٣، ٤.
- (٤١) ابن كثير، البداية والنهاية ٤: ٤، ط دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٨ م.
- (٤٢) الحشر: ٢.
- (٤٣) وإد بطريق فيد إلى المدينة. السهمودي، وفاء الوفاء ٢: ٢٤٩.
- (٤٤) المجلسي، المولى محمد باقر، بحار الأنوار ١٧: ٣٧، ط مؤسسة الوفاء، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٨٣ م.
- (٤٥) نهج البلاغة ٤: ٦١، ط دار الذخائر، قم، الطبعة الأولى، ١٣٧٠ هـ بشرح الإمام محمد عبده.
- (٤٦) انظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ ٢: ٢٥٠ - ٢٥١، ط دار صادر ودار بيروت، بيروت، ١٩٦٦ م.
- (٤٧) النحل: ١٢٦ و ١٢٧.
- (٤٨) المجلسي، المولى محمد باقر، بحار الأنوار ٢٠: ٦٢ - ٦٣، ط مؤسسة الوفاء، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٨٣ م.
- (٤٩) المعتزلي، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة ١٥: ١٧، ط مؤسسة اسماعيليان، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.
- (٥٠) الحميري، ابن هشام، السيرة النبوية ٣: ٦١١، نشر مطبعة المدني، القاهرة، ١٩٦٣ م.
- (٥١) الأنفال: ٢٧.
- (٥٢) الحميري، ابن هشام، السيرة النبوية ٣: ٧١٧ - ٧١٨، نشر مطبعة المدني، القاهرة، ١٩٦٣ م.
- (٥٣) ابن كثير، البداية والنهاية ٣: ٣٧٤، ط دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٨ م.
- (٥٤) انظر: الصنعاني، الحافظ أبو بكر عبد الرزاق بن همام، المصنف ٩: ٤٦٩، منشورات المجلس العلمي؛ وحياة الصحابة ١: ٤٨٤، عن البخاري ومسلم وأحمد والبيهقي؛ وابن كثير، البداية

- والنهاية ٥: ٤٢ - ٤٣، ط دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٨م؛ والبخاري، صحيح البخاري ٣: ١٣٢، ط سنة ١٣٠٩.
- (٥٥) الطبري، الإمام أبو جعفر محمد بن جرير، تاريخ الطبري ٢: ٢٧٤، ط مؤسسة الأعلمي، بيروت.
- (٥٦) الكوفي، ابن أبي شيبة، المصنف ٨: ٥١١، ط دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٩م.
- (٥٧) الطبري، الإمام أبو جعفر محمد بن جرير، تاريخ الطبري ٢: ٣٠٢، ط مؤسسة الأعلمي، بيروت.
- (٥٨) المجلسي، المولى محمد باقر، بحار الأنوار ٢١: ٧، ط مؤسسة الوفاء، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٨٣م؛ والحفيري، ابن هشام، السيرة النبوية ٣: ٨٠١، نشر مطبعة المدني، القاهرة، ١٩٦٣م.
- (٥٩) الحفيري، ابن هشام، السيرة النبوية ٣: ٨١٥، نشر مطبعة المدني، القاهرة، ١٩٦٣م.
- (٦٠) الأنبياء: ١٠٧.
- (٦١) المجلسي، المولى محمد باقر، بحار الأنوار ٢١: ٦٠، ط مؤسسة الوفاء، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٨٣م.
- (٦٢) المجلسي، المولى محمد باقر، بحار الأنوار ٢١: ١٢٠ - ١٢١، ط مؤسسة الوفاء، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٨٣م.
- (٦٣) المجلسي، المولى محمد باقر، بحار الأنوار ٢١: ١٢٩، ط مؤسسة الوفاء، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٨٣م.
- (٦٤) الحجرات: ١٣.
- (٦٥) الحفيري، ابن هشام، السيرة النبوية ٤: ٨٧٠، نشر مطبعة المدني، القاهرة، ١٩٦٣م.
- (٦٦) من الآية ٩٢ من سورة يوسف.
- (٦٧) المعتزلي، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة ١٧: ٢٨١، ط مؤسسة اسماعيليان، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.
- (٦٨) المعتزلي، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة ١٧: ٢٧٢، ط مؤسسة اسماعيليان، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.
- (٦٩) المجلسي، المولى محمد باقر، بحار الأنوار ٢١: ١٣٢، ط مؤسسة الوفاء، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٨٣م.
- (٧٠) المجلسي، المولى محمد باقر، بحار الأنوار ٨: ٣٥٩، ط مؤسسة الوفاء، بيروت، الطبعة الثالثة،

١٩٨٣م.

(٧١) ابن عبد البر، الاستيعاب ٢: ٧٢٠، ط دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.

(٧٢) المقرئ، تقي الدين أحمد بن علي، إمتاع الأشباع ٢: ١٥-١٦.

(٧٣) المقرئ، تقي الدين أحمد بن علي، إمتاع الأشباع ٢: ١٥، ط دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٩م.

(٧٤) التوبة: ٥٨.

(٧٥) البخاري، الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري ٧: ٩٦، كتاب الأدب، باب الصبر على الأذى، ط دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨١م؛ والتيسابوري، الإمام أبو الحسين مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم ٣: ١٠٩، كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم، ط دار الفكر، بيروت.

(٧٦) قال السيد شرف الدين: «قوله: إذا لم يندل الله ورسوله نص بآله يأي هو وأمي كان مأموراً من الله تعالى بتلك القسمة التي أنكرها المنافقون الجاهلون بحكمته البالغة، «إِنْ مَرَّ لًا وَخِيُوحِي»». انظر: الفصول المهمة في تأليف الأمة: ١٢٣، (في الهامش)، ط مؤسسة البعثة، الطبعة الأولى.

(٧٧) البخاري، الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري ٥: ١٠٦، كتاب المغازي، باب غزوة الطائف، ط دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨١م، وهناك عدة أحاديث بهذا المعنى. والتيسابوري، الإمام أبو الحسين مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم ٣: ١٠٩، كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم، ط دار الفكر، بيروت.

(٧٨) الإمام أحمد بن حنبل، مسند أحمد ١: ٢٠، ط دار صادر، بيروت، لبنان.

(٧٩) الحميري، ابن هشام، السيرة النبوية ٤: ٩٢٧-٩٢٨، نشر مطبعة المدني، القاهرة، ١٩٦٣م، وعردت: أي: عوجت.

(٨٠) الحميري، ابن هشام، السيرة النبوية ٤: ٩٥٣، فيما ذهب ابن سعد إلى أنه ﷺ مكث بتبوك عشرين يوماً، انظر: محمد بن سعد، الطبقات الكبرى ٢: ١٦٨، ط دار صادر، بيروت.

(٨١) المدني، السيد علي خان، الدرجات الرفيعة في طبقات الشيعة: ٢٩٨؛ والمجلسي، المولى محمد باقر، بحار الأنوار ٢١: ٢٤٧؛ والمقرئ، تقي الدين أحمد بن علي، إمتاع الأشباع ٢: ٧٤-٧٥، ط دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٩م.

(٨٢) الطبرسي، أمين الإسلام، أبو علي الفضل بن الحسن، تفسير مجمع البيان ٥: ٨١.

(٨٣) التوبة: ٦٥.

(٨٤) النجم: ٩.

## أصحاب العقائد الدينية

في مجتمعات المسلمين

□ د. أحمد عبد الرحيم السايح (\*)

الإنسان في التصور الإسلامي، قمة الكائنات الحيّة، التي تعيش على وجه البسيطة، وأفضلها وأكرمها؛ لما أودعه الله فيه من مزايا، وميّزه من صفات. والإسلام يريد أن يعيش الإنسان في جوّ الاطمئنان، والاستمتاع بالحياة الإنسانية استمتاعاً يرفع الإنسانية فوق مستوى الاحتكاك والصراع والشك. وإنّ المؤمن في نظر الإسلام هو المحسن، والمحسن هو صاحب الوجدان الرفيع، وهو صاحب الإنسانية في سلوكه مع نفسه، ومع غيره. قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَّوْا لَهَا وَجْهًا وَبَيْنَ مِثْمَارٍ جَالًا كَثِيرًا وَنَسَاءً﴾ [النساء: ١]، فالله سبحانه وتعالى أوجد الإنسانية من نفس واحدة، وأنشأ من هذه النفس زوجها، ومنها نشر في الوجود رجالاً كثيراً ونساءً، فالإنسانية تنتهي إلى تلك النفس الواحد<sup>(١)</sup>.

وقد أوضح هذا بقوله في آية أخرى: ﴿وَمِنْ عَائِيَتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَحَصَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةٌ وَرَحْمَةٌ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾

(\*) أستاذ العقيدة والفلسفة في جامعة الأزهر وقطر وأم القرى.

[الرؤم: ٢١].

وقوله تعالى في الآية السابقة: ﴿وَبَيْنَهُمَا﴾، أي: نشر من تلك النفس وزوجها المخلوقة منها، بطريق التوالد والتناسل، رجالاً كثيراً ونساء.. وترك التصريح بها للاكتفاء بالوصف المذكور.

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَوْفٍ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: ٩٨]، فالله هو الذي أنشأ الإنسانية من نفس واحدة، وهي الإنسان الأول الذي تسلسل منه سائر الناس، بالتوالد.. وهو آدم عليه السلام. وفي إنشاء جميع الناس من نفس واحدة آيات بينات، على قدرة الله وعلمه، وحكمته، ووحدانيته.

وفي التذكير بذلك إيماء إلى ما يجب من شكر نعمته، وإرشاد إلى ما يجب من التعاون والتعارف بين البشر. وأن يكون هذا التفريق إلى شعوب وقبائل مدعاة إلى العمل الجاد، والتعاون الصادق، لا إلى التعادي والتقاتل، وبث روح العداوة والبغضاء بين الناس<sup>(١)</sup>.

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣]، فالله خلق الناس متساوين من أصل واحد، هو آدم وحواء، وصيّرهم بالتكاثر جموعاً عظيمة، وقبائل متعددة؛ ليتّم التعاون والتعارف، وإن تباعدت ديارهم وأوطانهم، وتباينت عاداتهم، واختلفت لغاتهم وأجناسهم.

وقال الله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْلَفَ الْمَسَاءَ نَوْمًا وَالنَّجْمَ إِذَا هَلَكَ﴾ [الرؤم: ٢٢].

وللناس مع بعضهم روابط وثيقة، وصلات متينة، ومعاملات لا غنى لهم عنها. وليس بميسور لأيّ إنسان كائناً ما كان أن يعيش منعزلاً عن الناس والمجتمعات. والطبيعة البشرية تحتم على الإنسان أن يندمج بالناس، ويختلط

بهم، ويستعين بذوي الخبرة منهم، وأن يسترشد بنصح الناصحين، وتوجيه الناهين.

وإذا كان من الضرورة الإنسانية في الإسلام أن لا حياة للأجسام إلا بالأرواح، فكذلك الأعمال على اختلاف أنواعها لا حياة لها إلا بالثقة المتبادلة التي يجتنى من ورائها الاطمئنان والنجاح. فبالثقة تنتظم الأمور، وتنجز الشؤون، وتستقيم الأعمال، وتؤدي المصالح على أحسن حال. والثقة لا تتحقق إلا إذا أدى كل إنسان ما عهده إليه، وما ألزم به نفسه.

فبالثقة وحدها يسعد الناس، ويصلون إلى الفوز والفلاح، والتعاون المثمر، وإذا انعدمت الثقة ذهب الاطمئنان، وأصبح كل إنسان يخاف الآخر، ولا يطمئن إليه في أمر من الأمور، ولن تكون الثقة إلا عن صديق ووفاء. فليس من الإيمان أن يؤتمن الإنسان على مالٍ فيجعه، أو على عرضٍ فيهتكه، أو على سرٍّ فيذيعه، أو على عملٍ فيهمله، أو على نصرة صديق فيخذله<sup>(٣)</sup>.

وقد لا يخفى على باحث أن انبعث رسول الله ﷺ كان منعطفاً تاريخياً في حياة الناس جميعاً، وتحولاً حضارياً متميزاً في نهج حياتهم وتعاملهم. تحول الخطاب فيه من قومية الأديان، ومحدودية مقاصدها، إلى عالمية الإسلام، وشمولية دعوته، وتكامل مقاصده، ومن عزلة المجتمعات البشرية وتضادها وتصارعها إلى وحدة الأسرة البشرية، وتعاون مجتمعاتها؛ حيث سمع الناس لأول مرة في تاريخهم الإنساني فكرة المجتمع الإنساني الواحد.

كما سمع الناس - أيضاً - لأول مرة فكرة التعايش السلمي بينهم من غير تمايز. وكان النبي ﷺ يعمل على نشر الإخاء الإنساني الذي يتجاوز المسلمين إلى غير المسلمين.

روى الطبراني، أن نبي الله ﷺ خطب الناس بمنى في وسط أيام التشريق، وهو على بعير، فقال:



«أَيُّهَا النَّاسُ، أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا لَأَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ، وَلَا لَأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، إِلَّا بِالْتَّقْوَى. أَلَا هَلْ بَلَغْتُ؟ قَالُوا: نَعَمْ.. قَالَ: فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدَ الْغَائِبَ»<sup>(٤)</sup>.

وعن أبي موسى الأشعري، قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى أَحْسَابِكُمْ، وَلَا إِلَى أَنْسَابِكُمْ، وَلَا إِلَى أَجْسَامِكُمْ، وَلَا إِلَى أَمْوَالِكُمْ.. وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ، فَمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ صَالِحٌ تَحَنَّنَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَإِنَّمَا أَنْتُمْ بَنُو آدَمَ، وَأَحْبَبُكُمْ إِلَيَّ اتِّقَاكُمْ»<sup>(٥)</sup>.

فاهتمام الإسلام بالنَّاس فيه ترسيخ معنى الإنسانية العام في نفس المسلم الَّذِي يقرأ القرآن، ويستمع إليه، ويعمل به. كما أَنَّ هَذَا كُلَّهُ يَبَيِّنُ وَحْدَةَ الْجِنْسِ الْبَشَرِيِّ.

والقرآن الكريم لا يخاطب العرب فقط، ولا قومية معينة، ولا شعباً معيناً، بل يخاطب الإنسان بوجه عام.

فالإسلام الخنيف جاء ليقم بين البشر جميعاً رابطة الإنسانية القائمة على ارتباط البشر بالله الخالق عَزَّ وَجَلَّ.

ومن هنا ندرك: أَنَّ الإسلام يلائم الفطرة التي فطر الله النَّاس عليها، فهو يؤكد في وضوح أَنَّ الدِّينَ الإسلامي قد نظر نظرة فاحصة دقيقة للإنسان، في ذاته، وتركيب كيانه النَّفْسِي، والخَلْقِي، والاجتماعي.

فالحياة في الإسلام.. تخضع لنظام دقيق، لا يسمح لجانب منها أن ينمو على حساب جانب آخر، وإِنَّمَا تتوازن جوانب الحياة كُلُّهَا على نسقٍ فريد، جاء به الإسلام. وَأَمَّا الْأَحْيَاءُ مِنْ بَنِي الْبَشَرِ، فَإِنَّ الْإِسْلَامَ نظر إليهم نظرة العارف بأسرارهم، وما يصلحهم.

والشَّخصية الإنسانية في الإسلام حقيقة حيَّة، والأسرة الاجتماعية في الإسلام حقيقة حيَّة. والإسلام لا يهدم شيئاً من كيان الاجتماع الَّذِي استفاد

بنو الإنسان من أطوار حياتهم الاجتماعية في الحقب الطوال؛ لأنَّ المفهوم من سير الهداية الإلهية، كما يسردها القرآن الكريم: أنَّ حياة النوع الإنساني.. تاريخ متَّصل، يُتمُّ بعضه بعضاً، وتنتهي إلى التعارف بين الشعوب والقبائل، في أخوة عامة، لا فضل فيها لقوم على غيرهم إلا بالعمل الصالح.

ولهذا يحرص الإسلام على كيان الاجتماع في الشخصية الفردية، وفي الأسرة، وفي الإيوان بوحدة النوع.

وأنت تجد: أنَّ القرآن الكريم يخصُّ من هذا الكون مخلوقاً هو الإنسان، فيتحدَّث عنه مرَّاتٍ كثيرة، بل يخصُّه بالمخاطبة؛ لأنَّه هو المقصود، ولكنه في الوقت نفسه يُشعره بموقفه من هذا الكون.

فالإنسان أولاً: نوعٌ من أنواعٍ أخرى في هذا الكون، يشترك معها في أمور، ثم يتميز عنها، فهو مخلوقٌ من ترابٍ في الأصل، قال تعالى: ﴿إِنَّمَثَلُ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ تُرَابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩].

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ [النور: ٢٠].

والإنسان ثانياً: نوعٌ من أنواع الحيوانات يدخل في تصنيفها، ويشترك معها في أمور، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّا وَفَّيْتُمْ مِنْ يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنٍ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَفِيرٌ﴾ [النور: ٤٥].

والإنسان ثالثاً: نوعٌ متميز عن الحيوان كما يبدو في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَبَارَكُ اللَّهُ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمن: ١٤]، وذلك من جهة خلقه وتكوينه الجسمي.

وتميّزه كذلك من جهة العقل والعلم النامين بسبب الخواس، كما تشير إلى ذلك الآية: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ

وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفِيدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ [النحل: ٧٨].

وكما تشير الآية: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥٠﴾﴾ [العلق: ٥٠]، وهو علمٌ يستطيع أن يعبرَ عن: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴿٢﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿١﴾﴾ [الرحمن: ٣، ٤]، بل هو علمٌ قابلٌ دائماً للنمو والزيادة: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً ﴿١١٤﴾﴾ [طه: ١١٤]، ﴿سَتْرِيهِمْ مَا يَنْتَفَى فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ [نضلت: ٥٣].

والإنسان رابعاً: يتميز بجانبٍ روحيٍّ، أشارت إليه آياتٌ كثيرة، كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [الحجر: ٢٩]، وهو الجانب الذي رفع مرتبة الإنسان، وجعله في مقام من التكريم، فأسجد الله له الملائكة: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَنَاءِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴿٧٠﴾﴾ [الإسراء: ٧٠].

والإنسان في عقيدة القرآن، هو الخليفة المسؤول بين جميع ما خلق الله، يدين بعقله فيما رأى وسمع، ويدين بوجوده فيما طواه الغيب، مما لا تدركه الأبصار والأسماع<sup>(١)</sup>.

والإنسانية من أسلافها إلى أعقابها أسرةٌ واحدة، لها نسبٌ واحد، وإله واحد، أفضلها من عمل حسناً، وأتقى سيئاً.

والإنسان مسؤول عن عمله، ولا يؤخذ فردٌ بوزر فرد، ولا أمةٌ بوزر أمة. قال تعالى: ﴿كُلُّ أُنْثَىٰ بِمَا كَسَبَتْ رَهينٌ ﴿٦١﴾﴾ [الطور: ٢١]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُزِرُّ وَازِرَةً وَزِرَ أُخْرَىٰ ﴿١٦٤﴾﴾ [الأنعام: ١٦٤]، وقال تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُنتَلَوْنَ عَنْهَا كَانُوا يَمْشُونَ ﴿١٣٤﴾﴾ [البقرة: ١٣٤].

أما مناط المسؤولية في القرآن، فهو جامعٌ لكلِّ ركنٍ من أركانها يتغلغل إليه فقه الباحثين عن حكمة التشريع الديني أو التشريع في الموضوع.

فالإسلام الحنيف.. ينظر إلى الإنسان نظرةً تضعه فوق مستوى الكائنات الحيّة جميعاً في هذا الكوكب الذي أقامه الله تعالى فيه؛ ليكون خليفةً فيه.

وكلمة النَّاسِ الدَّالة على الجنس البشري يتكرَّر استعمالها في آيات متعددة، وكثيرٌ منها ورد خطاباً للبشر عموماً، كقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْتَكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات: ١٣].

وكلمة النَّاسِ استعملت في القرآن الكريم بمعنى الجنس البشري عموماً، لا بمعنى المسلمين، أو العرب؛ بدليل قوله تعالى في الآيات التالية، مما لا يمكن حمله إلا على النَّاسِ عموماً:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ٢٤٣].

﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاؤُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

﴿قُلْ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِيَّي رُسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الاعراف: ١٥٨].

فالقرآن الكريم لا يخاطب قومية معينة، ولا شعباً معيناً، بل يخاطب الإنسان بوجه عام، ويتحدث إلى الأمم: ﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ﴾ [الرعد: ٣٠].

واستعمل القرآن كذلك كلمة البشر؛ للدلالة على الجنس الإنساني الواحد، وقد استعملت هذه الكلمة في أكثر من موضع، كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا﴾ [الحجر: ٢٨]، وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا﴾ [الفرقان: ٥٤]، وقوله: ﴿وَمَنْ مَّيَّنِيهِ أَنْ خَلَقْتُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ نَنْشَرُهُمْ﴾ [الرؤم: ٢٠].

والآية القرآنية: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْتُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات: ١٣]، تُشير بوضوح إلى أَنَّ البشرية تتألف من مجتمعات قبلية وشعوب وأقوام. وكلمة النَّاسِ هي تعبيرٌ عن الجنس العام الذي يشملهم جميعاً.

وأخيراً: فَإِنَّ الآية تشير إلى اتجاه تطوُّر البشرية، أسراً وقبائل وشعوباً، في اتجاه التَّعارُف، وهي المعرفة المتبادلة من جميع الأطراف. وهو الشرط الأساسي

لتحقيق التعاون الَّذِي أوصى به القرآن في قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ  
وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢].

إنَّ الإسلام جاء - كما يفهم من النصوص القرآنيَّة - ليقم بين البشر جميعاً  
رابطة الإنسانيَّة القائمة على ارتباط البشر جميعاً بالله الخالق جلَّ وعلا، فهم جميعاً  
عباد الله.

والرَّسول الَّذِي أمر بتبليغ الإسلام، خوطب في القرآن الكريم على هذا  
الأساس: ﴿قُلْ يَتَذَكَّرُهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾ [الأعراف: ١٥٨].

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبا: ٢٨].

﴿يَكُونُ لِلْمُتْلَمِّينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

إنَّ هذا الاتجاه الإنساني ظاهرٌ في تعاليم الإسلام، وتوجيهاته، والقرآن  
يُصرِّح بأنَّ الإنسان هو خليفة في الأرض.

والقرآن حين يتحدَّث عن الإنسان، فإنَّه يتحدَّث عن الإنسان حديثاً يملأ  
الصِّدر بدفء الأمل، وسعة الرَّجاء، ويفتح عليه صفحات مشرقة للوجود،  
تغري الإنسان بالوقوف عند كُلِّ موجود<sup>(٧)</sup>.

فأنت ترى: أنَّ النصوص القرآنيَّة تتحدَّث عن الإنسان، وتارة أخرى عن  
بني آدم، ومزات أخرى تتحدَّث عن النَّاس.

وهذا لا تخفى دلالته على أيِّ عقلٍ مدركٍ للغة الخطاب في القرآن الكريم  
التي تستخدم موازين للتعبير غاية في الدقة، فتبيِّن متى يكون الخطاب للإنسان  
والنَّاس عامة<sup>(٨)</sup>.

والإنسان هو المنطق في هذه الرابطة الإنسانيَّة؛ باعتباره مجموعة من القدرات  
والطَّاقات هي التي تُشكِّل ملامح بشريته، وفيه الإحساس بالوجود في ذاته،  
ومع الآخرين، وتمنحه إمكانيَّة العمل والإنتاج ووسائل الفاعليَّة والتأثير.

ولا شك أنَّ من بين تلك الطَّاقات - وربما من أهمها - ما هو كامنٌ في غريزة

الإنسان من حيث هو مخلوق ينتمي إلى أرض محدّدة، يتحرّك فيها بوعي منه أو لا وعي، ويحاول انطلاقاً منها أن يُحافظ على ذاته، وينمي هذه الذات.

وإذا كانت الطّبيعة الفطريّة تمكّن للإنسان في الأرض التي يعيش عليها بعيد أفقي؛ فإنّ العنصر الرّوحي يتدخّل ليرتفع بالإنسان عن طريق العقيدة والدين، ويعطيه بُعداً سماوياً يُتيح له التّوازن اللازم للحياة الإنسانيّة، بكُلّ ما تقتضي من قيم وأخلاقيّ فرديّة وجماعيّة، وما تتطلّب من سلوكٍ يحفظ علاقة الفرد بالكون وخالقه.

ومع الغريزة والرّوح يتدخّل العقل ليعمل في الوعي والإحساس والإرادة والفكر؛ فيوجّه، ويخطّط، ويُنفّذ، ويضبط حركة الإنسان.

وهذا ما يُعطي المواطنة مفهومها الصّحيح، أي: كما يجب أن تكون في ذهن المسلمين وغيرهم ممّن يعيشون في المجتمع الإسلامي.

ويتبلور المفهوم في الولاء لهذه الدّولة أو ذاك في المجتمعات الإسلاميّة بكُلّ ما تجسّده من أرضٍ وعقيدة وتاريخ وحضارة وثقافة وواقع ومصير، أي: بمجموعة من المبادئ والمقوّمات يؤمن بها الجميع ويتشرّبها في عقله وروحه ووجدانه، فتغدو المحرك الذي يحثّ على المقاومة والنضال، وعلى السّعي لتنمية المجتمع في خطّ التطوّر والتّقدّم. وهذه - لا شك - مواطنة شريفة ومسؤولة تستمدّ شرفها ومسؤوليّتها<sup>(١)</sup>.

والإنسان المسلم قد تعلّم من الإسلام أنّه لا يعيش وحده في هذه الحياة، وإنّما يعيش معه ناسٌ آخرون، وأمّ مختلفة المذاهب والعقائد.

والإنسان المتحضّر لا بدّ وأن يكون على اتّصالٍ بالأُمم والشّعوب - أيّاً كان هذا الاتّصال - ومن الصّوروري للإنسان المتحضّر أن يكون على ثقافةٍ بأديان الأُمم.

وقد فطن إلى هذا علماء الأُمّة الإسلاميّة؛ انطلاقاً من دعوة الإسلام التي

تدعو المسلمين إِلَى أَنْ يَتَعَرَّفُوا عَلَى النَّاسِ، وَيُقِيمُوا مَعَهُمْ أَوَاصِرَ الصَّدَاقَةِ،  
وَعُرَى الْمَحَبَّةِ، وَالتَّعَاوُنِ، وَتَبَادُلِ الْمَنَافِعِ، وَمَا يُفِيدُ الْإِنْسَانَ فِي الْأَرْضِ..  
وَمِنْ شَأْنِ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يُتَابِعُوا الْخَطَى فِيمَا كَانَ عَلَيْهِ السَّلَفُ الصَّالِحُ، فِي غَيْرِ  
تَعْصِبٍ جَاهِلِيٍّ، أَوْ شَكْلِيَّةٍ مَمْجُوجَةٍ.

وبهذا، يمضي المسلمون فِي الطَّرِيقِ الَّذِي وَضَحَتْ مَعَالِمُهُ، وَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ  
أَمْرِهِمْ.

وَلَقَدْ قَدَّمَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ الدَّرْسَ الْمُنْهَجِي الْمَوْضُوعِي الْأَوَّلَ فِي مَجَالِ الْعِلَاقَةِ  
بِالْأَدْيَانِ. وَلَقَدْ حَفَلَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ بِالْحَدِيثِ الْمَفْصَّلِ الْمُسْتَوْعِبِ عَنِ الْأَدْيَانِ،  
وَالْعَقَائِدِ، وَالْمَلَلِ وَالنَّحْلِ، وَالْمَذَاهِبِ الْمُخْتَلِفَةِ الْمُتَنَوِّعَةِ، وَعَرَضَ مَقَالَاتِهِمْ بِدَقَّةٍ  
وَاسْتِقْصَاءٍ<sup>(١٠)</sup>.

وَتَجَدَّ ذَلِكَ وَاضْطَحَّ فِي حَدِيثِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ عَنِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى؛ حَيْثُ  
فَصَّلَ الْقُرْآنُ مَقَالَاتِهِمْ، وَاعْتَقَادَاتِهِمْ، وَمَذَاهِبَهُمْ. وَلَمْ يَعْزِضْهَا مُتَعَجِّلًا فِي نَصٍّ أَوْ  
نَصِّينَ، وَإِنَّمَا جَاءَ فِيهَا بِفِيضٍ غَزِيرٍ زَاخِرٍ، يَتَنَاوَلُهَا مِنْ أَقْطَارِهَا، وَيَكْشِفُ عَنْ  
خَبَايِهَا وَأَبْعَادِهَا. وَعَلَى سَبِيلِ الْمَثَالِ، فَإِنَّ الْحَدِيثَ عَنِ بَنِي إِسْرَائِيلَ جَاءَ فِي  
الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مِنْ أَكْثَرِ الْمَسَائِلِ نَصُوصًا بَعْدَ الْعَقَائِدِ.. تَحَدَّثَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ فِي  
الْمَكِّيِّ مِنْهُ وَالْمَدَنِيِّ عَلَى السَّوَاءِ، وَفِي السَّبْعِ الطَّوَالِ وَمَا بَعْدَهَا مِنَ الْمَثَانِي وَالْمَثْنِ  
وَالْمَفْصَّلِ، وَتَنَاوَلَهُمُ بِالْآيَةِ الْمَفْرَدَةِ، وَبِالْجُمْلَةِ الْمُتَّصِلَةِ مِنَ الْآيَاتِ.

وَقَدْ تَحَدَّثَ الْقُرْآنُ عَنْ كَثِيرٍ مِنَ الْأَدْيَانِ سِمَاوِيَّةً كَانَتْ أَوْ وَضْعِيَّةً، فَكَمَا تَحَدَّثَ  
عَنِ الْيَهُودِ وَالْيَهُودِيَّةِ، وَالْمَسِيحِ وَالْمَسِيحِيَّةِ، تَحَدَّثَ كَذَلِكَ عَنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ  
وَالطَّاغُوتِ وَالْمَلَائِكَةِ، وَسَمَّاها الْقُرْآنُ أَدْيَانًا<sup>(١١)</sup>.

قَالَ تَعَالَى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكَافُرُونَ: ٦].

وَفِي مَجَالِ اعْتِرَافِ الْإِسْلَامِ بِالْأَدْيَانِ، يَقُولُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ  
هَادُوا وَالصَّابِغِينَ وَالنَّصَرَانِيَّ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ





الشَّرِيعَات، قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

وقال تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

فالآية الأولى، تعني وحدة الإيمان في أسسه..

والآية الثانية، تعني متغيرات الشريعة، وما يعود إلى الأعمال.

والإيمان هنا يعني العقيدة ممثلة بالأصول التي يقوم عليها الدين، ولن تجد هذه الأصول في الإسلام إلا مماثلة لتلك التي قامت عليها جميع الأديان السماوية التي كان عليها أنبياء ورسل بعثهم الله لهداية الناس، على اختلاف العصور، وتباعد الأزمنة<sup>(١٤)</sup>.

والأصول التي قامت عليها الأديان السماوية هي:

أولاً: الإيمان بالله تعالى رب العالمين، الذي لا إله إلا هو وحده المعبود لا شريك له، خالق كل ما في الوجود.

ثانياً: الإيمان بالغيب: اليوم الآخر، البعث، الجزاء، الجنة، النار، الثواب، العقاب، الملائكة.

ثالثاً: الإيمان بالنبیین والمرسلين، وتصديقهم، والأخذ بتعاليمهم، وإرشادهم، والعمل بما أنزل عليهم من وحي الله<sup>(١٥)</sup>.

هذه هي أصول الإيمان التي حملها كل نبي بعثه الله تعالى. وقد جمعت هذه الأصول آيات من القرآن الكريم. قال تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ۝ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَلَا يَلْفُظُونَ هُمُ يُوَفُّونَ ۝﴾ [البقرة: ٢-٤].

يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله، واليوم الآخر، وجنته، وناره، ولقائه. ويؤمنون بالحياة بعد الموت، والبعث<sup>(١٦)</sup>.

فالإسلام في جانبه العقيدي. أكد هذه الأسس تأكيداً واضحاً. ولكنه في

الجانب الذي يستتبع الشريعة - أي جانب الالتزام والعمل - كان الإسلام الفصل الأخير في تكامل التشريعات.

هذا الطابع الشمولي المتلقى في أسس العقيدة والتكامل التشريعي. هو الذي جعل من الإسلام: الصيغة الوحيدة الباقية المستمرة. ولعل هذا هو السر الذي جعل من الإسلام كلمة تختص بالدين الذي جاء به محمد عليه الصلاة والسلام<sup>(١٧)</sup>.

وإذا أخذنا كلمة الإسلام بمعناها القرآني، نجدها لا تدع مجالاً لهذا السؤال عن العلاقة، بين الإسلام وبين سائر الأديان السماوية. فالإسلام في لغة القرآن ليس اسماً لدين خاص. وإنما هو اسم للدين المشترك، الذي هتف به كل الأنبياء وانتسب إليه كل أتباع الأنبياء<sup>(١٨)</sup>.

فالدِّين منذ القدم هو الإسلام. وسمي الله المسلم مسلماً؛ لأنه اعتنق أسس هذه الديانة، ديانة الله، وسار على مضامينها من: إسلام الوجه لله، والانقياد له، والتوكل عليه، وتسليم الأمر للمدبر الأمر، ومصرف الكون.

من هذا يتضح: أن وصف الإسلام، ليس منصباً على كل من آمن بدعوة محمد ﷺ في عهد محمد أو من بعده فحسب. بل هو وصف ولقب أطلقه الله، من قبل على من آمن برسوله الذي بعث في زمنه، وبكل من وحد ربّه، وأسلم وجهه، وقلبه وأمره كله لله رب العالمين<sup>(١٩)</sup>.

والمسلم في عرف القرآن. هو كل من آمن برسوله الذي جاء إليه، وكل من وحد الله. والمستتبع لأي القرآن يجد أن كل شريعة قامت على توحيد الله. قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (٢٥) [الأنبياء: الآية: ٢٥].

وكل رسول أو نبي بعث. إنما دعا إلى الله، وإلى دين الله.. ودين الله واحد، حقيقة التوحيد، وجوهره الإيمان بالله. دون شريك أو نظير<sup>(٢٠)</sup>.

فكلمة الإسلام في إطار اللفظ. تعني في الأصل التسليم والخضوع. وفي مفهوم الدين، ومن خلال إطلاقها فيه، يراد منها: التسليم والخضوع لله سبحانه وتعالى وحده لا شريك له.

وبهذا المعنى البسيط، والتسليم والخضوع لأمر الله ومشيتته، أطلقت على كل من آمن بالله، وسلم لأمر الله، عن أي طريق، وباتباع أي رسول ونبي. فاتباع كل الأنبياء الذين بعثهم الله تعالى، وكل من يدين الله بأي دين من الأديان السماوية، هم مسلمون بهذا المعنى، ويصح إطلاق الإسلام عليهم.

وفي آيات القرآن الكريم كثير من الآيات التي تشير إلى ذلك؛ إذ أن القرآن الكريم اعتبر كل من آمن بالله، والتزم بطاعة أنبيائه مسلماً<sup>(١٦١)</sup>.

- يقول نوح لقومه: ﴿وَأْمُرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٧٢].

- وإبراهيم يقول: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً﴾ [البقرة: ١٢٨].

- وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [١٣٠] إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ [البقرة: ١٣٠-١٣٢].

- وأبناء يعقوب يُجيئون أباهم: ﴿نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَاللَّهُ عَابِدُكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًُا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣].

- وقال موسى: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَقَوْمِ إِن كُنتُمْ مَآمِنُمْ بِاللَّهِ فَقَلِّبُوهُنَّ أَوْ كُنتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤].

- وقال السحرة لفرعون: ﴿وَمَا لَنْفَعُكُمْ مِنَّا إِلَّا أَنْ تَأْمَنُوا بِنَاتِ رَئَسَا لَنَا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦].

- وقالت بلقيس ملكة اليمن: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ

سَلِّمْنَ لِلرَّبِّ الْعَلَمِينَ ﴿٤٤﴾ [النمل: ٤٤].

- وقال تعالى عن أنبياء بني إسرائيل: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّورَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا﴾ [المائدة: ٤٤].

- وقال تعالى عن يوسف عليه السلام: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

- والحواريون يقولون لعيسى: ﴿مَنْ أَنْصَارُ اللَّهِ عَامَنَا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٥٢].

- وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة: ١١١].

- أما مُحَمَّدٌ عليه السلام خاتم الأنبياء والمرسلين، فقد جاء في القرآن الكريم عنه: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الزمر: ١٢].

- وتسوق سورة فضلت هذا المبدأ الإسلامي للمسلمين: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فضلت: ٢٣].

إذن لم يكن الإسلام مقتصرًا على فئة دون فئة من المؤمنين؛ فكل مسلم بحكم إيمانه وتسليمه لأمر الله، وخضوعه لمشيئته هو من المؤمنين. فالإسلام في هذا الإطار يتسع ليشمل كل مَنْ وضع قدمه، وسار في مسيرة الإيمان<sup>(٢٢)</sup>.

وبالجملة: نرى اسم الإسلام شعاراً عاماً يدور في القرآن على ألسنة الأنبياء وأتباعهم منذ أقدم العصور التاريخية إلى عصر النبوة المحمدية.

ثم نرى القرآن الكريم يجمع هذه القضايا كلها في قضية واحدة، يوجهها إلى قوم مُحَمَّدٌ عليه السلام، ويبين لهم فيها أنه لم يشرع لهم ديناً جديداً. وإنما هو دين الأنبياء من قبلهم: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

ثمّ نراه بعد أن يسرد سيرة الأنبياء وأتباعهم، ينظّمهم في سلك واحد، ويجعل منهم جميعاً أمّة واحدة، لها إله واحد، كما لها شريعة واحدة، ﴿لِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: الآية: ٩٢].

ما هذا الدّين المشترك الذي اسمه الإسلام، والذي هو دين كلّ الأنبياء والمرسلين؟! إنّ الذي يقرأ القرآن يعرف كنه هذا الدّين. إنّهُ التّوجّه إلى الله ربّ العالمين، في خضوع خالص، لا يشوبه شرك، وفي إيمان واثق مطمئن، بكلّ ما جاء من عنده، على أيّ لسان، وفي أيّ زمان أو مكان دون تمرد على حكمه، ودون تمييز شخصي، أو طائفي أو عنصري بين كتاب وكتاب من كتبه، أو بين رسول من رسله يقول القرآن: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: الآية: ٥]. ويقول ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ إِنْزِيلًا وَنُحْمِلُهُنَّ عَنْقِبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: الآية: ١٣٦].

فالإسلام أصبح - من بعد وعندما بعث الله محمداً ﷺ وبلغ رسالة ربّه - أصبح مقتصرّاً على تلك الرّسالة وحدها ومختصّاً بها.

والآية الكريمة التي اعتبرت الدّين عند الله الإسلام ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: الآية: ١٩]، لا تعني إلّا مجموعة من المبادئ الإسلامية، وتعاليم الإسلام<sup>(٢٣)</sup>.

وما ذلك إلّا لأنّ معنى التّسليم لأمر الله والخضوع لمشيئته، الذي يعنيه الإسلام في مضمونه البسيط. أصبح له في رسالة محمّد عليه الصّلاة والسّلام أسس ثابتة.

وهذه التّعاليم تمثّل المضامين العقيدية، وأصول الإيوان، التي أكّدها الرّسل والأنبياء، وتضيف إليها نظمها التّشريعية المتكاملة الشّاملة، لمختلف جوانب الحياة.

إذن رسالة الإسلام هي الإسلام، بعد أن كُون في واقعة «وحدة الإيمان» وجاء بالشريعة الدائمة، الصالحة لكل زمان ومكان. قال الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: الآية: ٣].

ومن هنا كان الإسلام يشتمل على:

١ - امتداد زمني في المعتقد الديني، يعرض لقضية البشرية من نشأتها إلى غايتها في إيجاز وجمال..

٢ - شمول موضوعي يغطي مجالات الحياة جميعاً: سياسية، واقتصادية، واجتماعية، وعقيدية، وتربوية، وفكرية، وأحداث تاريخية.

٣ - شمول يضم الأديان كلها.

والمسلم مطالب بتصدق الأنبياء جميعاً<sup>(٧٤)</sup>.

ولقد دعا الإسلام المجتمع الإسلامي إلى أن يكون متسامحاً مع نفسه ومع الآخرين ومتعايشاً معهم. وله إلى هذه الإرادة دواعٍ وأسباب كثيرة، يمكن إجمالها في دوافع ثلاثة هي:

أولاً: إن الإسلام في أساسه لا يقر التعصب كيفما كان، جنسياً أو دينياً، لقيام هذا التعصب على الهوى، وحب الذات وحدها، ورفض ما سواها، وإلغاء الآخر ويضع الإنسان من حيث هو في مكان التكريم. يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَجَعَلْنَاهُمْ فِي الْوَرْدِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠]؛ إذ أن الله كرم بني آدم، بأن جعلهم في ذواتهم أعزّة غير أدلة، وبأن فضّلهم وجعل لهم مكانة متميزة عن غيرهم من المخلوقات، فأناح لهم قابلية التحضر، واكتساب المعارف، وتحقيق التطور.

وهذه الكرامة التي اختص الله بها الإنسان ذات أبعاد مختلفة: فهي حماية إلهية للإنسان، تنطوي على احترام حرّيته، وعقله، وفكره، وإرادته.

وهذه الكرامة تعني في النهاية، الحرّية الحقيقية، وهي تلك الحرّية الواعية

المسؤولة التي تدرك أهميتها تحملها: أمانة التكليف والمسؤولية<sup>(٢٥)</sup>.

يقول الله عز وجل: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾ [الأحزاب: الآية: ٧٢]. وقد جاء هذا التكريم منذ النشأة؛ إذ خلقه الله من طين، ثم بث فيه من روحه، وأمر الملائكة أن تسجد له تقديراً واحتراماً. يقول سبحانه: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [ص: (ص: ٧١، ٧٢)].

ثم لم يلبث أن مكّنه من العلم الذي يستطيع به أن يحقق وجوده وحياته في سياق الوضع الذي أراده الله له؛ إذ يقول عز وجل: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١].

ثانياً: إن الإسلام الحنيف يدعو إلى التعارف، أي: إلى التجمع والتساكن وتبادل المنافع والمصالح والتعاضد في أخذ وعطاء، وفي تأثير وتأثير دائمين، بعيداً عن أية عصبية جنسية، أو عنصرية إقليمية، أو نعة ثقافية. وهو بذلك لا يرى فضلاً لأحد على الآخر إلا بالتقوى. يقول عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَى﴾ [الحجرات: ١٣]. والتقوى تعني طلب الوقاية التي هي الصيانة من كل ما قد يصيبك من ضرر ومكره، والحفظ منها والحصانة والمناعة. والتعارف يقتضي القدرة عليه، وأكثر ما تتمثل فيه القدرة هو قبول الاختلاف في الرأي والمخالفة في العقيدة.

ثالثاً: إنه ينطلق من أن الاختلاف كامنٌ في طبيعة الحياة وجبلته الخلق؛ إذ أن الله تعالى خلق الكون وما فيه، ومن فيه على أساس من الاختلاف البارز في التنوع والتعدد مما يتجلى في مختلف الظواهر والمظاهر.

يقول سبحانه: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠].

ويقول: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَالْوَبَاطِينِ﴾

فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٢﴾ [الرُّوم: ٢٢].

ويؤكد ﷺ هذه الحقيقة التي لا تبديل فيها، فيقول: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ ﴿١٣٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٩﴾ [هود: ١١٨-١١٩].

أي: إِنَّ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ تقوم على تباين البشر، سواء أكان هذا التباين يتعلق بالجنس أم اللغة أم الدين أم بأي مكوّن من مكوّنات الحضارة والثقافة. والإسلام بذلك يرى الأمر خاضعاً لإرادة الله، والسّرّ كامناً فيها، ويؤكد الله تعالى هذه الإرادة وما يترتب عليها من عدم إكراه النَّاسِ على الإيِّان، فيقول: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تَكْذِبُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٤٠﴾ [يونس: ٩٩].

وإنّها لآيةٌ كريمةٌ تدلُّ على أَنَّ الله لو شاء لجعل النَّاسَ في مستوى واحدٍ من الفهم والإدراك المفضيين إلى الإيِّان. ومن ثمَّ فإنَّ رسوله ﷺ لا يستطيع أن يُزيل هذا التّفاوت مهما تكن محاولاته<sup>(٢٦)</sup>.

نعم، إِنَّ السّرَّ في ترك الاختلاف يرجع إلى أَنَّ الإسلام يدعو إلى الإيِّان الَّذي يقوم على النَّظر والتأمُّل والاختيار، ويرجع كذلك إلى أَنَّ الله تبارك وتعالى أتاح الفرصة لمن يؤمن ويعمل الصّالحات كي ينال حسن الثّواب والجزاء بالقياس إلى مَنْ لا يؤمن ولا يعمل الصّالحات وما ينتظره من وعيد؛ لأنَّ الإسلام حين يُبيح الحرّية الدّينيّة يعتبر أَنَّ النَّظر في الخلاف حولها متروك لله الَّذي يقول: ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ ﴿١٤١﴾ [البقرة: ١١٣].

ولعلنا في هذا السّياق نفهم معنى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]. أي: لا ينبغي إلزام أحدٍ بالدّخول في الإسلام عن طريق الإرغام والاضطهاد والتخويف وما إلى ذلك؛ لأنّه دينٌ يقوم على التّفكّر والتدبّر. علماً بأنَّ الحرّية الدّينيّة - في منظور الإسلام - تنطلق من أَنَّ الدّين عقيدة وإيِّان، أي: شعورٌ ذاتيٌّ



وداخلِيَّ للإنسان، يقوم على الاقتناع وميل النَّفس واطمئنانها؛ لأنَّه استسلامٌ وانقيادٌ لله ﷻ. (٢٧).

والَّذين يعيشون مع المسلمين في المجتمع الإسلامي من غير المسلمين فقد أظهر لهم الدِّين من التَّسامح المفضي إلى التَّعايش، ليس فقط ما يكفله لهم حرِّيَّة ممارسة عقائدهم، ولكن كذلك ما يجعلهم مواطنين في هذا المجتمع مندمجين فيه، موفوري الحرِّيَّة والكرامة، غير منعزلين ولا مهمَّشين. وتكفي الإشارة في هذا الصَّدَد إلى أمور:

الأمر الأوَّل: النَّهي عن مجادلة المسلمين لغيرهم ولا سيما أهل الكتاب، إلَّا بالتي هي أحسن. يقول الله ﷻ: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [٥٦]. وهو موقفٌ دقيق - لا شك - بحكم دقَّة المسائل العقيدِيَّة التي أثَّرت، وما زالت تُثار على مستوى الحوار الإسلامي المسيحي طالما أنَّ الإسلام - على نحو ما مرَّ - دينٌ يُعنى بالفرد والجماعة معاً، ويسعى إلى قيام مجتمعٍ متآخٍ ومتكافلٍ تسوده الحرِّيَّة والتَّسامح، ويشعر فيه كلُّ واحدٍ بمسؤوليَّة بنائه، والحفاظ عليه.

الأمر الثَّاني: حرِّيَّة ممارسة غير المسلمين لعقيدتهم، في طقوسها وشعائرها ومختلف مراسمها ومظاهرها الاحتفاليَّة، مع الإقرار بأيَّام العطل والأعياد، والسَّباح بإقامة أماكن العبادة، والسَّهر عليها بالمحافظة والصِّيانة والتَّنظيم، وكذا احترام العادات والأعراف. يصل حرص الإسلام على حرِّيَّة العقيدة مع احترام ممارستها، وعدم الإجبار على تعطيلها أو تغييرها مهما تكن ظروف الضَّغط متاحة إلى حدٍّ أنَّه إذا طلب أحدُ المشركين من مسلمٍ أن يؤمنه ويحميه، فعليه أن يستجيب له حتَّى لا يُضيقه سوء، إلى أن يصل إلى مكان آمنه، وهو منزله، أو مقرُّ قومه. يقول تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ

يَسْمَعُ كُلُّهُمُ اللَّهَ تَعَالَى أَنِّي لَعَنَةُ مَا مَنَعَهُ ﴿[التوبة: ٦]﴾.

الأمر الثالث: إطلاق الإسلام على مخالفه الذي يعيشون مع المسلمين في نفس المجتمع أهل الكتاب، وهي نسبة تتضمن اعتراف المسلمين بالكتب السماوية والرسل الذي يُعْثُوا بها.

ويعترف الإسلام بأصحاب الملل والنحل الأخرى التي كانت معروفة قديماً، وهي المجوسية والسامرية والصابئة.

ويبلغ هذا التسامح مداه عند الممارسة والتطبيق على صعيد المجتمع كله انطلاقاً من توجيهات الرسول الأكرم ﷺ وفق ما نقرأ في هذه الأحاديث الشريفة: «مَنْ آذَى ذِمِّيًّا فَأَنَا خَصْمُهُ، وَمَنْ كُنْتُ خَصْمُهُ خَصْمُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»<sup>(٢٨)</sup>.

«مَنْ قَذَفَ ذِمِّيًّا حَدَّ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَسِيْاطٍ مِنْ نَارٍ»<sup>(٢٩)</sup>.

«وَمَنْ قَتَلَ مَعَاهِدًا لَمْ يَرْحَ رَائِحَةُ الْجَنَّةِ»<sup>(٣٠)</sup>.

وهي توجيهات نفّذها الخلفاء الراشدون، وقادة الفتح الإسلامي في جميع ما عقدوا من عهود ومواثيق<sup>(٣١)</sup>.

وإذا كانت الضرورة في كلِّ عصرٍ تقتضي تقوية هذه الدّعائم؛ فإنّها تبدو اليوم أكثر إلحاحاً؛ بسبب سوء فهم مدلول التّعايش الحقّ - سواء بالنسبة للمسلمين أو لغيرهم - وما ترتّب عليه من تفرّط في شؤون الدّين وابتعاد عنه في كثير من جوانب الحياة، وانحراف سلوك الأفراد والجماعات، وما نتج عن ذلك كلّهُ من ظروفٍ متآزمة يعيشها المسلمون ومن يُساكنهم بفعل عوامل داخلية وخارجية.

وهي تقتضي البدء بإصلاح الذات ومعالجة مشاكلها بما يقوِّي المجتمع بل المجتمعات الإسلامية في بنائها الداخلي، ويجعلها قادرة على الصُّمود ومواجهة كلّ التّحدّيات والاعتداءات.

من هذا المنظور يتبين أنَّ غير المسلمين يعيشون مع المسلمين داخل المجتمع الإسلامي متمتعين بمساواة تامة<sup>(٣٢)</sup>.

ولا يخفى على أهل العلم أنَّ الأمن مطلبٌ للإنسان الذي كَرَّمه الله، وهو نعمةٌ تعمُّ النَّاسَ جميعاً في المجتمع الإسلامي.

وأحكام الإسلام المنزلة من الله تعالى، والمبينة بسنة رسوله ﷺ تدلُّ على أنَّ أمن غير المسلمين الذين يعيشون في المجتمع الإسلامي على أنفسهم ومالهم وعرضهم مضمونٌ ما داموا ملتزمين بما تقضي به الأحكام.

وهي أحكامٌ واضحةٌ أوجبها الإسلام، ولم توجبها المصالح المتبادلة بين المسلمين وغير المسلمين، ولم تُلزم بها المسلمين قواعد القانون الدولي، أو المعاهدات بين الدول الإسلامية وغيرها؛ لأنَّ هذه الأحكام جانبٌ مهمٌّ من شريعة الإسلام الكاملة، يجب على الدولة الإسلامية تطبيقها والعمل بها. فهي واجبٌ دينيٌّ قبل أن تكون مصلحةً سياسيةً والتزاماً دولياً.

إنَّ الإسلام يُقيم مجتمعاً إنسانياً راقياً، وهو لذلك يُقيم العلاقة بين النَّاسِ جميعاً على أسسٍ وطيدةٍ من العدل والبرِّ والرَّحمة.

ونستطيع القول بإيجاز: إنَّ الإسلام يتميز في خصوص التعامل مع غير المسلمين بأمرين مهمَّين:

الأمر الأول: أنَّ له نظاماً يعدُّ جزءاً لا يتجزأ من شريعته المتكاملة، وهو نظامٌ للمسلمين يعملون به دائماً، ويلزمهم بحكم عقيدتهم، ولم يترك الإسلام العلاقة مع غير المسلمين لتقلبات المصالح والأهواء، ولنزعات التَّعصُّب العرقي، أو اللوني، أو الديني.

لقد اعترف الإسلام بوجود الآخر؛ لذا دعا إلى أهمية التعامل معه، ووضَّح القواعد التي تضمن حقَّ المسلمين في المجتمع، وحقَّ الآخرين الذين يعيشونهم دائماً أو بصفة مؤقتة، ولم يكن ذلك معهوداً في الممالك والإمبراطوريات القديمة

قبل الإسلام.

الأمر الثاني: أن القواعد التي وضعها الإسلام لتنظيم العلاقة بين المسلمين وغيرهم في المجتمع الإسلامي تتميز بالسَّاحة واليُسْر، وحفظ الحقوق، وتجنب الظُّلم، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَرْدِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

وفي أوقات السُّلم والتَّعامل في شؤون الحياة المختلفة يحرص التشريع الإسلامي على حفظ حقِّ الحياة، وحفظ حقِّ العمل، والسَّعي، والكسب المشروع لغير المسلم في المجتمع الإسلامي، ويبلغ التَّسامح بالنسبة إلى مَنْ يُعاشون المسلمين بصفةٍ دائمةٍ من أهل الكتاب حدًّا يصل إلى حفظ حقِّهم في التَّكافل الاجتماعي؛ بحيث ينال معونة الدولة الإسلامية مَنْ تقصر به حالته من العجز أو المرض أو الشَّيخوخة عن السَّعي والكسب.

ولا شكَّ أنَّ التشريع الإسلامي بهاتين الميزتين يضمن العيش الآمن لغير المسلمين على أن يكونوا أفراداً يعملون من أجل خدمة هذا المجتمع وتنميته.

وتكفل أحكام الشَّريعة أن يتمتَّع غير المسلمين بمَنْ يعيشون في المجتمع الإسلامي بالأمن على حياتهم ومالهم وعرضهم، وهذه الحماية مستمرةٌ سواء كانوا من المعاهدين والمستأمنين أم من أهل الوطن، ما داموا ملتزمين بالعهد. وتشمل حماية غير المسلمين في المجتمع الإسلامي الحماية من العدوان الخارجي؛ ففي كتاب مطالب أولى النُّهى: «يجب على الإمام حفظ أهل الدِّمة، ومنع ما يؤذيهم، وفك أسرهم، ودفع مَنْ قصدهم بأذى».

وفي الفروق للقرافي: «أنَّ ابن حزم الظَّاهري يُجيز أن يُقاتل المسلمون عن أهل الدِّمة» المواطنون، ويموتون دون ذلك.

وتشمل كذلك الحماية من الظُّلم الدَّاخلي، أي: داخل المجتمع الإسلامي، وتعني دفع كُلِّ اعتداء عليهم، وتأمين أنفسهم وأبدانهم وأعراضهم وأموالهم

وحقوقهم التي تكفلها لهم الشريعة.  
فأمن الذميين على أنفسهم وبدنهم مضمون بالشريعة؛ لأنَّ الأنفس والأبدان معصومة باتفاق المسلمين.  
يقول الرسول ﷺ: «مَنْ قَتَلَ مَعَاهِدًا لَمْ يَرْحَ رَائِحَةُ الْجَنَّةِ، وَإِنْ رِيحُهَا لِيُوجَدَ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا» (٣٣).

وأحكام القصاص والديات محفوفة بما يدلُّ على ترتب الجزاء على المسلم فيما لو اعتدى على الذمي، فلترجع ثمة.

والأساس لحقوق غير المسلمين الذين يعيشون في المجتمع الإسلامي لم يكن وليد تطوُّر اجتماعيٍّ أو تقدُّم حضاريٍّ، ولكنَّ أساسه في القرآن الكريم، قال الله تعالى: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (٨) ﴿إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوا عَنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٩) [الممتحنة: ٨، ٩]. وفي الآية الشريفة إشارة إلى البرِّ بالمخالف في الدين، وهي درجة لم يصل إليها أهل الحضارة المعاصرة.

ولم تقتصر الشريعة الإسلامية على حماية مَنْ يعيش في مجتمع مسلم في حياته الدائمة والمستقرة بين أسرته وفي مقرِّ عمله الذي يكتسب منه، وهي حالة الذميين، وإنَّا تجاوزت ذلك إلى حماية المخالف في الدين الذي يحضر إلى بلاد المسلمين للعمل، أو التجارة، أو لشأن من الشؤون المباحة كالسياحة أو العمل. فالإسلام بذلك، لا يقاطع الآخر مقاطعةً شاملةً، ولا يُحرِّم أصل التعامل مع غير المسلمين لتحقيق مصالح المجتمع الإسلامي من خلال تلك العلاقات.

والأقليات الدينية في إيران - مثلاً - تشتمل على عدَّة أديان مختلفة، والتي تُعرف في إيران بالأسماء التالية: الزرادشتية، اليهودية، الأرمنية، الآشورية، الكلدانية. وتُعرف هذه الأقليات الدينية - أيضاً - بالأقليات السياسية. وفي

نفس التوقيت الَّذِي يُشكّل فيه مجلس الشورى في إيران منذ أكثر من مائة عام، كان لكلّ منها ممثلاً ينوب عنها، بغضّ النظر عن صغر عددها.

وفي مجلس الشورى الإسلامي يبلغ عدد نواب مجلس الشورى الإسلامي حالياً (٢٩٠) نائباً، بمعنى نائباً لكلّ ٣٥٠٠٠٠ نسمة.

وأكثر هذه الأقليات لها معابد، ومؤسسات، وصحف ومجلات خاصة بها، تعمل في مختلف المجالات الاجتماعية.

ودليل على السلوك الحسن، فإنّ بعضها له مكانة خاصّة لدى الإيرانيين، وعلى سبيل المثال: فإنّ الإيرانيين لا يزالون يتذكّرون سلوك أقلّيتين منها، هما: الأرمنيّة والزرادشتيّة بكلّ الإخلاص والصدق.

ومما يثبت ذلك أنّ الشعب الإيراني قد شكّل من أقوامٍ تاريخيّة مختلفة منذ قديم الزّمان، والتي كانت تقطن ذلك البلد، ولها صلاتٌ مشتركةٌ مع بعضها البعض، ولا تُطلق كلمة أقلّية أبداً على أيّ منها.. حتّى أتباع المذاهب الإسلاميّة المختلفة لا يُطلق عليها أقلّيات.

وتعداد الإيرانيين اليهود حوالي ٢٥ ألف نسمة، يعيشون في خمسة وعشرين مدينة مختلفة، وعلاوة على المقابر المخصّصة لهم، فإنّ لديهم ٤٣ كنيسة.

وتقع في إيران بعض من مقابر حاخامات الدّين اليهودي، وأنبياء بني إسرائيل أيضاً، من بينها مقبرة النّبي دانيال، أسترو مردخاي، والنّبي حبقوق. وأيضاً اليهود الإيرانيون لا ينتمون إلى الصّهيونيّة، ويبدلون محاولات كثيرة لإظهار وجه الصّهيونيّة والتي تُعدّ إذاعة صوت داود من ضمنها.

ويبلغ عدد الأرمن الإيرانيين حوالي مائة ألف نسمة، يعيشون في مدن مختلفة في أنحاء الجمهوريّة.. وفي الواقع فهم يعدّون من أكبر الأقليات المسيحيّة في إيران، وأكثرهم يعيشون في إيران منذ عصر الدّولة الصّفويّة، ولديهم كنائس مشهورة يزيد عددها عن مائة وأربعين كنيسة، وسبعة وستون منها مسجّلة في

فهرست الآثار الإيراني الوطني، ويقوم كثير من المسيحيين من كل أنحاء العالم كل عام بزيارة كنائسهم، وممارسة شعائر العبادة الخاصة بهم، ومنها - مثلاً - كنيسة (وانك) في مدينة أصفهان، وكنيسة (قرة كليا) في محافظة آذربيجان.

ويبلغ عدد الأشوريين الإيرانيين - أحد أفرع المسيحية - حوالي ٣٠٠٠٠ نسمة، وتعداد الكلدانيين - الكاثوليك - أكثر من ٨٠٠٠ نسمة. أمّا الزرادشتيين فيبلغ عددهم حوالي ٢٠٠٠٠ نسمة، وأكثرهم يتواجدون في مدن طهران وخراسان وكرمان ويزد، ولديهم معابد أثرية يمتد تاريخها إلى ما قبل الإسلام.

وتدرس هذه الأقليات في مدارس وجامعات إيران، ويدرس الدين الخاص بهم في المراكز التعليمية كمادة بدلاً عن مادة الدين الإسلامي. وعلاوة على ذلك فإن لديهم أكثر من خمسين مدرسة تخصصية. وعلى أساس القوانين المقررة من قبل مجلس الشورى الإسلامي فإنه لا يوجد أي فرق بين الأقليات الدينية وبين المواطنين الإيرانيين الآخرين، فهم متساوون في الحقوق<sup>(٣٤)</sup>.

ولقد وفّرت الشريعة الإسلامية حماية للمستأمن الذي يفد إلى بلاد الإسلام لشأن من الشؤون المباحة، ويدخل ديار المسلمين بإذن منهم.

إن الأمة الإسلامية تنطلق من نظرة شاملة للإنسان، وإن هذه النظرة تبقى أساسية وصالحة للبشر في كل زمان ومكان.

وثمة أمور يحسن أن نؤكد عليها، وهي:

١. إن العصر الحاضر هو عصر التواصل البشري، وعصر التّحاور الثقافي، ويمكن القول إنه قرن التدافع الثقافي.

وهذا التّوجّه مهم ومفيد يلزم المسلمين استقباله، والتّعامل معه بإيجابية وارتياح؛ لأنّ منهجية الحوار بالبيان والحكمة منطلق أساسي في منهج القرآن الكريم وأدبيات الدّعوة إلى قيم الإسلام، التزاماً بالتّوجيه الربّاني جلّ شأنه: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَحَدِّ لَّهُم بِالْإِنِّ هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النمل: ٢٥٥]

٢. المسلمون مطالبون بالسَّعي للحوار مع النَّاس بما يُحقِّق وضوح الرؤية وجميع الكلمة على المبادئ والقيم الرَّبَّانِيَّة الخالدة. وهذا قوله تعالى: ﴿قُلْ يَأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٦٤].

ولعلَّكَ تدرك أنَّ هذه الآية الكريمة جاءت لتقرِّر مبادئ إسلاميَّة في علاقات المسلمين بغيرهم:

- مبدأ الاعتراف بالآخرين.

- مبدأ الحوار وأهميته.

- مبدأ استشراف المستقبل في ظلِّ علاقات إنسانيَّة سامية<sup>(٣٥)</sup>.

٣. إِنَّ الإسلام الَّذِي نعتقده ونفهمه وفق النُّصوص الثَّابتة القاطعة من القرآن والسُّنَّة النَّبَوِيَّة المطهَّرة، هو دين الله تعالى الَّذِي أرسل به الرُّسل جميعاً، منذ أبينا آدم ﷺ وحتى سيِّدنا مُحَمَّد بن عبد الله عليه الصَّلَاة والسَّلَام، وفق مستقيَّات ومعانٍ تناسب الزَّمان والمكان لكلِّ قومٍ على حسب مقتضى حالهم وحياتهم التي كانوا يعيشون، وأنَّ سيِّدنا مُحَمَّد عليه الصَّلَاة والسَّلَام بُعث لتختتم به دعوة الله تعالى ورسالاته، ولتتكمَّل بها دعوة الأنبياء والرُّسل من قبله، في ظروفٍ من الزَّمان والمكان تحقِّق للنَّاس بها من أسباب التَّعارف والتَّعاش، ما يصلح معها مخاطبتهم جميعاً بتبام ما أراد لهم ربُّهم وخالقهم من مبادئ وقيم ومنطلقات، تستقيم معها حياتهم، ويتحقَّق لهم بها الخير كُلُّ الخير، وهذا واضحٌ في قوله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا مِنْ رَبِّهِمْ وَاسْتَمِعُوا لِحَقِّ وَتَعْقُوبٍ وَلَا تَسْبِطُوا وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦].

٤. الأُمَّة الإسلاميَّة تحكم علاقاتها وتجاوزاتها مع الآخرين قاعدةً أساس



تقوم على أساس صِحَّة كُلِّ علاقة، وسلامة كُلِّ حوار.

٥. إِنَّ مَبْدَأَ الْمُسْلِمِينَ وَهُمْ يَعْرَضُونَ مَبَادِئَ وَتَعَالِيمَ الْإِسْلَامِ عَلَى النَّاسِ تَحْكُمُهُ قِيَمٌ وَأَدَابٌ لَا يَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِينَ تَجَاوُزَهَا وَمَخَالَفَتَهَا وَلَا يَصُحُّ مَعَهَا تَجْرِيعٌ وَسَبَابٌ مَعْتَقَدَاتِ الْآخَرِينَ، وَهَذَا صَرِيحٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨].

٦. والمجتمعات الإسلامية وفق تعاليم الإسلام وقيمه، مأمورة بالتزام العدل وإنصاف النَّاسِ مع وجود الاختلاف في العقيدة وقيام الخصومة والشَّحناء معهم؛ حيث يأمر الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَى أَنْ تَتَّخِذُوا أَعْدِلُوا هُمُ اقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٨].

٧. إِنَّ مِنْهُجَ الْقُرْآنِ يُعَلِّمُ الْمُسْلِمِينَ وَيُؤَكِّدُ عَلَيْهِمْ: أَنَّ الْبَشَرِيَّةَ مَدْعُوَّةٌ بِأَمْرِ رَبِّهَا جَلَّ شَأْنُهُ لِلتَّعَارُفِ وَالتَّعَايُشِ وَفُقَ الْقِيَمِ وَالْمَعَايِيرِ الرَّبَّانِيَّةِ عَلَى اخْتِلَافِ أَجْنَاسِهِمْ وَأَعْرَاقِهِمْ وَأَدْيَانِهِمْ وَالْوَنَانِمْ، وَأَنَّ إِيْتِيَانَ الْحَقِّ وَجَنَابَةِ الْبَاطِلِ هُوَ أَسَاسُ التَّنَافُسِ بَيْنَهُمْ، وَهُوَ أَسَاسُ مَعْيَارِ الْقُرْبِ وَالبَعْدِ مِنْ تَقْوَى اللَّهِ وَمَرْضَاتِهِ، وَهَذَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَى﴾ [الحجرات: ١٣].

٨. مجتمعات الأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ بِحَدِّهَا - وَهِيَ تَتَعَامَلُ مَعَ غَيْرِهَا مِنَ النَّاسِ - تَعَالِيمُ اللَّهِ وَتَوْجِيهَاتُ الرَّسُولِ ﷺ، الَّتِي تَطَالِبُهَا وَتُؤَكِّدُ عَلَيْهَا السَّعْيُ فِي تَحْقِيقِ مَصَالِحِ الْعِبَادِ، وَجَلْبِ النَّفْعِ الْعَامِ لَهُمْ، وَأَنَّ ذَلِكَ السَّعْيَ الصَّادِقُ هُوَ السَّبِيلُ لِنَيْلِ مَحَبَّةِ اللَّهِ تَعَالَى وَالفَوْزِ بِمَرْضَاتِهِ؛ حَيْثُ جَاءَ فِي الْآثُرِ: «الْخَلْقُ عِيَالُ اللَّهِ، وَأَحَبُّهُمْ إِلَى اللَّهِ أَنْفَعُهُمْ لِعِيَالِهِ».

٩. إِنَّ الْإِسْلَامَ يُؤَكِّدُ: أَنَّ أَسَاسَ دِينِ اللَّهِ تَعَالَى يَقُومُ عَلَى إِقَامَةِ الْعَدْلِ بَيْنَ النَّاسِ، وَشَبُوحِ قِيَمِ الْإِحْسَانِ بَيْنَهُمْ، وَالْعَمَلُ عَلَى مَكَافَحَةِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ، وَمُحَارَبَةِ الْبَغْيِ فِي حَيَاتِهِمْ، وَقَدْ عَظَّمَ فَهَاءُ الْإِسْلَامِ قِيَمَ الْعَدْلِ حَتَّى جَعَلُوهُ

معياراً لنصرة الله وتأييده لأيّ ملة تقيمه، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

١٠. المسلمون يعتقدون بمشروعية التدافع الإنساني، ويؤمنون بأن منهجية التدافع بين الناس القائمة على أساس التنافس في جلب المنافع ودرء المفساد كفيلة بتحقيق الحياة الأفضل لهم جميعاً، وتوفير الأمن والاستقرار، وصرف الفساد عن الأرض، وهذا مؤكد في قول الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

ومن جهة أخرى فإن التدافع بين الناس لجديرٌ بحماية حرية الإنسان في معتقداتهم وأنماط حياتهم، وصيانة معابدهم على اختلاف مللهم، وهذا في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الحج: ٤٠].

ومن مفاخر الفقه السياسي في الإسلام أن الشرائع جاءت لتحقيق مصالح العباد؛ حيث إن مبناهما يقوم على تحقيق أكمل المصلحتين ودفع أعظم المفسدتين.

١١. الأمة الإسلامية تعتقد وتؤمن بأنها شريكة مع غيرها في منهج الاستخلاف لعمارة الأرض، وليست محتكرة لهذا المنهج، وأن غياب المسلمين أو تغيبهم عن المشاركة في منهج الاستخلاف، أو تجريد هذا المنهج من القيم الربانية سيؤدي - لا محالة - إلى فساد الأرض، ودمار حياة الإنسان عليها، وهذا مؤكد في قول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنْزِلَ اللَّهُ فَأَخْبَطُوا أَعْمَالَهُمْ﴾ ① ﴿أَفَلَا يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْتَلُهَا﴾ ② [عن: ٩-١٠].

١٢. إِنَّ مبادئ الإسلام وقيمه تعلّم المسلمين وتؤكد عليهم ألا يبخسوا الناس أشياءهم، وألا يحتقروا كدّهم وجهدهم في كلّ عملٍ ببناء، يُحقّق الإعمار والإبداع الحضاري... وتُلزم تعاليم الإسلام المسلمين احترام وتقدير كلّ عطاء خيرٍ في ميادين القيم والسلوكيات، وفي ميادين الماديات والوسائل والمهارات، يلتقي ذلك مع قيم وتوجيهات منهج الاستخلاف الربّاني في عمارة الأرض، بل إنّ القرآن الكريم يعتبر احتقار سعي الناس ويخس مشيهم الإيجابي الفعّال المثمر في الأرض من العبث والإفساد، الَّذِي يُمقته الإسلام، ونهى عنه، وهذا في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [مرد: ٨٥].

١٣. إنّ الإسلام مثلاً وضع ثوابت ومنطلقات، وقَدّم قيماً ومبادئ كُليّة لضبط أدبيات ومقومات التّعايش البشري والتّعارف الإنساني، فإنّه - أيضاً - وضع ثوابت ومنطلقات وقَدّم قواعد وأساساً لضبط حركة مصالح الناس، وقَدّم قيماً وأدبيات لإحكام سيولة تبادل المنافع بين المجتمعات في إطار التّعايش والتّعارف بينهم<sup>(٣٦)</sup>.

وبعد، فإنّ المسلمين وفق هذا المنهج الربّاني العادل، وموروثه القيمي والتّشريعي، وفي ضوء قدراتهم الماديّة والسّياسيّة، ليجدون أنفسهم مؤهلين كلّ التّأهيل لأداء مهمّتهم ومساهماتهم الإيجابيّة الفعّالة في معترك التّدافع الإنساني البشري؛ لإقامة نظامٍ عالميٍّ عادل، يُنهي حالة القلق والدُّعر التي تحيق بالناس، ويصرف أسباب الفساد عن الأرض، ويضع حدّاً لتدهور العلاقات الدّوليّة في أكثر من موقع. ويزيل عوامل الاضطراب والجشع والاضطرار السّياسي والاقتصادي بين الأمم. ويضبط حركة التّدافع الإنساني، ويُقيم موازين القسط للتّعايش والتّعاون البشري. ويرتقي بمنهج التّبادل والتّكامل الثّقافي، بما يحقّق للناس تطلّعاتهم لحياةٍ إنسانيّة آمنة مطمئنة تنعم بالأمن والاستقرار والعدل

والسّلام.

والمسلمون من أجل هذه المهمة الجليلة النّبيّة على استعدادٍ لكُلِّ حوارٍ بناءٍ مع أيّ جهةٍ معيّنة، وفعّالةٍ شعبيّاً ورسميّاً للسّير بالإنسانيّة نحو الخير والفلاح<sup>(٣٧)</sup>.

وقد لا يخفى على أحد أنّ الأُمّة الإسلاميّة تمتلك رصيдаً ضخماً من القيم الهادفة يمكن استثماره فيما يُفيد الإنسانيّة.

\* \* \*

### الهوامش :

(١) انظر: د. أحمد السايح، الفضيلة والفضائل في الإسلام: ٧٤، ط: مركز الكتاب للنشر، القاهرة، ١٩٨٨م.

(٢) انظر: المصدر نفسه: ٩.

(٣) انظر: د. أحمد السايح، الفضيلة والفضائل في الإسلام: ٤٧، ٤٨، ط: مركز الكتاب للنشر بالقاهرة.

(٤) التاج الجامع للأصول ١: ٦١.

(٥) المصدر نفسه.

(٦) د. أحمد السايح: الخطاب الدّيني والواقع المعاصر: ٦٥، ط: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.

(٧) انظر: د. أحمد السايح، الفضيلة والفضائل في الإسلام.

(٨) الأستاذ فهمي هويدي: مواطنون لا ذميون: ٨١، ط: دار الشروق.

(٩) د. عباس الجارري، الإسلام اليوم: ٣٦.

(١٠) د. محمّد عبد الله الشّرقاوي، مقدمة الرّد الجميل لإلهية عيسى، المقدمة: ١٧، ط: دار الهداية بمصر ١٤٠٦.

(١١) د. أحمد شليبي، مقارنة الأديان: ٢٧، ط: مكتبة النّهضة ١٩٧٨.

(١٢) راجع: أبو الحسن العامري، مناقب الإسلام: ١٢٣.

(١٣) د. أحمد عبد الرّحيم السايح، فلسفة الحضارة الإسلاميّة: ٢٢.

- (١٤) د. أحمد السايح، الفضيلة والفضائل في الإسلام: ٢٦، ط: الأزهر ١٩٨٤.
- (١٥) المصدر السابق: ٢٧، بتصرف.
- (١٦) د. أحمد السايح، الفضيلة والفضائل في الإسلام: ٢٧.
- (١٧) راجع: د. أحمد السايح، فلسفة الحضارة الإسلامية: ٢٥.
- (١٨) انظر: د. محمد دراز، الدين دروس عميقة لدراسة تاريخ الأديان: ١٧٥.
- (١٩) انظر: محمود بن الشريف، الأديان في القرآن: ٣١.
- (٢٠) المصدر نفسه: ٣١.
- (٢١) راجع: د. أحمد السايح، فلسفة الحضارة الإسلامية: ٢٥.
- (٢٢) المصدر نفسه: ٢٧.
- (٢٣) د. محمد عبد الله دراز، الدين: ١٧٦.
- (٢٤) د. أحمد السايح، فلسفة الحضارة الإسلامية: ٢٧، ٢٨، ٢٩.
- (٢٥) انظر: د. محمود حمدي زقزوق، دور الإسلام في تطور الفكر السياسي.
- (٢٦) انظر: د. عباس الجزائري، مجلة الإسلام اليوم، العدد: ١٤، الصلاة ٢١-٢٣، بتصرف.
- (٢٧) المصدر نفسه.
- (٢٨) جلال الدين السيوطي، الجامع الصغير ٢: ٥٤٧، الحديث: ٨٢٧٠.
- (٢٩) الطبراني، المعجم الكبير ٢٢: ٥٧.
- (٣٠) صحيح البخاري ٤: ٦٥.
- (٣١) انظر: د. عباس الجزائري، الإسلام اليوم، العدد ١٤، ص ٢٩-٣٢.
- (٣٢) المصدر نفسه.
- (٣٣) رواه البخاري وأحمد في المسند، وابن ماجة.
- (٣٤) مجلة لوتس: ٦٤-٦٧، عدد شهر أغسطس سنة ٢٠٠٥، القاهرة.
- (٣٥) بحث للدكتور أحمد السايح، شارك به في المؤتمر الإسلامي التاسع الذي عقده المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية في القاهرة.
- (٣٦) انظر: د. حامد الرفاعي، الإسلام والنظام العالمي الجديد: ١٣٠.
- (٣٧) المصدر نفسه: ١٣٩.

## □ أسرة التحرير

\* الإخوة في جمعية الرسالة الإسلامية في ملبورن - استراليا، نشكر اهتمامكم وندعو لكم بالتوفيق، كما نفتح لكم صفحات هذه المجلة لنشر ما لديكم من دراسات وأبحاث ومشاركات.

\* الأخ العزيز علوي السيد حسن هاشم الموسوي، وصلت رسالتكم ونحن بانتظار ما لديكم، وفقكم الله لكل خير.

\* الأخ الدكتور حسين الخطيب في هولندا، نسأل الله لكم التوفيق، وصفحات هذه المجلة مفتوحة لدراساتكم ودراسات سائر الإخوة الباحثين.

\* الإخوة في حوزة الإمام المنتظر ﷺ للدراسات الإسلامية في

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
ورد إلى بريد مجلة (رسالة الثقلين)  
العديد من رسائل القراء الكرام  
الذين اطلعوا على الأعداد الأخيرة  
الصادرة منها، وإدارة المجلة إذ توجه  
شكرها لكل من راسلها تدعو  
الإخوة إلى الاستمرار في الاتصال بها  
عبر البريد الإلكتروني أو الرسائل  
المكتوبة، وتقديم اقتراحاتهم  
وانتقاداتهم بما يخدم أهداف هذه  
المجلة، من نشر رسالة الإسلام  
وتعاليم النبي وأهل بيته صلوات الله  
عليهم أجمعين. كما نأمل ممن وصلتهم  
أعداد هذه المجلة إبلاغنا بذلك  
لنستمر في التواصل معهم. وهذه  
بعض الردود السريعة لرسائل بعض  
الإخوة القراء:

بعلبك، لبنان، نتمنى لكم التوفيق ونرجو إتخافنا بما لديكم من دراسات وأبحاث.

\* الإخوة في المركز الإسلامي في هامبورغ، وصلنا ببيانكم الذي يدلُّ على غيرتكم على الإسلام، نتمنى دوام التواصل لما فيه خدمة هذا الدين الحنيف.

\* الإخوة في كُلية الإمام الأوزاعي - بيروت، وصلت رسالتكم الخطية مُرفقةً بطلباتكم وسوف نسعى لتليتها في القريب العاجل، ونتمنى استمرار تواصلكم معنا بما فيه خدمة الإسلام

والمسلمين، كما ويسرنا نشر أبحاث أعضاء الهيئة العلميّة في كُليّتكم الموقرة، ودراسات الطُّلاب الأفاضل.

\* الإخوة في المركز الإسلامي في هامبورغ، وصلنا ببيانكم وشكراً لتواصلكم.

\* الإخوة في المركز الإسلامي العربي الأفريقي - ساحل الحاج، بشخص الشيخ أمين الشَّيخ جعفر الصايغ، وصلت رسالتكم ونتمنى لكم دوام التوفيق، والاستمرار في التواصل معنا وإتخافنا بما لديكم من دراسات وأبحاث.

\*\*\*

## محاوَر الكُتابة

### في الأعداد القادمة

تدعو مجلة رسالة الثقلين الإخوة الباحثين لإتحافها بما لديهم من دراسات وكتابات في مختلف مجالات الفكر الإسلامي، علماً أنَّ أهمَّ المحاور التي سوف تتناولها المجلة في الأعداد القادمة - إن شاء الله تعالى - تكون كالتالي:

\* الإمام زين العابدين (عليه السلام): دراسات في سيرته، الإمام (عليه السلام) والدُّعاء، المنهج الأخلاقي عنده، عصر الإمام (عليه السلام) والظُّروف السِّياسية المحيطة به، رسالة الحقوق وبحوث مقارنة مع شرعة الأمم وحقوق البشر، الخ...

\* الانسجام والتوافق الإسلامي: أسسه ومرتكزاته، ثمراته وفوائده، العقبات التي تقع في طريق تحقيقه، دور التطُّرف الفكري وإلغاء الآخر في ابتعاد المسلمين عن بعضهم، مقترحات عملية، الخ...

\* الإسلام والغرب: العلاقة سلباً وإيجاباً، الصُّراع الفكري، تاريخ الاتصال بين الشرق والغرب، أثر الدِّراسات الغربية على الفكر الإسلامي، وأثر الفكر الإسلامي على الدِّراسات الغربية، المسلمون في الغرب، آمال وتطلعات، الخ...

\* نظام حقوق الإنسان: النظم الحقوقية في الإسلام، نقد النظرية الغربية حول حقوق الإنسان، أسس النظرية الإسلامية حول حقوق الإنسان، الخ...

\*\*\*



## قسمة الاشتراك

الاسم :  
 العنوان :  
 المدينة :  
 البلد :  
 المهنة :  
 مدة الاشتراك :  
 ابتداءً من :  
 عدد النسخ :

### رسالة الثقلين

### مجلة اسلامية جامعة

البلد  
 الاشتراك  
 الإرسال السنوي / لمدة ٦ أشهر  
☐ الجمهورية الإسلامية في إيران  
 (بالريال) ٢٠٠٠٠ ١٠٠٠٠  
☐ باقي دول العالم بالدولار الأمريكي  
 ٣٠ ١٥ (أو ما يعادلها)

يرافق اشتراكي: ☐ صك ☐ صك بريدي ☐ حوالة بريدية  
 أرسل هذه القسيمة مع قيمة الاشتراك باسم «رسالة الثقلين» إلى العنوان التالي:  
 الجمهورية الإسلامية في إيران. قم. ص. ب ٨٩٤ — ٣٧١٨٥

### الاشتراكات:

داخل الجمهورية الإسلامية في إيران: تسدد قيمة الاشتراك السنوي (٢٠٠٠٠ ريال)

ريال) بحوالة مصرفية على العنوان التالي:

الجمهورية الإسلامية في إيران — قم — بنك تجارت / شعبة سمية، شارع سمية — رقم الحساب الجاري: ٤٦٢٥٤ — ١٥١٢٠ (بالريال)، المعلنونة الثقافية للمجمع العالمي لأهل البيت (عليه السلام).

خارج الجمهورية الإسلامية في إيران: قم — بنك ملي (شعبه مركزي قم) رقم الحساب: ٢٠٠٦٥ — ٢٧٠١ (بالدولار).

### ثمن النسخة:

الجمهورية الإسلامية في إيران ٥٠٠٠ ريال.

وفي باقي دول العالم ٧ دولارات أمريكية أو ما يعادلها



The ahl – ul Bayt (a)  
World Assembly

# **RISALATUTH - THAQALAYN**

**A General Islamic Periodical**

**Vol . 14, No . 55, March – May 2007**